حِلمُ الرَبِّ

رواية

حيدر جاسم محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الأهداء

إلى كل من أسهم بمراجعة وانجاز هذا العمل مـن اساتذتي الافاضل..

عائلتي التي تحمّلت كسلي، وصَبَرت على انطـوائي بين أوراق مذكراتي الصفراء..

لكم جميعاً خالص محبتي...

مدخل..

إن أمةً من الجهلاء تبذل قصارى جهدها ومجهودها في صناعة القائد (الديكتاتور) ولم تولِّ أدنى اهتمام لصناعة الفرد، إلا أن يكون جندياً أمياً طوع أمر الطاغية؛ هي أمةٌ تقف على قدم واحدة ومسافة واحدة من السقوط والاندثار.

فإذا الضحايا سُئلت بأي ذنب قُتلت، ألدواعٍ وطنية أم لاسباب دينية أم لرغبة قائد متفرعن.. كلها أجوبة ظلامية وظالمة؛ لا مبرر للقتل فيها ولا عذر للقتلة.

كنتُ أستمع بشغف لما يختلج في الصدور، ويصرخ في غور النفس؛ ونحن في ثكنات الموت.. لأضع بين أيديكم صفحات من شتات الجندي المسكين.

حيدر جاسم محمد المشكور

العراق/ البصرة

٢٧/ كانون الأول/ ٢٠١٨

ما أقسى (ليلة الاعتراف) وأصعبها على قلبي، خاصة بعدما باتت (رجولتي على المحك) وأنا جسدٌ ملقىً بين إياد الاشفاق؛ لولا صخب (لواعج الروح) لما شعرت بأنفاسي.. ما أزال أتحسس انجماد ثلاجة الموتى يسري في بدني، حتى لم اعد اقوى على تحريك شيء من جسدي؛ وأنى لساكنٍ ذلك.. غير أن رائحة البارود والدم ومطببات التعقيم التي تزكم الأنوف؛ كانت كرائحة المنايا على النفس.

كنتُ أعتقد أن الموت شيئاً مفروغاً منه، لكن ما أن رأيت (الحيوات الأخرى) علمتُ أن الموت مجرد مرحلة عبور، باتجاه مراحل الكمال.

رأيت الكثير من الوجوه التي أعرفها، والتي كثيراً ما تجتمع (أيام الحزن) تجمعاً عفوياً.. عادني الكثير منهم بالمشفى، والأكثر من توافد على عيادتي في البيت، حتى من لي معهم خصومة؛ كانت (رسالة التغاضي) دليل القلوب النقية.. قد عبّرت الوجوه عن صدق مشاعرها بالدعاء.. وأنا مشلول الحركة أعبّر عن انكساري بصمت.

تمنيت لو أني لم أعد أدراجي من ملكوت العالم العلوي، ولم أصحَ بعد من (حلم الرب).. لأنزل (العالم السفلي) (نزولاً ارتقائياً) للاختبار من جديد؛ بعدما كنتُ في كنف (الحلم الأخضر).

شعرت بالاستياء من نفسي وأنا أظلم (فضول العقول) واعترف بـ(اعترافات مكبوتة) بأن ما خالجني من (عشوائية الشعور) لم يكن سوى (إملاءات شيطانية) تفاقمت كلمّا سوفّت، وماطلت، فكانت (عواقب الأعذار) وخيمة.

للحظة أراني كـ (قرابين النزوات) حتى بدوت (لا أثقُ بتوبتي) (بين انذارين وثالث) ولم اتحرّزمن عقدة المتدين المتزمت؛ فلم يزل (ذنب النجاة) له (ظلال وأصداء) في النفس.

وما أزال أسمع (أنصاف آراء) بين متعاطف ومزدرٍ: لو مات لاستراح، وأراح الناس منه.. فأحملق بالسماء وهي تعرف رغبتي، فالصمت كافٍ؛ ما يزال صراخُ النفس، كان مسموعاً.

كانت هذه فصول حكايتي المقصورة بين قوسين، إلا حياتي وأن بدت من الصفر، فهي لا تنتهي إلا بمجموعة اصفار؛ كأي خلق قابل للطيّ والتجديد.!

فبدأت معكم من الأخير.. لكنها (ليست النهاية).

إنصاف آراء

(١)

من طنجة الى جاكرتا.. الكل يعلم أن الاسلام دين الحق، نشرته السماحة والتعاملات الانسانية أكثر مما نشرته الفتوحات بما في ذلك سائر الأديان السماوية.. إما أنك تقول بشيء من الجرأة والجهل: إن الديانات من صنع البشر؛ فذاك لقصرٍ في النظر، وأفنٍ في البصيرة.

يتداخل باسم الحنش بسخرية مضيفاً: أو بالأحرى في عقله لوثة.

لكن وسام المهندس الذي بدا مناوراً، أعاد بنبرة أشد سخرية: اللوثة أقل ما يمكن قوله، والأصح ان في عقله عطب، كرائحة النعل المحترقة.

يثب سامي النخيب المقصود بهذا الكلام: لا تقولوا نعل، أشد ما أكره سماعه هذه الكلمة فكل ما أسمعها، يتبادر الى ذهني ذاك القندرجي الكلب.

باسم الحنش بفضوله المعتاد: متى نسمع حكاية هذا الإسكافي التي باتت مشوقة، لكثر ما تحاول إخفاءها والإشارة لها من بعيد لبعيد.

سامي النخيب المشهور بابن ناعومي، على اسم جدته وأحياناً قليلة ما يلقب بـ(ابو البير) الذي لا يعرفه فيه إلا خاصته المقربون منه، فهو لا يقل كفراً

عن مشركي قريش، ولطالما قال متبجحاً بكفره: لا أعرف أشكر مَن، في توقيت ولادتي، فلو كنت في زمن قريش، لكنت قائدهم لقتال محمد.

بدا كأنه مهرجاً ما زال هناك من يشاركه ذلك، والا استأثر الصمت.. لكن باسم الحنش أعترضه لإعادة النقاش لغرض التشفي به، مع أنه لا يفرق عنه كثيراً، فإن كان يؤمن بالدين، فهو إيمانٌ شكليٌّ كمن يُكتب في بطاقته الشخصية اسم الديانة؛ وهو عنه بعيد.

فعرض عليه المشروب الذي كان دائماً ما يجلبه للمعسكر، كونه يعمل معتمداً لدى الفوج، ما يسهل عليه الذهاب للسوق ودخول البارات مدنياً أو عن طريق وسيط.. فأبى سامي ذلك وطلب إرجائه إلى وقتٍ آخر.

على الرغم من مزاجية سامي الغريبة، إلا أنه جميل المعشر، غير عدوانيٍّ ولا شرير. وهو على ثقافة محدودة ومتواضعة، فهو بالكاد أكمل الابتدائية، ولم يستطع أن يكمل الدراسة، بسبب تهورهِ وتجاوزهِ على أساتذته في المدرسة، فضلا عن ظروفه البيتية غير المستقرة، وتسجيله في المدرسة بعمرٍ متأخر عن أترابه. ومحاولته الهرب خارج البلد، لكنه لم ينجح في ذلك، ولم يفلح في دراسته.

بدا عرض المشروب سار على الجميع، إلا وسام رفض ذلك فهو مقلل من الشراب، وإن كان يفضل النبيذ على العرق (المُسيّح) في حين استنكر زميلهم يحيى الرواض الصابئي ذلك، وقال له بالحرف الواحد:" لا يمكن ان تشرب

داخل ثكنة المنام ما لم تحترم الاخرين". وكانت الاشارة واضحة وصريحة، لاحترام زميلهم جمال الهاني، الشخص المتدين الوحيد بينهم، وإن كان معتدلاً، غير مبالٍ بتصرفات الاخرين.

إلا أنَّ أكثر من كان يعترضه، ويكره وجوده بينهم، باسم الحنش المشاغب، والمتعصب طائفياً؛ إذا لم يخل من نزعة شخصية.. في حين امتنع جمال الهاني عن إثارة اية نزعة عدوانية، مع استمرار باسم الحنش وتعمده في تأجيج الفتن، وتعكير صفو الأُخوة.. وهو يتذرع بعداء الأول للصحابة.. لكن ما كان لتبدر من جمال الهاني اية بادرة مشينة بهذا الشأن.. في حين بدا باسم الحنش مصراً على ان الخوف والنظام هما ما منعا الهاني من البوح بعداوته، وضغينته الأزلية. ولو سمح الظرف له ان يلتقي بمن يسانده، لأخرج ما يكتمه وبشجاعة منقطعة النظير.

لكن جمالاً كان أشد تعقلاً وكياسة، من أن ينجر وراء سكّير، لا يعرف كوعه من بوعه، فسرعان ما يخمد أنفاس المشاحنات بالصدِّ والإعراض. إما لإتمام عمل عالق، أو التفرد بكتاب أدبي ـ شغف جمال الدائم ـ وكان دائماً ما يفضل الشعر.. فثمة بضعة كتيبات دائما ما تكون بحوزته، خاصة في المعسكر، للترويح عن النفس والهروب من محيطه السيء.

(٢)

يحق لي أن أسكر، لعلي ارى العالم المهووس بالباطل عدلاً..

باسم الحنش سكرانٌ، يغني بطور وأغاني سعدي الحلي، وكان الصوت مقارباً الى درجة لا تصدق، بإجادة الطور والبحة الشجية.. حتى أن السامع عن كثب، يعتقد ان الفنان سعدي الحلي حاضرٌ على الساتر في عمق الجبهة.. الصوت الشجي لباسم، كان محط اعجاب الكثير، من يعرفه ولا يعرفه، وحتى ان بعض الضباط تُرسِل بطلبه للاستماع إليه.

وقبل ستة أيام تحديداً، تجرأ باسم ليطلب كأس خمرة من الضابط السكّير المضيّف له، والذي كان منتشياً في السُكْر، وسماع الطرب الأصيل، الذي يترنم به باسم في أغنية سعدي الحلي.. فسرعان ما انقلب الضابط ملازم (سعران) وكأنه وحش لينهال بالضرب على باسم، وأيِّما ضربٍ؛ لا يخلو من لكمات وركلات ما تسبب في كدمات على الوجه والظهر والبطن.. وحتى عندما حاول باسم الفرار، لحق به الضابط ليتم فصلاً من الركلات، التي أشبه ما تكون بالرفس العنيف.

وقتها علّل باسم ذلك:" في أنَّ الضابط يغار على شرفه الخمري منه".

وحوّل ما حصل إلى نكتةٍ ممجوجةٍ، وهو يقول:" ضربُ الحبيبِ مثل أكل الزبيب".

وتارة يقول:" يتدلل عليّ ملازم سعران".

وما بينه وبين خاصة صحبه، دائما ما يتذكر تلك الضربة. ويتألم، ويقول:" هي أثقل عليّ من ذكرى القندرجي على ناعومي -في إشارة إلى سامي - ويرجع ليحتسي كأساً جديداً من العرق المسيّح السادة، الذي يشج الحنجرة والزردوم، ويقطّع الأمعاء.. ليضحك ساخراً من صاحبه سامي الناعومي، ومن نفسه.

(٣)

بدا الجو يرسل علامات تهديد، تبشّر بعاصفة رعدية. بدت بريح عابثة بالمكان.. الطقطقة تصم الأسماع، ودثُّ المطر أخذ يصفع وجه الصفيح.. صوت نهر دجلة الهادر، المشع بحمرة الطين والغرين الخاوي، بدا يتهاوى مع انحدار التيار الحثيث.

الساعة تشارف على بداية الفجر. جمال الهاني استدرك نفسه، عله لا يفوّت نافلة الفجر، التي اعتاد عليها مع تلاوة ما تيسر من القران، بصوت هو للهمس أقرب منه للجهر. مراعاةً لزملائه النائمين ولأنَّ أرضية الثكنة حديدية، مغلفة بالخشب الساج، كان صوت الحركة مسموعاً، مهما كان وئيداً.. فتح باب الثكنة الحديدي بهدوءٍ، لكن الصرير بدا واضحاً.. فزَّ باسم مرعوباً بين ثقل السكر، وثقل النوم، فصرخ بجمال: خُذْ فراشك حيثُ جحر الكلاب هناك، وصلّ كما يحلو لك.

كان صوته عالياً ومسموعاً في هدوءِ الفجر.. نهض وسام مذهولاً، لا يكاد يفتح عينيه، وما أن أستقر به الوضع، نادى على باسم: ما بك.؟

باسم كأن يداً غيبية امتدت إليه لإنقاذه ما جعله يزبد ويرعد على جمال وكأنه لم يتسبب في ايقاظه حسب، بل كمن ضربه بسكين. وبدا كلامه صلياً ورشقاً بكيل من التهم، والسباب على جمال الذي بدا هادئاً، لكن ذلك ما زاد حنق باسم: ونعته بالمجوسي ابن المجوسي.. النعت الأشق على النفس الذي كان يحس بمدى وطئته على خصمه. في حين كان جمال يضحك ضحكة هازئة، وإن كان الشعور بالألم والمرارة غالباً.

لم يكتف باسم الحنش بسب جمال، ونعته بالنعوت القاسية، بل لجأ للكفر وهذا ديدنه، فكلما افتعل أزمة ما، زاد عليها من التعرض للقامات المقدسة، قاصداً بذلك تنفير المقابل.

ظل جمال حائراً، لم يجد مكاناً في الخلاء، لم يطله المطر، ليصلي عليه، ما جعله يعود بسجادته للثكنة لتأدية الصلاة.. ليزداد باسم حنقاً، وينفجر صارخا: حتى الكلب منعك ان تولج عليه جحره.

جمال ساخراً: الكلاب على اشكالها تقع.

وثب باسم من مكانه، محاولاً التهجم على جمال، فاعترضه وسام مهدداً: إيَّاك.!

فثنى عزمه عن المحاولة.. وكان وسام مسؤولَ القسم، وأمره نافذ أمام آمر الوحدة وسائر الضباط؛ فضلاً عن بُنيته القوية، وهو في عنفوان الشباب، ما يؤهله الإطاحة بأي خصم كان، وأن كان شرساً ومتمرساً.

بينما أخرج سامي رأسه من تحت البطانية، وهو ضاحكاً: نادوا على ملازم سعران؛ لهذا الكلب السعران.

فكان كلما اشتدت ضراوة وتهتك باسم، عيرّوه وهددوه بملازم سعران، الذي لا يعرف غير لغة الضرب؛ والضرب المبرح.

(٤)

كالعادة.. بعد التعداد الصباحي تتفرق الجموع، من الحرفيين، ومكاتب الأقلام والمشاجب، كل باتجاه عمله ما عدا جنود المشاة يرزحون تحت مناهج التدريب الروتيني الممل.. الا اليوم الذي بدت فيه ساحة العرضات اشبه ببركة للمياه الآسنة، في حين يعلو بعض الاماكن المستوية أكوام الطين.. ما دعا قسم الاليات، وجنود الأشغال لتصريف وتمشية المياه، باتجاه جدول البزل المتروك، الذي أصبح موطناً للأفاعي والجرذان، بين القصب والكولان.. مع ان الجو ما يزال رازحاً تحت غيمات متفرقات، هنا وهناك؛ تغيّب الشمس حيناً، وحيناً تجليها بأبهى مناظر الدفء.

ملازم خالد الضابط الإداري، يتوسط مكتب قلم الفوج، على أفضل كراسي المكتب الدوار، والذي لا يخلو من تهرئ الجلد، وكسر أحد اطاراته..

ليقوم بمهامه كضابط اداري، والتي لم يقم بها بشكل منتظم، وتعد من الزيارات القلائل، على الرغم من مسؤوليته المباشرة لها. وهو ضابط أريحي في مقدار التلاطف، والا فالنزعة العسكرية دائما ما تسيطر على مزاجه، وتحيد من انفتاحه؛ فلا يأمن الجانب وان بدا على شيء من الطيبة.. فالتصنع يخفي عليك الكثير من معالم شخصيته الحقة.

تصفح بعض السجلات التي قدمت أمامه، ودقّق موجود المتفرقة للفوج، مع وسام عريف القلم، والمسؤول المباشر أمام الضابط.. بيد ان ملازم خالد يعتمد اعتماداً كلياً عليه، وقلّما يفتش وراءه، خاصة وأنه منشغل بالتسكع من حانة إلى أخُرى.

إنتهى من مراجعة الكتب الرسمية، وتفرّغ للمهاترات مع باسم الحنش، الشخص الاكثر شغباً من بين أفراد القلم، هذا إذا لم يكن على مستوى الفوج.

الضابط ممازحاً: ما قصة ملازم سعران معك.؟

وسام ضاحكاً: جعل منه كيس رمل، لتأدية تمارين الملاكمة.

باسم الحنش، مبرراً: اخي الكبير.

سامي ساخراً: أخوك.! تقصد ان اباه له علاقة......

الضابط يومئ بسبابته الى سامي بالسكوت.. ثم ألتفت الى باسم متسائلاً: ما السبب.؟

باسم الحنش بشيءٍ من الإنكسار والتصنّع الكاذب، الذي لا يمرر على ضابط بخبرة ملازم خالد، المتخشخش في كل زاغول، قائلاً: لا شيء غير انه

اراد ان أغني له أغان سعدي الحلي القديمة، فاشتبهت بإحدى أغاني سعدي البياتي.

الضابط مستغرباً: سعدي البياتي.! بالله عليك يا مجنون؛ أسمعني.

باسم الحنش تورط في كذبته، فهو لم يحفظ للبياتي اية أغنية، ما دعاه للاعتذار.

لكن ملازم خالد أصرّ على الاستماع: الآن يا ليت لو كانت أغنية "اتنه اتنه".

استسلم باسم لرغبة الضابط الملحة، محاولاً أن يسعف كذبته، وما أن شجا بكلمات الاغنية.. استوقفه متهكماً: أحسن ما فعل بك ملازم سعران؛ عاشت يداه.

فضحك الجميع بنبرة ساخرة.. بعد ان استطرد ملازم خالد كلامه معيباً: الطرب الاصيل لسعدي الحلي فوق ـ توقف قليلاً، ثم أكمل: فوق ما تتصور وانت تحت، تحت ما تتصور ـ وكانت الإشارة مبطنة.

ما تعالت نبرة الضحك والسخرية مرة اخرى، وبطريقة ممجوجة.. خاصة ان التفسيرات السيئة، دائماً ما تنتصر على سواها، في مواطن مشحونة بالنفاق.

لكن لم يرق الجو للضابط، ما جعله يتدارك الأمر، ويغيّر الموضوع بقوله: المهم إذا كانت لديك اي شكوى على ملازم سعران، فيمكنك ان تكتبها، وأنا بدوري أرفعها للسيد الآمر.

لكن هذه الألاعيب لم تنطلِ على باسم الحنش، الذي عاش بين معسكرين مختلفين، من الشرطة والجيش، وهو أكثر من عارف، بأن الحق في هذين المعسكرين، مضيعة لصاحب الحق ونفيه.. فأجابه:" اشكرك سيدي، ما كان بيني وبين ملازم سعران، هو ما يحدث بين الأسرة الواحدة؛ ونحن عائلة بيت.

ابتسم ملازم خالد وهو غيرُ مقتنعٍ بجوابهِ تماماً، فهزَّ رأسه إشادة بذكائه؛ وربَّت على كتفهِ وخرج.

(٥)

أحياناً يصلُ بك المستوى إلى درجةِ الجُبن والإنحطاط، ما يجعلك تهضم الإهانة وتتقبلها برحابة.. فضَرْبُ ساعة في اليوم خلاف القانون الخوارزمي، في حسابات وأنظمة العسكر التي لا تقبل إلا القسمة الضيزى.. هكذا كانت الواقعة المؤسفة بين ملازم سعران وباسم الحنش على الرغم من مضي بضعة أيام عليها.. إلا إنها كانت مثاراً للضحك والتنكيل به من قبل أقرانه، لطالما تعرَّض لهم في كل صغيرة وكبيرة، فضلاً عن لسانه الحاد والفاظه النابية ولم ينته عند هذا الحدّ، بل نصّب نفسه وصياً للدفاع عن طائفته بكل ما أمكنه من مجازات سوقية.. وحتى هذه الساعة، ما بين كيل الشماتة به، يقف بقوة لا يعني له الإنتقاص شيئاً، ويجعل من السخرية القاتلة رغم مرارتها مركباً يعبّر به أيامه متجاوزها باللامبالاة؛ والهزء بها.

كان من أكثر المطبلين سامي النخيب، على مسرح هـذه الواقعـة، التـي مـا تكاد تنسى حتى تثار من جديد، بمناسبة ومن دون مناسبة.. ولأن فصل الضـحك لم يكتمل، الا بالتطرّق للشأن العائلي فقال: أظن أنّ أم الحـنش لـو عَلِمـت بتلـك الواقعة لطلبـت الطـلاق ـ إشـارة إلـى زوجـة باسـم ـ إذ دائمـاً مـا يكنـى ويلقـب بالأسم ذاته في نفس الوقت.

باسـم ضـاحكاً: لـيس جديـداً عليهـا فلـم تكـن المـرة الأولـى، ولا هـي بالمرة الأخيرة.

ضحك الجميع لأعترافاته، فهو بذا يبدو غير مكترث بـالأمر، واعتيـاده علـى الضرب أمر طبيعي، وغير مخجل.. واستطرد قوله: ماذا كانت ترجـو مـن سـكّير. حتى أنها إذا مـا وجـدتني صـاحياً فـي النهـار، اشـارت علـيّ بالمشـروب؛ تجنبـاً للعراك، وسعياً لراحة البال.

يحيى الرواض، مندهشاً: ألا يسؤوها أمر السكر والعربدة.؟

ـ بصراحة انا سكران أفضل لها مني صاحٍ.

ـ يعني تشعر بنعمة الهدوء.

فقطع الطريق على يحيى وأسئلته التي بدت غير مريحـة، فأجابـه متهتكـاً: لا فض فوك؛ وفضت بكارة .....

علا الضحك المكان.. بعدما أراد باسم بتهريجه ان يضفي صبغة النصر علـى الحادثة المشؤومة، التي باتت تؤرقه من الداخل، بما في ذلـك تلويحـات مـلازم

خالد التي تشكل عقبة كؤود أمامه، وسمعة غير جيدة تضاف الى سمعته السيئة. فقد أعرب عنها، قائلاً: ان الضربة لم تؤذنِ كما آذاني قول ملازم خالد.!

وسام يهز رأسه تأكيداً.. لكن سامي النخيب الذي لم تفته فائتة، قد فلتت هذه المسألة من كماشته، فاستفهم: ما الامر.؟

أجابه وسام: "ذاك فوق، وأنت تحت".

فضحك سامي بازدراء وتصنع، قائلاً: لا. الحقيقة أن ملازم خالد على خطأ، وخطأ كبير، لكن إذا شئتم ان أقول الحقيقة..

قاطعه باسم: لو اكرمتنا بسكوتك، نكون ممتنين.

لكن يحيى الرواض، معارضاً: دعنا نسمع، ربما ينصفك الرجل.

باسم بحمق ومداهنة: متى ما تخلص ابو القاسم الطنبوري من قندرته، كان ابن ناعومي للقندرة منصفاً.

سامي بتذاكى وتحاذق: دعنا نصوّت، إذا كانت الأغلبية ترغب بسماع رأيي بك، أو لا.

باسم بتهكم: لا.. لا.. أشكرك، فانا اعرف نتيجة التصويت مسبقاً، فهي مثل نتائج انتخابات الدول العربية المعروفة سلفاً.

رمقته الوجوه باندهاش.. فعاد مستثنياً: الا العراق؛ فهو ينعم بحب القائد الأب.

فكاد وسام ان يختنق لتفاهة هـذه النكتـة، وتنـاوش مملحـة كانـت بـالقرب منه، ورش شيئاً من الملح براحة يده، وهو يلحس ببشـاعة، قـائلاً: نكتـة ماسـخة؛ وإنْ لعبتها صح.

بينما كانت الشفاه تمطـق تصـنعاً.. قـام سـامي خطيبـاً مشـيراً إلـى باسـم: أنَّ الفرق بينك وبين سعدي الحلي، هو هو ما اشتهر به؛ وأنت أنت ما خزيت فيه.!

باسم محتالاً، يغطي وجهه براحتي كفيه، وهو يقول: أخـزاك الله، لـو ابقيتنـا على خياطة العام؛ لكان أرتق للفتق.

* *

لواعج الروح

(٦)

شيئاً ما في الأفق يخيف الكل.. تحركات العدو باتت مكشوفة، الاستعدادات لشن هجوم مماثل لمعركة شرق دجلة ١٩٨٤ بدا يلوح في الأفق.. الكل معرّض للموت.. رسل السماء تنتظر الأمر

موت بأرخص الاسعار، مجّرد مسمّيات لا يعرفها الكثير، ولا تدخل في مجال تخصصه.. وإنْ كانت سمته الذكورية تحتم عليه الدفاع عن الوطن؛ فما ذنب الأم والزوجة والطفلة والحبيبة التي تنتظر الإفراج المشروط.

عشق الحياة الأجمل والأعم محكوم عليه بالرصاص الحي.. يحق لك أنْ تفكر في الحياة لكن بطريقه مشروطة، ان تقرر لك الحكومة ذلك.. حتى الإفلات من الموت لا يتم الا بموت اخر، كأن تكون لهجرة غير معلومة النتائج، أو معروفة المكان، أو التعويق والطريق اليه أحد السبل المؤدية الى جهنم الحياة، قبل جهنم الآخرة.. وكل الخيارات البديلة حبيسة الغيث متعذرة ما لم تجد المناخ المناسب.. وهي تحت يافطة (اهون الشرين).

في كل مرة ينطوي وسام بدر تحت لافتة (شخصي يهمني أكثر من غيري) فلا يحاول الإفصاح عن مكنون خصوصيته، فهو لا يختلف كثيرا عن زملائه لكنه كان أكيس منهم، ما يزال لم يجد ما يمكن أن يأمنه على أسراره.. قد يكون جمال الهاني أكثر قرباً من الآخرين إليه وأكثرهم إحتراماً له. لكنه جديد عهد بهذا القسم.. فضلاً عن انه مبهم على الرغم من الالتزام في العبادات والأتزان والتحلي بالأخلاق الفاضلة، وعدم تطفله على الاخرين؛ إلا أنه يظل في دائرة الغموض.

بينما كان في إحدى الليالي يتابع عمله، وهو يدندن في أغنية فريد الاطرش:" عدت يا يوم مولدي".. كان وسام يسترق السمع خلسة.. على الرغم من اندماجه بالكلمات، استوقفه نشاز الصوت.. فلم يلبث حتى ظهر عليه ممازحاً: لو يعلم فريد بأنك تنافسه لأعتزل الغناء وهو ميت.

ضحك جمال وهو مستحٍ.. لكن وسام ربَّت على كتفه معتذراً، لما رأى من إحمرار الخجل الذي غطى معالم وجهه: كلما أسمع هذه الالحان، وشدو الاصوات الحنينة، ومدى عمق الكلمات؛ أجد نفسي مذهولاً بهم، ومغرماً بالحياة.

جمال يستمع بروحٍ، وكأن شيئاً من انفجار هرمونات الحنين بدت تنزُّ على ملامحه؛ وهو ينتظر من يشاطره تلك الذكريات الموجعة.

واستطرد وسام القول بعد إمعان النظر في ملامح صاحبه: أنت عاشق. أجزمُ إنك خضت مغامرة الحب؛ وإن لم تفلح.

تغيرت سحنة وجه جمال الى سواد وحزن، وبدا بؤبؤا عينيه بالاتساع.. غير ذلك ان السؤال كان اقتحامياً، قض مضجع السكينة، لنفس قعدت عن المنازلة.. قعوداً ينتظر تفقيس الأمل من بيضة الاعراف والجهل.

وسام كان أذكى من ان يلح عليه، فاستخراجُ الحقيقة من خاصرة الاماني كانت محض كذبة.. والحب أكذوبة عذبة، لكنها شديدة السُمَّية.. ما دعاه ليشير عليه بالراحة والانصراف إلى النوم.. وكان في داخله ألف سؤال وسؤال.. ربما كان معظمها لنفسه إذا لم تكن الألف منها، والواحد المتبقي للآخرين.. وشعر برغبة بالبكاء، لكنه يعلم بأن البكاء لا يعبّر بالضرورة عن الحزن على النفس، بقدر ما يعبّر عن الاسف على الحياة.

(٧)

إذا ما كان الماضي يشبه الحاضر، فلا أسفٌ عليه، ولا حنين، ولا ذكريات..

هناك رغبة ملحة تعتري وسام بالإفراج عنها، وإطلاقها للفضاء الخارجي، كقنبرة تنويرية، الكل يراها ولو على شكل ومضة لبرهة من الزمن؛ أو لا يهم الزمن.. فإنفاق العمر أسهل بكثير من إنفاق ما في الجيب.. والأهم من يشاطره

هذا الهم، فلا شيء أجمل من الصديق الصدوق، في رجفة الرغبة والبحث عن نديم.. حتى ان كان جمال يتصدر رأس هذه القائمة، إلا أنه من النوع الشاري غير البائع، او البائع العسر؛ الذي يصعب المساومة معه، والمزايدة عليه.

ففكر بإقحام الكل، وإشراكهم في الكشف عن ملابسات حياتهم، والاطلاع على أسرارهم وخصوصياتهم، قاصداً بذلك ان يعرف مستوى ذنبه، قياساً بذنوب الآخرين.. وبذا يضمن أنْ تتكشف اوراق الكل، لتلافي المعايرة والمناكفات التي تتمخض عنها.. ويُعرض للتقييم ما يسهل عليه ضرب عصفورين بحجر.

ربما تتاح أمام الآخرين مساحة كبيرة.. فيكون ذنب الكذب أكبر من الذنب نفسه.. والتفاخر وهو المسألة الأعتى والأشق التي ستصادفه؛ خاصةً عندما يتظاهر الخسيس بالمرؤة، والجبان بالبسالة، والمحروم بالتبطر، كل ذلك سيغيّب الكثير من الحقائق، ويعرقل هدف الاعتراف.

وفكر ملياً، فلم يجد غير البداية الصحيحة هي الأساس والمنطلق لهذه الحركة، التي تبدو للوهلة الاولى غريبة موحشة.. الا انها قد تودي بالنهاية للراحة النفسية.. فالنفس المكبوتة بحاجة ماسة الى صفعة منبهة.. وسرعان ما تهلل وجهه فرحاً كأنّ انفراجاً ما عثر عليه:" نعم ابن ناعومي ـ المقصود سامي ـ قد يكون أول الغيث لو استطعنا معرفة ما في جعبته؛ لأستطعنا معرفة الجميع..

حتى وإن كان رمزاً للفساد فهو لا يستحي من أن يقول الحقيقة ولو على نفسه.. اظنه عملة نادرة لا يستغني التراث من ذخرها، وجلاء معدنها.

فكانت البداية مع سامي النخيب، موفقة الى حد ما ـ حسب اعتقاده ـ وقد يكون القشة التي تقصم ظهر البعير. وأزداد تفكيره بالمضي قدماً بهذا المشروع، الذي أراد منه ان يكون مشروعاً اصلاحياً وتهذيباً للنفس.. وما ينقصه إلا مراسم التبرك والتعميد، وأن كان على طريقة الصابئة.. فكلٌّ الطرق تشبه بعضها الآخر، لكنه ظل عاجزاً، لإيجاد الدافع الوجيه المغذي لهذه الفكرة، لنيل قبول واستحسان الاخرين.

(٨)

يحيى الرواض الصابئي المشهور بالسحر واعمال الشعوذة.. وان كانت الشهرة عارية عن الصحة وهي نظرة جمعية لمعتنقي هذا الدين.. وقد بدت كمَعْلم إرثي تداولوه فيما بينهم، كابراً عن كابر.. أو بالأحرى أن يكون من خفيات العلوم التي اكتسبت طيلة مسيرتهم الدينية الزاخرة بالمعارف.. وهم كما تشير كتبهم التاريخية من أقدم الديانات السماوية.. ولهم من الميزات الروحية ما ترقى الى درجة التسامي العلوي.

غير أنَّ يحيى الرواض كان أبعد ما يكون عن خوض غمارات هذه الأباطيل المتعلقة بالسحر والهرطقة.. وأشد تحفظاً من الإنجرار وراء رغبات

الهوى، على الرغم من أن هناك رغبة عارمة من المتنفذين في مقر الفوج واللواء لإستمالته إليهم لمكاسب معرفية.. كان قد امتنع من إعطائهم الفرصة في استغلاله.. حتى التهديد الذي كان يكسر الحديد لم ترتعش اليه فرائصه.. ولطالما كان التهديد يخيف صاحبه، لأنهم يخافون الإقدام في التورط مع رجل في جنبيهِ ظلام يهموم.

حتى تناهى إلى فكر وسام الذي بدا مصراً على خوض هذه اللعبة، أنَّ الأفضل أن يكون الاعتراف عفوياً يأتي عن رغبة المعترف، ما يمكن أن يتحاشى بذلك زوبعة من الكذب التي ترافق اللعبة.. فالإنسان في سجيته ان يكون فاضلاً وأن كان حريًّفا في المفاسد.. وقد يكون الكذب وسيلة ترقيعية للسمو والتكامل على خلاف ما يحمل التاريخ من صدوع ونتوءات تفضح الاستقامة وتهدد زيف النبل.

بالتالي رجع وسام مسلماً للفكرة الأم.. إنّ أغلب الأشخاص من حوله منكشفون لديه كالنهار؛ فما جدوى البحث وراء الظل.! والمرآة عارية أمام الأعين وصادعة بحقيقة الوجوه.!

ثمة ما يثبط الهمة، ويثني العزم بالإقدام على مشروع غير ريعي، وفي مؤسسة عسكرية لا تسمح اطلاقاً على إقامة أية مشاريع مهما كان نوعها، وشكل ثمارها.. هذا إذا ما ترجمت على أنهُ فعل غير أخلاقي.. خاصة إذا ما علمت به الخلايا الاستخبارية، التي اشبه ما تكون بالخلايا السرطانية القاتلة..

عندها تطول قائمة العوارض والموانع.. مثلما تزداد القوارض في التكنات القذرة.. تزداد اجهزة الرقابة والمخبرين؛ وإنْ كان طنينهم لا يبشر إلا بالوباء.

فلم يجد أمامه غير الاستفتاء مع أصدقائه، لمعرفة ما إذا كانت هناك رغبة في المشاركة.. لكن الاستفتاء بحد ذاته أمرٌ ممنوع، في دولة محكومة بالحديد والنار.. فبدت له الأجواء، كأجواء شهر آذار المتقلب؛ الذي يمدّ قدماً في الصقيع، وقدماً في الربيع.

(٩)

الآمال كبيرة، ولواعج الروح أكبر..

الأخطار بدت تحدق بالمنطقة، ورفيف أجنحة الغيب، بدا لها دويٌّ مسموع في الاذهان.

باسم الحنش في مهاترة كلامية مع نائب ضابط (مخلف) مسؤول قسم الآليات، وهذه المهاترة المعتادة بينهما حتى صارت مزحة مستساغة للجميع.

استلم باسم الحنش منحة السيارة من نوع (فوكس واغن) البرازيلية صاحب الخدمة الأقل بين أقرانه المتطوعين ما جعله يسخر من نائب ضابط مخلف، بقوله: السيد الرئيس لا يمنح السيارة للخسيس.

فأجابه مخلف بأهزوجة محرفة دائماً ما يطلقها نائب ضابط مخلف: سامي النخيب قندرة، باسم حنش قيطانها.

فيمد سامي النخيب رأسه من نافذة الثكنة ويصيح: مخلف الخبيث الخنيث.

ومخلف يعود عليه مؤشرا بذراع مستقيم: هذا لناعومي.

ينتهي فصل المزاح بأخبار باسم المخيفة التي تنبأ بهجوم معادي وشيك، وعلى ذات الجبهة:

"الكل يتحدث في مقر القيادة بان الهجوم شبه مؤكد على قاطعنا ".. هكذا أخبرهم باسم.

علا الوجوه لبوس الخوف، وطعوم الموت؛ وسرحت بهم جياد الاخيلة الى المجهول.

يحيى الرواض متململاً: ربما نحن في نهاية العمر الافتراضي لنا.. لكن لا اشك ان هناك عمر واقعي يتسم بويلات ومآسي متلاحقة، إذا ما بقينا احياء.

استشعر وسام ما قاله يحيى كنبوءة خطيرة عن المستقبل، لكنه بدا آملاً النجاة من الحرب.. بينما لم تبدِ على سامي أية هزة خوف، او رعشة ضعف.. وان كان صمته، يستقرئ إمارات الوجوه بنظرة صفراء؛ كأنه يعيب عليهم هالات الوجوم التي باتت تأسر الملامح.. حتى انفجر هازئاً: ما بال اصحاب الله خائفون.. نحن ابناء الطبيعة يسرنا ان نتلاشى معها.

وسام ضاحكاً بازدراء: الحجج الواهية، لا تستحق الوقت التي تضيعه بالنقاش والمماطلة.

جمال الذي كان أحرص ما يكون على ثباته وأنْ لا تزعزعه إرادة الخصم، قال موجزاً: لا يحمل لنا الموت أكثر ما نحمل إليه من اعتقادات ظالمة.

وسام كأنه أعدّ ذلك مسبقا: بل هو لا يعدو ان يكون أشبه بالمقص الذي يقص شريط مشروع جديد.

لكن باسم الحنش عمد على تبديد الخوف والتظاهر بقوة: لا أظن أنَّ هناك قوةً، أفضل من العرق المسيّح تقصم ظهر الموت.

فطرب لذاك سامي النخيب مؤيداً: نعم أنت صح، فالموت يأنف من النزول لمستواك فيتركك ليقتلك العرق.

باسم مستخفاً: لم اسمع بأن أحداً ما، أماته السكر، فالناس تُقتل بالحروب، والاوبئة، والقهر، والعهر.. هذا خانته زوجته فقتلها، وانتحر. وذاك هجرته عشيقته، فمات كمداً. ونزاع إرث يطيح بفارغي الرؤوس. وأم الشهيد تبكي حد العمى، بداية الموت، وتتبعه. وأبو مفقود يطيح به الضغط والسكر؛ كلهم اموات بطرق هادئة.

(١٠)

تنابض القلوب تحت المعاطف العسكرية الكاكية الوثيرة خوفاً ورعديدا.. من مستقبل متكاسل القدوم.. برد آخر الشتاء متقلب، يزداد لسعة، كلما دنوت

من النهر.. وكلما كنت في العراء السحيق.. وأنت محاط بالماء والقصب؛ ونواح بيوتات الطين والبردي.

الليل لحن حزين، لسمفونية كون غريب الصدى، مترامي المدى، يضيع في خفاياه الأثر والرجع البعيد.

اجتمع الزملاء في ثكنة المنام كالعادة.. بعد عناء يوم طويل، تكرس في إعداد المواقف العسكرية والموجودات؛ والتهيؤ لما هو آت.. إلا مشروع وسام ظل عالقاً ما لم يعد خطة سريعة النفاذ، فلم يعد أمامه من الوقت الكثير؛ فإما أنْ يفتح قلبه، أو ينهزم بذنوبه خارج المدار.. لكن لم تؤرقه ذنوبه إلى هذا الحد الذي لا يكاد يطاق.. غير البحث عن متنفس ما، يجد من خلاله بوابات المغفرة مشرعة، لكنه في كل مرة يتعثر بعذر ومانع يحول بينه وبين تقبل الوضع المألوف بالرجوع الى الله.. الأمر الذي يراه عصياً، ما لم يتحقق معه الالتزام الكلي، وهو أبعد ما يكون من البدء من الصفر.

عجلات رحى المعركة بدت بالدوران.. ما يعني إنَّ فرص النجاة بدت تتقوض شيئاً فشيئاً.. متناسياً إنَّ الرحمة أوسع من فضاءات المخيلة.. وأنَّ القنوط وحده هو كفر محض.. فالملكوت قائمٌ على أساس الرحمة ولولاها لتفككت عقد الحبك الوثيقة، وأفلتت كل المجرات إلى اللارجعة والعشوائية ـ الفكرة المستميت عليها وسام كمعتقد ـ فكل تسالي الحياة لا تعزيه، إذا ما انخرط من مسبحة النظام العظيم.

حتى الصمت الجريء الذي يفتك بالنوم ما عاد يواسيه كأنّ وحي العالم البعيد ينادي عليه.. التصورات السيئة أخذت تحوم طيورها فوق رأسه.. لم يعد في وسعه التخلص من جأر غرائزه التي باتت تتهالك.. الخلايا الميتة تجر الخلايا الحية عبر قنوات فردية المسالك ذهاباً بلا اياب.

وإذا بصوت جمال يخترق عالمه: استاذ وسام العشاء جاهز.

ففزّ من اغفاءة الموت لينظر الكل من حوله احياء يرزقون.. فضحك بنفور وهو يقول: ما يزال لي رزق في الحياة بعد.

كان العشاء عبارة عن دجاج مسلوق الذي يرتب في الثكنات بعيداً عن المطبخ الرئيس، فيقطع ويقلى جيدا بإضافة البصل وقطع من الطماطم ويطيب بالبهارات.. ودائماً ما كان جمال يقوم بهذه الترتيبات وهو يجيد الطبخ بشكل جيد، فضلاً عن النظافة والعناية، وعدم الاستنكاف والتثاقل.

لكن باسم حاول إفساد متعة العشاء بنصب قنينة المشروب فوق المائدة في محاولة لاستفزاز جمال.. الخلاف الذي لا يهفت جمره إلا وهبت عاصفة مزاجية مشحونة بنعرة الكره لإيقاده.. كل العيون كانت شاخصة تجاه جمال وردة فعله.. لكنه كسر كل التوقعات، وخيّب الظنون، عندما مسح يديه، وتراجع بخطىً وئيدة إلى الوراء، بعيدا عن السفرة وهو يدعوهم للطعام.

* *

رسالة التغاضي

(١١)

إتشح المكان كله بالسواد.. الظلام الدامس يترك أثراً في النفس الا القلوب البيضاء كأنها أضرحة الأولياء شامخة بأنوار التقى.

السُكْر هدنة صراع مؤقتة لا تفوق منه إلا على صدمة صراع أقوى وأكبر.. ما أفرح وسام هذه المرة، ان راحة السُكر غلبت راحة الصحو.. الشعور بالإعياء والغثيان كلما تناول قدحاً من العرق المسيّح جعله يترك المشروب، ما عدا جرعات من شراب البيرة، التي تقل بها نسبة السُكر بشكل نسبي.. إلا اليوم فهو جذل مسرور منفتح على الآخرين، لا يحب أن يكدّر عليه أحد مزاجه الذي بدا منتشٍ.. ورغم سيطرته على نفسه، وأنه لم يحتس إلا القليل، فقد بدا يشعر بثقل لسانه، ما دعاه للانقطاع عن إكمال كأسه الثالثة؛ وهو يستعد ليبدأ حفلة الإعلان عن مشروعه.. أو أقلها البدء بالمقدمات، والتمهيد لهذا العمل الجبار كما يظن.. لكنه لم يحسب حساب المفاجئات المضادة التي تصادفه، كأن لم يحظ مشروعه بالاهتمام، أو تصغيره وتسفيهه.. خاصة وهو لا يعلم ما يريد بالضبط، ولا توجد نقطة انطلاق مكوكية ليحلق في فضاءات الآخرين.. في رحلة بحث

عبثية وراء تبرير ذنب، يحمل ذنباً آخر باجترار اعترافات غير منطقية، كان من الاولى تركها والتغاضي عنها حسنة.. فالتغاضي وحده رسالة تختزل مسافات شاسعة من الإبهام.. لكن هناك الكثير ممن ينظر للتغاضي على أنه لا يفرق كثيراً عن التغابي؛ أو هو جزء منه.

فسرعان ما عدل عن فكرة معرفة ذنوب الآخرين، ما لم يسعَ في إيجاد قنوات المغفرة والاصلاح، ولو دعا الأمر لردِّ الحقوق والمظالم بنفسه.. ووجدها فكرة أوسع وأكثر كمالاً.. وصوّبها عقله الباطن، فأن إعادة الحق وإنْ طال عليه العمر هي من الفضائل.. لكن هل يمكن ان تعيد حقاً استلبته بالقوة والحول والحيّل في لحظة تأنيب ضمير أو صحوة موت ـ كما يقال ـ لا شك أن الأجوبة ستكون مخيّبة للآمال.. إلا إذا كان العمل على مبدأ ان هدى الله بك احداً لخيرٌ لك من عبادة الثقلين.

رُفع الحرج أمام وسام، واستوسقت عنده الحلول، وشعر بالرضا من نفسه، وانه قاب قوسين أو أدنى من أن يبوح بسره المكبوت.. ويطلق مشروعه الذي حار بتسميته فطوراً بردِّ المظالم وطوراً بمشروع الكفارة؛ وان كان الاسمان يفضيان الى نتيجة واحدة.. لكن ثقل السكر وخفة الجسم باتت تجره إلى النوم.. وهو عاجز إلى أن يحدق بأصحابه، الذين بدا كل واحد منهم يفترش مرتبته ويرمي بجسمه المثقل بالأماني.. ناموا وأحلامهم يقظة مجروحة موجوعة مكسورة الخاطر.. تقلب عليهم حلو الذكريات ومرها.

(١٢)

يتوسط مكتب القلم ملازم خالد هذه المرة بحماس صباحي، لا ينبأ إلا عن قلق بالغ.. بدأ يسود المسؤولين من الكبار نزولاً الى أصغر الضباط، دون ان يستثني ضابط إداري أو غيره.. ما أدخل وحدات القاطع بأكملها في حالة انذار دائم؛ كبسَ على نفس كل واحد منهم.. وأي تقصير يوصم بالتواطئ والتخاذل والخيانة العظمى.. فالكل في موضع شك، أو بعبارة أدق" الكلُّ متهم حتى تثبت براءته".. ولطالما جاءت البراءة متأخرة؛ ربما بعد ان يفوت الفوت.. هذه واحدة من مصائب شعب يُقاد إلى الموت مرغماً شاء ذلك أو أبى.

الكل منهمك بإنجاز عمله على أتم وجه وبأقصى سرعة.. حتى أنَّ وجود الضابط على رأس العمل، يُسرّع في حركة العمل، ما يحفّز الجندي علي إتمام مهامه ولو شكلياً بالتداخل بالأعمال وتقاطع المسؤليات.

وما أن أكملوا البريد وأُعّدت المواقف.. طلبَ الشاي مع السماح لمن يرغب بالتدخين.. تنفس البعض منهم الصعداء.. إلا جمال ما يزال منهمكاً بإعداد لوائح النشر.. وعلى الجانب الآخر وسام الذي بدا يشكو من صداع الأرق والتفكير بلا هدى وثقل المشروب الذي ما فتئ ينفك من رأسه؛ إلا إذا طار رأسه.

ملازم خالد المنتشي في جرعات الشاي الحلو مع سيجارة السومر الازرق الطويل، وهو ينفث بغلالة الدخان التي تملأ المكتب، نادى متسائلا: وسام ما بك.؟

وسام يفتح عينيه بقوة كمن يخرج من قوقعة: لا شيء مجرد إجهاد بسيط.

ملازم خالد مسترسلاً: مصحوباً بأرق.

وسام ينظر إليه بتشكيك دون أن يحر جواباً؛ عدا ابتسامة صفراء.. إلا أنّ ملازم خالد ما يزال مصراً على تبادل الحوار، منعطفاً بالإيجاب المرغوب: العشق أليس كذلك...؟

وثب سامي بمكر: بئر غويط ـ إشارة إلى وسام.

ملازم خالد ضاحكاً: وما تكون أنت يا ابا بئر.

سامي ببساطته المعهودة: رجل فقير.

ملازم خالد: صحيح ما قصة البئر.؟

سامي بلباقة: قصة طويلة تحتاج الروقان.

باسم قافزاً على الحديث: المشروب عليّ.

وسام خرج من صمته: بدت السفالة.

ملازم خالد يحاكي وسام: لو إنك حدثتنا عن عشقك لما احتجنا لتطفل بعض السفلة ـ في إشارة لباسم.

وسام، ضاحكاً: سل السفلة هم أهل العشق.

باسم، بفذلكة: نحن المتزوجون لا نعشق إلا زوجاتنا، أما أنتم أولاد الجامعات فأهلٌ للعشق.

أحسّ وسام بذكر الجامعات أنها صفعة على الوجه.. وعودة لماضي الذنب؛ حتى أنّ مشروع الكفارة هو كفرٌ بعينه إذا لم يحقق مبتغاه.. وأكد ما كان عليه أو ما يشعر به وقتها، معرباً: نحن فارغون.

ملازم خالد غير مقتنع: كل هذه الشطارة والشياكة التي تتمتع بها وفارغ؛ لا يعقل.

وسام أسفاً: كل هذه الأمور غير مجدية إذا لم يسعفها الحظ.

ملازم خالد، بعمق: أتؤمن بالحظ.؟

وسام متململاً: إذا كان الحظ كقدر فلا؛ بل أعتقد إنه حالة نفسية.

سامي بتباه: أجمل ما فيك أن لا صلة لك بدين ولا طين.

(١٣)

لم يكن الإيمان سلسلة تكميلية أو تجميلية للإنسان، ما لم يستق من نهجه الواضح الروي.. فما أكثر المعتقدات التي فُندت من أربابها، وكانوا أول من حكموا ببطلانها. فكانت اعتقادات وقتية، ما أن انتفت منها الحاجة؛ إذ أول من وقف ضدها من كان بالأمس يرعاها.

لمح وسامُ جمالاً وهو يصلي بالعراء صلاة الظهر.. كانت الشمس عرض السماء، لكن نفحات من البرد المنعش تضفي مسحة إحساس بمكابرة الشتاء الذي بدأت ايامه تنصرم.

يفكر وسام فيما دار البارحة مع جمال وامتناعه عن العشاء، بعد التطفل الفج من قبل باسم على معتقده والتزامه بأحكام الدين التي تحرم مجرد التقرب من الكحول؛ فكيف باحتسائه.؟

وجد وسام نفسه ملزماً بالاعتذار لأنه اشترك بالرضا لهذا التصرف المستهجن، الذي لم يفكر حتى بالاعتراض عليه، ولولاه لكان الأمر طبيعياً.. فقد يكون للمشروب وقت آخر ومكان آخر بعيد عن التطفل على مشاعر ومعتقدات الآخرين.

وسام معتذراً، والاعتذار اعتراف بالذنب وهو من الفضائل، التي تشق عصا الخلاف، وتذلل المسافات وتقطع أنفاس الضغائن وتشي بالمكائد.. فتلّقى جمال صاحبه بهدوئه المعتاد، وهو مبتسماً غير حافل بالأمس، وما بدرَ منه.. وجلس بمحاذاته وكأن وساماً أقدم على النطق، فاستوقفه جمال: لا عليك لكل جواد كبوة، وإنما هي لحظة صبر عابرة، تتلافى بها مصيبة عاثرة.

لم ينم هذا الجواب إلا عن مزاج رائق بلا حسد: يا ترى هل ثمة بشائر بالأفق.؟ ـ هكذا تكلم وسام.

بدا وجه جمال يتلألأ بريقا: غداً وجبة النزول إن شاء الله.

بان الوجوم على وجه وسام الذي بدا للتو منشرحاً: بالتوفيق ـ قالها بصعوبة.

استغرب جمال سحنة وجه صاحبه، ونبرة صوته التي خفقت فجأة.. فاعتقد لبُعد وجبته في الاجازات فما يزال عليه ان يقضي اسبوعين بعد، يتمرغ خلالهما

بالأماني وينشد العافية.. فصرف وجهه عنه لإحساسه بمدى قبح الحسد وآثاره على النفس.

يدخل باسم الحنش في قصعة الغداء، وهو يهزج: ها قد جاءكم الحمص فاستبشروا خيراً يا أهل يثرب.

سامي ضاحكاً: وما عساه يكون يا ابن أبُي.

أغاظه الرد فلم يجد رداً مقنعاً غير: أنا ابن أبُي، يا ابن ناعومي اليهودية القوادة.

سامي غير مبالٍ: أمُي القوادة لها الفضل في اصطحاب أمُك العفيفة.

ضحك وسام من أم رأسه، بعد أن كان مكموداً، وهو يقول لسامي: كيف عرفت.؟!

سامي بدا عليه الاستغراب فما كان بينه وبين باسم مجرد مزحة ومشاكسة ودية، دائماً ما تبلغ الأعراض تهتكاً.. فلم يفهم من سؤال وسام شيئاً، وراح يستفهم بالإشارة.

وسام، ضاحكا: اسم أم باسم عفيفة.

سامي مشاكساً: لا.. لا.. لا تقول ذلك.. ابن عفيفة.! لأول مرة اسمع بعفيفة ترتاد الملاهي.

شعر باسم الحنش بالضيق من وسام الذي فشا بإسم أمُه أمام سامي أكثر الاشخاص تهريجاً، الذي سينزل عليه لحناً وأغنية؛ ويطبل به في كل وقت ومكان.

فشعر وسام بوجوم صاحبه، وما يعتريه من ضيق بيّن، فزاد الطين بلـة: أحقـاً إنَّ عفيفة جميلة، كما سمعت.

سامي مطبلاً، بلا توانٍ: جداً صحيح حتى أنظر الى نتاجها ـ باسم ـ فأنه أشـبه بـ (دادا الارمنية).

باسم بتلظٍ: ماذا تتوقع من ابن زنا.

وسام يحاول اضرام الموقف للتنفيس عـن همـه، وهـو يلـوّح لسـامي: أظـن باسم على غرار أبيه.

(١٤)

احترت بين مفارقة خطيرة: هل الحروب هي من تصـنع الفسـاد، أم الفساد هو من يصنع الحروب.؟!

ما كان هذا التراشق المسعور بالسباب والشتائم ليشعر جمال بالراحـة.. أنهـم أناس لا يتورعون من خوض غمار كل مـا هـو فاسـد وبغـيض.. بعـدما اعتمـروا لبـاس الكفـر وعمـروه واوقعـوا بالوالـدين وبـالأعراض.. لا حكايـة تعلـو فسـاد رأيهـم، وخوضـهم فـي سفاسـف الأمـور.. سـيئين الـى درجـة الاعتـزاز بـالإثم والافتخار بالنقيصة.. المهم ان لا سبب يدعو لـذلك، ولا مبـرر يسـمح بـه.. حتـى المزاح له حدود وقواعد وأدب، تجاوزوه وعبروا على اكتافه اللياقة؛ ومـا خفـي كان أعظم.

يجزم جمال مع نفسه لـو كـان هنـاك نسـبة واحـد بالمائـة لإصـلاح الوضـع لكـان أول مـن يبـادر مـن بـاب الأمـر بـالمعروف.. حتـى مبـدأ الـدين النصـيحة لم ينطبـق فـي مثـل هـذه البيئـة التـي باتـت موحشـة وموغلـة بالفسـاد.. يسـودها سماجة الخلق.

الشعور باليأس يناغم مسألة التخلي والتنصل من المسؤولية.. وان عدّه ذنبـاً، فهو أهون من ذنب النزول إلى مستوى السفلة ـ هكذا بـرر جمـال صـمته ـ لكـن ولات حين مناص.

فالمنام واحـد، والعمـل واحـد، والفـوج نفسـه، والقـاطع ذاتـه، ومـا يسـري يسري على الجميع.. حتى وسـام الـذي يعـده دينمـو القسـم، والشخصـية القويـة المتزنة، الذي بيده الحل والعقد؛ بدا متورطاً بالاستمالة لطغمة من الفاسـدين، إن لم يكن هو أفسدهم.

تناسى أن حرية الرأي ضرورة، وفساده لا يفسد قضايا الأمُـة. بقـدر مـا هـي جهود فردية لا تغيّر من واقع الحال إلا جزئية بسيطة، قد تنعكس علـى صـاحبها أكثـر مـن غيـره.. إلا إذا اعتقـد ان الفـرد هـو الجماعـة؛ فهنـا تقـع المشـكلة، وتتفاقم الأزمة.

كانت فراشات الأسئلة تحوم فوق رأسه، تبحث عن رحيق الأجوبـة.. لكـن كان بمنأى عن الازهار.. هو في غابة من نار، احتـراق مسـتعر، مـوت ودمـار فـي تخوم الانتظار.

لم يعد يجالس أحداً ولا يحب المخالطة.. حتى عزيمته في العمل وفي الايثار وهنت.. يوماً بعد يوم يكتشف إن كل ما يبادر به من عمل تطوعي وإنْ كان بسيطاً، لإدامة اللمة، وانعكاس صورة الانفتاح والاعتدال والاريحية، كان غباء؛ فالزرع في غير أرضه محكوم بالموت.

لكنه آل على نفسه ان يبدأ بداية جديدة بعد عودته من الاجازة، التي لم يبق لها سوى ليلة واحدة، ويدخل في مرحلة الانفراج الوقتي، وإعادة النشاط.. فما زال عسكرياً، فهو مرهون ومحكوم بالدوام المؤبد، مع الشغل والنفاذ.

(١٥)

لا شيء يخيّب الظن أكثر من صديقٍ غادر، أو حبيب بَطْر..

هكذا كان رأي جمال بأصدقائه وبالخصوص وسام الذي يعده مثالاً للإنسان المثقف الذي يصلح ان يكون معلماً جيداً، على الرغم من توجهاته ومعتقداته التي يسترسل بها بين الفينة والاخرى، بطريقة تنم عن سوء الطوية.. أما سامي المجاهر بالكفر والإلحاد علناً، فان جانبه الانساني كان مضيئاً، وبينهما قنوات اتصال وإنْ كان التحفظ سيد الموقف.. غير أن يحيى الصابئي كان على درجة من اللطف، وهو كثير الامتنان إليه، الذي كان خدوماً بلا مقابل، وليس من بأس؛ إنما شهامة ومروءة.

كان يتمنى في داخله ان تكون ثمة مبادرة للاعتذار، فليس من الوجاهة والحصافة ان تجتمع الآراء على الباطل دفعة واحدة.. وصاحب الحق صغيرهم الخدوم منتكس الراية.. لا يحظى منهم ولو على سبيل رد الجميل، بالاعتراف بالخطأ ولو كان قولاً.. كادت المسألة تأكل قلبه.. لكنه رأى من باب أولى ـ الصبر على هؤلاء أحجى.

جلبوا قصعة العشاء المعهودة، والمتناوبة بين اللحم أو الدجاج المسلوق، ما يحتاج الى ترتيب، وإعادة الطهي، وإضافة المنكهات.. وكان جمال اللاعب الاساس في هذا الدور.. إلا اليوم فهو غاضّ الطرف، خائر العزم، ضعيف الهمة.

كان ثمة هدوء يجوب الثكنة.. القصعة مغطاة بكارتون مقوى.. وجمال متلفع ببطانيته وحابس انفاسه.. حتى سمع آذان المغرب من المذياع، تعوّذ بالله من الشيطان، واستغفر الرب. وقام للوضوء.. اعترضه يحيى الرواض وعلى وجهه ابتسامة رجاء قائلاً: الدجاجة تفتقد أخواتها. بم تنصحها.؟

جمال ممازحاً: انصحها باللحاق بهن.

فأسرع يحيى لإعداد مكونات الطبخ، وتجهيز طبق نظيف ومقلاة.

بينما كان وسام يتأمل جمال بفخر. ويشيد بالنقاء الذي حُرم منه.

فواتته فرصة الاعتراف لجمال بالذنب أولاً.. وقد تكون بداية صحية لمشروعه المتعثر، الذي يصعب النهوض به دون التحلي بالشجاعة.

لم ينته من الصلاة بعد.. وإذا بضجة تعلو مقر الفوج وصيحات لحراك دائب:" جواسيس.. جواسيس" ما ضاع باقي الصلاة بالفضول، لمعرفة ما يدور من حوله.

وإذا بزملائه انطلقوا سبّاقون لتقصي الوضع الذي بدا متسارع الاحداث.. فتبعهم ما أن انتهى من الصلاة، ليرى رجلين كبيري السن من سكنة الهور.. انهال عليهما بالضرب، من كل جانب ومكان، فضلاً عن الشتائم القاسية.. وكان باسم الحنش يتصدر واجهة الحدث، وهو يركل ويلكم بكل ما له من قوة.. حتى وقف عليه سامي هامساً في إذنه بمقتٍ: ثأرك عند ملازم سعران؛ ليس مع الفقراء.

* *

ليلة الاعتراف

(١٦)

الثقافة المنحدرة لا تدلُّ إلا على واقع منحدر..

لا أحد يصدّق انهما من صائدي الاسماك. توغلا بالعمق بحثاً عن الرزق في منطقة بعيدة عن حركة زوارق الجيش وكمائنهم.. حتى التحقيق الذي يرتهن على هوى المحقق؛ أبتئس للحادثة، التي جاءت نتائجها على عجالة تواكب أزمة الأحداث المتسارعة.

المشكلة إن هذين الشابين تورطا بجريمة التخلف من الخدمة العسكرية الالزامية، إذا ما كانا متورطين بالجاسوسية والعمل كأدلاء للعدو.. لكن أسوأ ما شاع عنهما إنهما لا يملكان هوية الاحوال المدنية ما زاد موقفهما سوءاً.

حالة التشنيع والتقريع بهما بدت على كل لسان، إلا وسام الذي كان له رأي مغاير، وهو يُنبئ بأن مثل هذه الحالات ستتكرر بشكل ملحوظ، خاصة في هذه الفترة التي يزداد بها الضغط على الاستخبارات وفصائل الاستطلاع العميق التي لم ترقَ بعملها للمستوى المطلوب.

تلقى باسم الحنش أنواع الإهانات من زملائه أكثر بكثير مما تلقاه الشابان من ضرب لتدخله السافر والفج.. وإنْ كان يبرر ذلك بالحرقة على الوطن والحب والاخلاص، ما دعاه للتنكيل بأصدقائه ونعتهم بالمجوس.. النعت المؤلم الذي يعرف كيف يوجع به خصومه، وإن كان على سبيل المجاملة، كونها قد تعتبر تهمة؛ ويترتب عليها عندئذ أكثر من جرم.. ما سمح لوسام بإسقاطه أرضاً، لتنهال عليه الاحذية والخوذ الحديدية المؤلمة، وتتطاير فوقه النعل.. فكان عشاءً مميزاً كما صرح به، بعد أن نفض عن نفسه علائق الأحذية الموحلة.

ولأن هذه البسطة الجماعية أو ما تسمى بالغسلة، لم تزده الا ضحكاً وتهريجاً.. ضحك الجميع متهافتين على العشاء.. بينما ذهب جمال يهيئ حقيبته، إستعداداً للإذن بالنزول؛ الاجازة المرتقبة.

حتى إذا ما انتهى من استعداداته وجد القصعة فارغة، فكأنهم تعمدوا نسيانه.. الأمر الذي حزّ في نفسه كثيراً وبدا عاجزاً عن وصفهم، أو درجهم بأي قائمة، فلم يكونوا إلا أصدقاء سوء مجردين من الرحمة.. وتساءل إلى متى يدوم هذا الحال وهل صمته مروءة أو جُبن.! وهل ثمة شخص بعينه هو السبب.؟ وهل يستحق الوضع استخدام القوة.؟ كلها تساؤلات عرضية.. كان الأحرى به إما أن ينام جائعاً، أو يقوم بإعداد عشاء خاص بالموجود، أو الرجوع

إلى المطعم فدائماً ما يكون عندهم بقايا طعام.. لكنه انتهى إلى قرار تمضية الليلة على خير، إلى ما بعد اجازته؛ فسيكون وقتها لكل حادث حديث.

ما أن استقر به القرار للجوء إلى النوم، وترك العشاء.. صاح به وسام: أنت خلاف قواعد الفيزياء.

لم يعرف جمال ما يرمي إليه وسام بقوله، إلى أن استطرد قائلاً: إنَّ لكل فعل ردة فعل.

ضحك جمال، متهكماً: وما يكون برأيك ردة الفعل.

وسام، متيقناً: أعرف أن اخلاقك لا تسمح لك بأخذ الأمور بعصبية، أو اللجوء للقوة؛ لكن كان من الممكن التوبيخ.

جمال بقناعة: لا أظن الأمر يستوجب ذلك.. ولا حتى العتاب.

فقام وسام من مكانه، وأخرج صحناً، كان قد خبأه متعمداً، بهِ حصته من العشاء.. قابله جمال بابتسامة، لكنه رفض العشاء بدعوى الشعور بالنعاس.. لكن سامي تدخل على الفور. وجرّه من ذراعه للعشاء وهو يمازحه: أُنظر إذا كان بحاجة للتسخين فسخنه، ولا تنسى الشاي معك. ـ وضحك ضحكة مقززة، فصاح به وسام: اذهب واعدّ الشاي، الليلة (صباّحي) سهرة للصباح.

سامي بضحكته النشاز: أموت على السهر والخدر والفوخان.

وسرح جمال، يؤنب نفسه بألم، على عُقد الإيمان المعروفة بعقدة المؤمن؛ دون تحري الثقافات الأخرى وإن كانت على سلم الانحدار.

(١٧)

الوسائد الرطبة تزيد الأرق..

فكيف بالأفكار المجنونة التي تحوم حول نقطة وهمية، الوصول إليها في قطار يسبق سرعة الزمن، وليس ثمة سرعة تسبق الزمن الا الموت.

لوحظ في ثكنة منام أفراد القلم استعدادات وتهيؤ لسهرة غير معلومة المقاصد، ولا معروفة المشاهد.. وسام يحاول إدارة هذا الحراك بروية وهدوء.. بعد زيارة سريعة لنائب ضابط مخلف الذي شعر للمرة الأولى بأن هدوءاً مريباً يدور بين أفراد القلم؛ أنه استعداد لمناسبة ما.. ما دعاه للخروج سريعاً، وإن كان يشك بأنها مجرد لعبة لعبوها عليه؛ بعد ان غشاهم صمت المقابر.

أولى ممارسة اليوغا الاسترخاء.. حيث تعيش لحظات الصمت، وهو تمرين أراد وسام تطبيقه على زملائه، ابتداءً لتحسس مدى استجابتهم لأوامره الناشئة عن الاحترام.

وسام يطلق عنان السؤال الأول ليحيى وهو يهيب بباقي الأصدقاء إعارة الانتباه بعد مقدمة وجيزة قال فيها: مضى علينا وقت ليس بالقصير، ونحن لم نتعرف على بعضنا البعض إلا النزر اليسير، وكان كل ما بيننا لا يتعدى إلا التهريج والمداعبات الثقيلة، فلم نعرف من بعضنا غير الظاهر، ولأننا اليوم على وشك ولوج معركة ضروس قد تطيح بالرؤوس.. فنحاول الابقاء على ذكرى حميدة قد تحكى في يوم من الايام.. وأفضّل أن تكون البداية مع يحيى، فهل

أنت مستعد لتكشف لنا النقاب عن حقيقة شخصيتك بما فيها من مساوئ ومحاسن، أو لنسمها ليلة الاعتراف بالخطأ، وما ترتب عليه من عواقب، وكيفية الشعور في تصحيحه والتكفير عنه.

يحيى بتعقل وتحفظ: لا أظن البداية بي صحيحة، وأنا من غير ملة، واختلف معكم بالمعتقد، حتى الوضع الاجتماعي له خصوصية؛ تختلف من حيث الاعتبارات. بالتالي أرى أنك تسعى وراء هدف وغرض معدّ سلفاً. لو أنك أوضحته جيداً لاستطعنا مشاركتك.

بدا على وسام ثمة إحساس بالضعف، لكنه لم يرق لمستوى الاحباط.

باسم الذي لم يقو على الصمت هب صائحاً: ما رأيكم بالمشروب.

تصدى له سامي، هي المرة الاولى الذي يعرض بها عن الشرب؛ مشيراً عليه بالسكوت.. ثم نظر الى وسام مستفهماً: ما الموضوع الجدي الذي تحاول الوصول إليه.؟ صمت قليلاً ثم استأنف القول: قد يسوءك أن تعرف أن قلوبنا أسوأ من وجوهنا بكثير.

كأن وسام ماسكاً برأس الخيط: هذا ما أُريده، قلوبكم، شيئاً من اسراركم؛ أو بالأحرى اعترافاتكم في مدى ما اقترفتم من بشائع.

اعترضه يحيى: لماذا لا تقول بالحسنات التي خلفتموها بلا مقابل.

وسام متمسكاً بالجواب قبل الافلات: أنا أعرف أنّ لكلٍّ منّا حسنات، لكن طبيعتنا تفرض علينا تضخيمها، وجعلها مشاراً للفخار، بعبارة أدق. سيكون لها

نصيبٌ أكبر من التصنّع والكذب عكس المساوئ التي يجتهد الإنسان في تقليلها، وإظهارها بشكل أقل مما هي عليه.. فالحسنات ما كانت لترق لمستوى الانبياء والصالحين؛ اما السيئات فقد تفوق الشياطين.!

(١٨)

سامي أول المتقدمين لخوض هذا النزال، كأنه أراد أنْ يكسر هالة الخوف، لكنه اشترط ألا تكون اعترافاته تندراً وسخرية.. كما أنه لا يريد بذلك ضرورة تصديقه، أو تكذيبه؛ للمتلقي حق القرار فيما يراه مناسباً.

اعترضه باسم بفضوله المعهود: المهم ألا تنسى قصة البئر وناعومي.

وسام الذي يحاول قيادة الجلسة بحكمة وانسيابية، ألزم الجميع بالهدوء والاستماع وعدم المقاطعة. ورجا أن يكون الاعتراف صادقاً أو على قدر كبير من حقيقة الشخص؛ ما يبعده عن انتحال أي شخصية حقيقية كانت أو خيالية.

أشعل سامي موقد الحكاية على نار من مشروب العرق المسيح: ترعرعت في أسرة ذات دخل دون المتوسط لأب كان يعمل موظف بريد، لا يملك سوى دراجة هوائية، كانت بالنسبة اليه كحمار جحا، يقضي كل أعماله بها.. حتى إذا ما عاد نهاية الدوام، عاد متعباً ليستقبل زوجة سليطة اللسان كسولة بطرة.. قال لها في أكثر من مرة:" لو أنّ أفعالك معشار أقوالك، لكنا بخير".

لكنها لم تكترث حتى بالردّ عليه.. أحياناً كثيرة يجدها نائمة يحذر ايقاظها، كمن يدوس على أفعى نائمة.. ما يجعله يقوم بنفسه، ويسخن الأكل ويتغدى وحيدا.. ومرات كثيرة لم يجد غداءً، ما عدا سلطات وكأس لبن فأن راقه الأمر أكل، وإلا لاذ بالنوم طيلة عصريته.. يتقلب مزنوقاً من لؤم زوجة، أشد فتكاً على النفس من الجوع.. فأن كانت قد قعدت عملت له أسهل ما وجدت، وان بقت خامدة؛ قام هو بأكل ما خفّ عمله.

في الحقيقة كان جدي وجدتي يحتقران أبي لضعفه وانقياده لأمي بشكل أعمى؛ وهذا أجمل ما توارثته منهما.. فما كنت لأحترمه يوماً وأنا أراه خائراً خائباً.. لطالما كان يحب القراءة فيشتهي شرب الشاي، فينادي عليها لعلها تتحرك من مكانها، وتعمل الشاي، لكنها كانت على درجة من الوقاحة، وهي تجيبه:" عندنا زحير"؛ والحق أنها كانت مرضاً ووبالاً علينا جميعاً.

في هذه الأثناء دلفا عليهما رئيس عرفاء الوحدة نائب ضابط (غلمة) برفقة نائب ضابط (مخلف) الذي كان السبب بأخباره، بأنّ حفلة ما، في ثكنة القلم، ووجدا الصمت مطبقاً احكامه على الكل، ما عدا الخطيب المفوه سامي، فأغترا بالاستماع، بعد أن أخذا مكانهما بالجلوس؛ ومن دون حراك أطلقا العنان للاستماع.

سامي يطالع الوجوه، وهو لم يعهد هذا الصمت، أو يحظى حديثه بجذب انتباه الآخرين، والإصغاء إليه.. بيد كان وسام يشعر بمتعة تحقيق بداية

المشروع، وأكثر ما أدهشه الاستماع بترحيب كامل.. بينما كان جمال يستمع بروح أكثر منه استماعاً عابراً، وفي داخله يمتدح جرأة المتحدث ويعتقدها بسالة.. ما حفّزه بالقيام على إعداد الشاي، كترحيب بالضيفين.

سامي يتابع حديثه: في السابعة من عمري توفى جدي، فتكالبت الورثة على بيع البيت.. لا أذكر السعر الذي ابتاعوه به.. إلا أني اذكر جيداً أن أبي لا يملك قمطيراً، ما عدا حصته المُقّلة بسبب قدامة البيت ومساحته الصغيرة، وكُثر الورثة.. حتى أن المشتري طالبنا بالخروج فوراً؛ لأنه يريد تهديمه وبناءه من جديد.

لم يكن أمامنا غير الايجار.. ففضل البحث عن بيت قديم. هكذا اشارت عليه جدتي، وأن يودع حصته في البريد أو في أحد المصارف بعيداً عن سطوة الزوجة الماكرة.. ولأول مرة يستجب ابي لطلب جدتي، على الرغم من خوفه من رفض أمي لأي مشروع؛ ما لم تكن النقود بحوزتها.. لكن جدتي كانت أذكى وأمكر، بقولها: إما تدعي بأنك اشتريت قطعة أرض، أو تقوم بالفعل في شرائها، بذلك تكون قد ضمنت شيئاً للمستقبل، وحافظت على عدم بعثرة المال؛ وبالكاد فعل.

استأجرنا بيتاً قديماً، رغم معارضة والدتي، إلا أنه برر ذلك بالاستفادة مما يمكن ادخاره لبناء قطعة الارض.. لكنها ما ان علمت بأن أبي ادخر المال في صندوق التوفير، بعد ان وجدت دفتر التوفير، انقلبت الى لبوة ضارية، تعرض

عرينها لهجوم.. فأول ما فعلت إن طردت جدتي بأقبح اسلوب، ووجهت لها أقذع السباب.. الشيء الجميل أن جدتي لم تزل قوية بعد، وعندها حصتها من الأرض، وكذلك كان لها راتب جدي التقاعدي.. فكانت موضع ترحاب لأولادها.. وأن كانت تفضل أبي لأنه أصغر ابنائها، بل كونه بسيط وغير جشع، ولا يفكر أبداً بالمغالبة والمساومة.

المشكلة أني أحب جدي وجدتي أكثر من والديّ.. كنت أتمنى لو أنهما ابويّ فعلاً، حتى جدي على الرغم من غلظته كان عطوفاً معي.. لطالما ذهبت لشراء سجائر الجمهورية له، فيعطيني درهماً، وما يتبقى منه كان لي. وفي يوم استلام الراتب كان ينقدني بدرهم.. كان من نصيب أمي لأنها كانت بالمرصاد. فطالما صاح بها ومنعها ذلك. الا أنها تبرر ذلك بالإسراف والتبذير؛ ولا تريدني ان اتعلم ذلك. فراتب أبي قليل وأن كان فهو ذريعة لا أكثر.. لم أشعر يوماً بالدلال إلا من جدي، حتى أني سمعت جدتي أكثر من مرة تنعت امي علناً بالخبث، وتقول لها: من خبثك حرمك الله من الخلفة.. لكن امي كانت على شيء من الصلافة، لتجيب الكلمة بعشر: أبنك الخبيث السكير؛ كلهُ أعطال.

(١٩)

قام يحيى بتوزيع أكواب الشاي، التي كانت متفاوتة الأحجام والاشكال، لا كوب يشبه الاخر.. امتنع نائب ضابط (غلمة) عن شرب الشاي بلا سبب،

ولا كلمة شكر.. كأنه نَهرَ يحيى عن وجهه، ومخلف كذلك فعل من دون عذر مقبول.

وسام لاحظ إحجامهما عن احتساء الشاي بأسلوب مبتذل. لكنه كان في وادٍ آخر ما كان يمكنه من الأخذ والعطاء معهما.. فولج بطريق آخر: العفو انشغلنا عنكم، لأول مرة يشرفنا الريس غلمة بالزيارة.

الريس غلمة متحاذقاً: لا مجرد زيارة ودية؛ عسانا لم نفسد عليكم حفلكم.

وسام باستغراب مصطنع، وهو يلمح نائب ضابط مخلف، كأنه يقول له، أنت سبب الدعاية: الحقيقة شرفتمونا لكن أية حفلة في هذه الظروف العصيبة، كما تعلمون.

الريس غلمة: فعلا صدقت.. حديثكم جميل؛ لكننا مضطران للاستئذان.

وقام من مكانه هاماً بالخروج.. وسام بتذاكي: ما يزال الوقت باكراً؛ أقلها اشربا الشاي.

مخلف بتملق مقيت: شكراً. شكراً. تصبحون على خير.

ما أن خرجا، إذ بادر باسم الحنش بنفاقه المعقود على لسانه: عاشت يداك وسام؛ يستحقان لبس الباب.

وسام لا تفوته آلاعيبه: كُل تبناً، واعرف ناسك ومقامك.

باسم الحنش دون ان ينبس ببنت شفة، استلقى على فراشه، بعدما كان الضيفان مستغلين سريره.

إلتفت وسام الى جمال معاتباً: كان يُفترض بك أنت من تُقدّم الشاي لهما.

أطرق جمال مصداقاً لرأيه. فهؤلاء يتحسسون من أن صابئياً يشاركهم الطعام، لاعتقادات نفسية أكثر منها عقائدية.

ومن ثم اشار وسام الى سامي بإكمال قصته.

سامي ضاحكاً: أليست مملة.؟

وسام بتحاذق اتفق معك هي كذلك، لكنك تبدع بأن تتكلم على سليقتك، وعفوياً أكثر.

سامي متهكماً: أأكمل، أم أتوجه لدورة المياه.

يحيى متداخلاً: أكمل. حتى هذه الساعة، أنت في الطريق الصحيح.

وسام متدخلاً: أرجو منكم جميعا أن تحفظوا عنه، بعض أهم نقاط الإيجاب والسلب على حد سواء؛ لإمكانية تقييمه.

جلس باسم الحنش، وهو لم يصبر على البقاء ساكتاً: أنا أقيمه منذ اللحظة، قندرة ابن قندرة.

طالع الوجوه وهي ممتعضة من تطفله، كأنه عفط في مجلسٍ محترم، ما دعا ليطأطئ رأسه مخذولاً، وهو يفرك آثار لحيته ويستشعر بزيزها.

خاصة إن سامي بادره بضحكة عالية ساخراً منه، ثم قال: قد ذكرني بالقندرة. ابن القندرة ـ وهو يومئ إلى باسم حنش.

قاطعه وسام بقوله: أنك تكثر من كلمة القندرة؛ كأن بينك وبينها صلة نسب أو مصاهرة.

لم يعتد سامي على الزعل من وسام لأن الأخير صاحب فضل في توسطه له بالعمل، في قسم القلم وتخليصه من مآسي وواجبات جنود المشاة والاشغال المملة.

فصاح به وسام: أكمل. لو أن كلمة النسب جرحتك.

سامي بشيء من الانكسار: عزيز وغالي.

وسام ملحاً: أنجز.

(٢٠)

أول مرة أشعر بالوحدة واليتم، وانا بين ابوين حيين.. كنت اشتاق لجدي كثيراً، والأكثر منه جدتي التي اعتدتُ على النوم معها.. الليلة أنا وحيد في غرفة متآكلة الجدران تجول وتصول في شقوقها الفئران والجرذان.. كان أبي يلحُّ على أمي أن أنام معهما في الغرفة، لكن أمي أبت ذلك، بزعمها عليّ أن اتحلى بالشجاعة.. سبع سنين تعني رجولة عندها.. وأنا كنتُ ألوذ يمنة ويسرة بمنجى ومنقذ.. المشكلة الأكبر أن في البيت بئراً مهجوراً يكاد يكون مجمعاً للنفايات، وحطام البيت؛ ومنه تصدر أصواتٌ مخيفة أكادُ أسمعها ولا أسمعها وأحياناً أتوهم ذلك.. كان بيتاً قديماً استأجره أبي من مكتب سمسرة ودلالة للعقارات

المشكوك في أمرهم بالتعامل ـ هكذا أخبره عمي الذي رافقه بحثاً عن منزل إيجار؛ ورفضه. إلا أن أبي أغتر بسعر الإيجار المنخفض.. لكون عائدية البيت إما إلى يهودي مرحّل، أو ايراني مسفر؛ لكنه لم يشأ الافصاح بذلك.

بدا الخوف مسيطراً عليّ بشكل كبير.. فتأبطت فراشي، وأسرعت إلى حجرة والديّ الملاصقة لحجرتي.. وقبل ان أدلف عليهما، سمعت أمي تصيح بأبي: كفاك مشروباً؛ العرقُ أمات (......) وقتل الرجولة فيك.. أنا امرأة محرومة من المتعة ومن الخلفة؛ وانت تبقى رجلاً خاملاً وضعيفا.

لا أعرف لطالما سمعت هذه الكلمة، وأظنها سُبة، لكن يصعب عليّ تصويبها، ومعرفة قصدها ما لم يفسرها أحد لي.. دخلت عليهم المخدع، وإذا بأمي عارية، وكانت تعتلي أبي كالفارس المغوار الذي يمتطي جواداً هزيلاً.. وكان أبي يتولول كالحمار الذي ينوء بحمله.. ما إن ألتفتتْ إليّ أمي حتى صرخت بي: أخرج ابن الكلب.

خرجت على الفور، وأنا متأكد أني ابن حمار؛ لاشأن للكلب بذلك.

تلك اللحظة تحديدا، ازددتُ كرهاً ومقتاً لأمي.. كنت أود لو ان أقتلها، وأخلص منها للأبد.. امرأة وقحة طردتني وجدتي، لتتعرى لرجل بائس مفلس حتى من رجولته.. واحتقرت أبي أكثر عندما رأيته متشبثاً بها؛ ويئن تحتها.

رجعت لحجرتي، جلست وأنا اتلفع بلحافٍ بدا صلباً وثقيلاً.. وانا أحرز كراهية لهما، ولنفسي؛ لا لشيء غير شعوري بالوحدة.

جاءني أبي وهو يلهث، لينصحني، ويواسيني في آن واحد: بني لا تخف نحن على مقربة منك.

لم يدر بعد، أنني لم أعد اخاف كل شيء. قوة ما واتتني فجأة.. ربما لشعوري بأن أعيش قدري كما هو.. أو لشيءٍ ما، أكاد أجهله وقتها.. حتى أني ما عدت أكترث إليه.. تمددت على فراشي، وغطيت رأسي بعد أن كان جسدي كله مجمد بالخوف.

فأزال بعض الغطاء عن وجهي ليخبرني: ما كان يجب عليك، أن تدخل على أبويك مخدعهما.

أعدت الغطاء على وجهي، وانا استقبح قوله، واستشنع فعله.. وفي نفسي ضحكة طويلة؛ كانت أطول من عضو أبي الميت.

ضحك باسم بخبثٍ وهو يتمطى بحلقه: لا أظنها ليلة اعتراف؛ بل ليلة الدخلة.

* *

العالم السفلي

(٢١)

لم أعرف لِمَ انا مجبر على أن أبوح لكم بسري.. غير إنها شقشقة هدرت بلا قرار.

كان جمال من أكثر المشككين بأن ثمة شيء غريب في الامر.. الاعترافات كانت على درجة من الخطورة، والاساءة للنفس، وهدراً للكرامة.

فالأمر لا يخلو إما من تخدير ما، أو عمل شعوذة، فربما كان يحيى متورطاً في ذلك، فهو أكثر من يجيد مثل هذه الاعمال؛ وربما تنويماً مغناطيسياً او ايحائياً بطريقة ما.. وإلا ما الداعي أن يحكي سامي كل هذه الحكاية لمجرد الإجابة عن سؤال عابر؛ من غير وجه اضطرار ولا إجبار.. فبدا يصوب نظره هنا وهناك، حتى عاد برشده لنفسه.. فليس ثمة ذنب يخاف أن يظهره؛ أو بالأحرى ليس ثمة من يجبره على ذلك.. وإن كان هناك التزام بعهد مبدئي، على الاعتراف بذنبٍ ما زال يشكو من تبعاته.. فبالتالي حتى العهد يمكن أن يضرب عرض الحائط، وهو غير ملزم بالإيفاء به، إذا اضطر لذلك.

بينما كان وسام في موقف الحاسد الذي ما كان يحب يوماً ان يكون بهذا المكان.. الجرأة التي أمتاز بها سامي كانت مخيفة، ومقلقة لصاحب المشروع، أو المبادرة المتمثلة بشخصه، فعليه ان يكون أكثر جرأة وبسالة، بالاعتراف بذنبه؛ وإلا فهو في موقف لا يحسد عليه.

إما استعدادات باسم الحنش فقد تبدو تأليفية أكثر منها واقعية، فكان التعويل عليها ضعيفاً.. أما يحيى فقد يكون لديه اعترافات كبيرة، فهو يجيد فنون صنع الخرافة ويبرع في تمريرها.. يظل في نظر وسام، شخصية جمال الأهم الشخصية المنطوية وراء الالتزام الظاهر؛ هي أكثر الشخصيات الموجودة تعقيداً وحيطة.

أشار باسم علي سامي بالاختصار.. بينما جابهه وسام بالرفض، وحثّه على أن يسترسل بحديثه على راحته؛ وأقل من مهله.

فرأى جمال ان يبدي رأيه: أظن بطولات سامي كفيلة لتغطية هذه الليلة وحده.

وسام مقاطعاً: ما زلنا في أول الليل؛ أمامنا الكثير من الوقت.

باسم متدخلاً: لأول مرة أؤيّد رأي هذا ـ في إشارة لجمال، وهو يكره ان يلفظ اسمه ـ وأرى أن وراءنا عملاً صباحاً؛ فحبذا لو نكتفي الليلة بسامي القندرة.

سامي ضاحكاً: كلما يطرأ اسم القندرة؛ أتذكر وجهك.

وسام مشيراً إلى يحيى: أراك لا تبدي رأياً؛ كأنك تفكر في أمر ما.

يحيى يخلل أصابعه بين طيات مقدمة رأسه: الرأي رأيكم، أنا مستمع نهم، والحقيقة أن سامي قد أبدع؛ كما يقولون كفّى ووفى.

سامي، ملاطفاً: أني أترقّب دورك يا ابن الساحرة.

كان السباب هو سمة المجاملات الرئيس، والتنابز بالألقاب، وأدب الانتقاص، هو الشائع الغالب في العسكر.

(٢٢)

تقمصت تلك الليلة دور الرجولة، فنمت رغم الشعور بالخوف وحيداً، في حجرة تكاد تنقض من الاصوات المخيفة، وظلال اشباح بأحجام مختلفة تشكل لوحات من الرعب.. لكني لم أجد بداً من أن أتجاهل الموقف؛ وأصمد.. فحسبت أن هذه الصور مجرد خيالات تتزامن مع هاجس الخوف.. حتى الاصوات الغريبة باتت مألوفة، وهي تترافق مع ليلة ماطرة، تصطك بالبَرَد، لتشكل نغمة ضوئية لامعة؛ كمسرح غنائي.

رجع إليّ أبي ليصحبني إلى حجرته.. فالجو كان مصعوقاً بالبرق والمطر، لشدته يكاد أن يسقط البيوت والجدران.. فتأبطت فراشي مرة أخرى، ونمت بينهما.. رغم شدة المطر ورطوبة الجو كانت أمي ترتدي ملابس النوم الخفيفة، حتى بدا لي ان نصف ظهرها عارياً.. وهي لم تعبأ بي، بالعكس، كانت تقرّع أبي وتلومه: لا تعلمه على المبيت معنا؛ أبنك أصبح رجلاً.

لا أعرف إذا كنت أفتخر بما ألتُ إليه، أم أبكي لافتقادي جزءاً كبيراً من الطفولة والدلال.. وإن كنت لم أحس به إلا من جدي المرحوم وجدتي (المُبعَدة)، اللذين كانا يحباني وأحبهما.

رائحة الحجرة كانت متخمة بالطين والرطوبة، وعرق الاجساد، ومشروب العرق.. غفا أبي وبدا شخيره فاضحاً.. أما أمي فكانت تتلوى كأفعى جائعة.. وأنا بين مقتها، ومقت الروائح المقرفة التي تزكم الانوف.. أسدّ خيشومي، وأغمض عينيّ، وقلبي مخترق بأفكار، تجاوزت مهد الطفولة؛ وبدت تشيب الملامح.

ما إن إنجلى الليل، إلا وأصبحنا على مشادة كلامية، أطلقت امي العنان لها، بصوت مقزز: أنت لا تعرف حقوق الزوجة، ولا يهمك ما تريدهُ المرأة.

نأى أبي بنفسه عن إجابتها، فهو لطالما سمع هذه الاسطوانة المشروخة.. وكلما تجاهلها زاد غيظها وصراخها، وعلا سقف مطالبها؛ وهذا رد فعل طبيعي.. لكنها ليست بالمرأة السهلة الانقياد، والمستسلمة الخانعة.. فتعمدْ على غيظه وتعييره برجولته، أسوأ ما يمكن أن تقوله المرأة لزوجها، ما تجعله يتراجع صاغراً لإجابتها وتنفيذ كل طلباتها.. وكان من بين أهم مطالبها: سحب كل النقود المودعة في حساب التوفير، لشراء ما تحتاجه من مستلزمات التجميل والاحتياجات النسوية الأخرى، فضلاً عن ضروريات البيت؛ وكان الرد ودوداً، خائبا مثل تصرفاته: بالسمع والطاعة.

وبما ان هذه الطلبات لا تغطي عموم رغبتها، فرجعت إليه: أريد طفلاً.

إجابها بازدراء بالغ: في البداية اعتنِ بهذا؛ وبعدها فكّري بطفلٍ ثانٍ.

أظنها المرة الأولى التي أسمع بها أبي يتكلم بقوة ويؤنب بشجاعة.

لكن أمي لم تسكت له، فرشقته بسيل من السباب الفاحش، قذفاً ورجماً؛ لو أنها رشقتني به لرميت نفسي في البئر.

(٢٣)

كان ماء المطر قد غمر باحة البيت المتروكة، حيث لا مجرى ولا منفذ سوى تصريفه باتجاه البئر المعطلة، التي ردمت بالأنقاض والنفايات.. وبحركة صبيانية مجتهدة، اتخذت من تصريف المياه لعبة، بعد أن وجدت جاروفاً قديماً بيدة مكسورة، اخذتهُ ونقبت في كل منطقة مرتفعة ليغدو الماء إلى البئر.. وبالفعل تجاوزت كل العقبات، وأخذ الماء ينحدر إلى البئر بكل انسيابية وهو يغور سريعاً متخللاً كِسر الطابوق وأكوام النفايات.. وإذ أنا بشخص ما يلوّح لي؛ فهربت على الفور.. لذتُ بأمي القابعة تحت كومة من الشعر المجعد كأنها قطة كسولة منفوشة الريش، نصف وجهها كان كعجينة فطيرة سائحة.. وكانت على شيءٍ من البدانة، ما جعلها غاطسة في الفراش.. حاولت أن اوقظها، لكنها في كل مرة تدفعني عنها؛ كمن تنش ذبابة عن وجهها المطاطي.

خرجت من الغرفة، وأنا اضحك مرة على جثة أمي المثقلة بالنوم والتي بدت لي كأنها شبح خليع، وتارة على توهمي وتصوري ان في البئر من

يطلبني.. فتشجعت، وهي نوبة قلما تأتي، وعدتُّ إلى فوهة البئر المتهالكة، لأرى إذا كان هناك فعلاً من يريدني وينادي عليّ.. وتذكرت وقتها قول جدتي لأبي حينما شكا لها إن أحلاماً مخيفة تلاحقه وكوابيس.. فقالت له:" أظنك مسحوراً، ولا يبطل السحر إلا أن تجده وتبول عليه".. فاعتقدت ان البئر مصدر خوف لي، ولا انتهي منه إلا أن أبول بداخله.. وعزمت ذلك بالفعل، وقبل أن أزُيح بجامتي.. عادت الصورة واضحة من جديد، لغلامين كأنهما من أترابي؛ ينادون عليّ بلسان واحد، وايماءة واحدة: هلم انزل، لا تخف؛ نحن صديقان.

بدأت أتلفت عن جانبي، وأستطلع السماء التي بدت دافئة حانية، وأطرقت ملياً أسفل قدمي؛ لا شيء يغيث نظري المبعثر.

كنت وقتها بأمس الحاجة إلى صديق.. وعدت ببصري إلى داخل البئر.. وإذا بسلالم ذهبية، وأنوار بهية بعد أن كان أشبه ما يكون بالطلل الدارسة.. وكان الغلامان يقتربان مني، بلباس ابيض جميل، وعمائم قرمزية ذات ذؤابة متدلية.. فوضعت قدمي على أول سُلَّمة، وإذا بالسُلم هو من يتحرك بهدوء؛ وكأنه ينكمش على نفسه.. كان البئر أشبه ما يكون بأنبوب من القصدير بدأت اتماس معه، وكأن شعلة ووهجاً خافتاً يقدح منه.. ألعاب نارية تشعل المكان بهجة.. بلغت القاع فامسكا الغلامان كل من يد؛ وركضا بي.. لم تكن سوى خطوات وإذ أنا في مدينة كاملة تنفتح أمامي.. انبهرت من جمال المكان من الألوان التي تحاكي ألوان الطيف الملكوتي.. المنطقة كلها منسوجة بالنجيل

الأخضر الندي والأصفر البهي.. وعلى مرمى البصر حقول من الازهار التي تشذو بعبق مستديم.. مسورة بأشجار البطمي ذات الزهر الأحمر، والزعرور الأصفر، وأشجار السرو والأرز المعمرة، ونخيلات الزينة المشذبة بأشكال هرمية وتدرجات رتيبة زاهية.. وفيوضات من أنهار صخرية منسابة بصمت جميل، يساير أسراب الفراشات الملونة، وهن يشكلن دوائر، وحلقات منتظمة؛ ويزخن رذاذاً معطراً بالمسك والعود.

وثمة معالف للماعز والابقار، وزرائب للخنازير البيضاء الصغار، بين أشجار الفواكه التي أعرفها، ولا أعرفها، كلها متدلية ويانعة القطاف.. ومن أوراق الصفصاف المتساقط، وشجيرات الزينة، تتشكل تماثيل ومناظر جميلة، تتغير بين الفينة والفينة الاخرى مَعْلماً ورمزاً.

الطيور بأشكالها المختلفة، متآلفة متواددة: الطواويس البيضاء تتهلل جمالاً، وهي تمشي على استحياء وتبختر، بين فصائل من النعامات المغرورة التي تنظرها شرزاً.. وكذاك طيور الطوقان ذات المنقار الطويل، وأنواع كثيرة من طائر الجنة، ذات الألوان الغريبة، والريش الفريد، والذيل الطويل الخيطي الأزرق.. حتى الأفاعي الكبيرة ذات الحراشف المنشارية، والأفاعي المقرنة كانت تتوسد الأغصان.. لفت انتباهي مجموعة من الضفادع الحسناء بلونها الشجري ذات العينين الكبيرتين، التي ترمقنا باعوجاج رأسها، وأطراف عينيها.

لأيام خلت، كنت وجدتي، نتحدث عن جدي، وعن الجنة الموعودة، قالت: الجنة عمران عظيم، قصور شامخات فارهات، زُخرفت بنقوش من الذهب والفضة، وشُيِّدت بالرخام الاملس الاخضر الزاهي. سكتتْ قليلاً وكأنها تتدبر الكلام، ثم قالت: إن كل شيء بالجنة ساحر ومبهر؛ وهو إبداع غير منظور ولا موصوف. وانتهت للقول: إن ممالك الحيوانات، هناك أجمل بكثير من كل تصوير، حتى أن الضفدع هناك حيوانٌ نضر الطلعة، رغم نقيقه المستقبح هنا؛ يكون صوته أشبه بنغمة هدوء واسترخاء هناك.

فما عدت أشك للحظة، بأنني الان في الجنة نفسها، التي وصفتها جدتي، لكني كنت قد سألتها عن مكانها، فقالت:" انها فوق".. وأنا الآن تحت. لا أدري إذا كانت جدتي واهمة؛ أمْ أنا ضائع بين الفوق والتحت.!

(٢٤)

ظن وسام بأنه السبب وراء تمادي سامي بالكذب، ولولا رغبته بالاستماع له، لما استطاع شخص بمؤهلات سامي الدنية، ان يضحك عليه.. وبالفعل فهو استطاع بجدارة أن يقسم الآراء حوله، وهذه بحد ذاتها مشكلة لهم وانتصار إليه.. فجمال ويحيى كانا يعتقدان بأن ما يرويه واقعاً صحيحاً لأسباب كثيرة أهمها: الإيمان بأن العالم السفلي له حيواته الخاصة.. غير أن باسماً رغم تسفيهه لمعتقدات الآخرين، كان خائفاً كأن تكون هناك تبعات واثاراً لعارض الجن؛

وعوالمه السفلية.. الذي بدا يؤكدان عليه يحيى وجمال، وبالذات إصرار يحيى على إكمال القصة بأدق التفاصيل.. جعلت من باسم مرتعباً.. فاضطره اللجوء الى زجاجة العرق المسيح المخبأة بصندوق خشبي للعتاد وهو يعتذر: اسمحوا لي بالشرب؛ فلا اطيق سماع هذا الحديث ما لم أسكر.

سامي هو الآخر متشوق للشراب، فأنه بحاجة الى دعم منه، حافزاً يشحذ الطاقة في مواصلة الاسهاب، بسرد حكايته، التي تباينت الآراء حولها بين مستحسن ومستقبح.

وسام لم يجد بداً من مشاركتهم المشروب، فهو كذلك بحاجة إلى الهدوء بعد ان أقحم نفسه، وهو يتعرض للشدِّ وجهد التفكير.. ولأجل اكمال الدائرة، قال: لا تنسوا يحيى من كأس المدام.

ثمة شعور بالجوع يقتل النوم، ويحث التكاسل على النهوض.. هبّ يحيي من مكانه، واخرج ما لديهم من طماطم وبصل وخيار، ومن دون تقطيع وغسل، مع ما تبقى من (صمون) الجيش، وخبز الحانوت.. كانت الطاولة حافلة بوجبة مملوحة على وجه السرعة.

لم يكن جمال أقل منهم جوعاً، لكنه نفر لوجود الشراب؛ فتنحى جانباً.. إلا وسام سرعان ما التفت إليه، وتدارك الموقف، بقطعة من الخبز وحبة طماطم قدمهما له.. بينما كان سامي يلوح له بالبصل. كان من جمال إن اكتفى بما بين يديه.

ما أن انتهوا من الاكل والشراب، بدأهم وسام قائلا:" لأجل الورد يُسقى العليق". نتحمل تفاهات سامي لمعرفة النهايات.

كان سامي نشواناً بازدراد أكله، مجيباً: لا جرم عليك؛ ولا تثريب.

فكان من باسم أن رفسه على خاصرته رداً على بيان فصاحته وحماسته.. فضحك الجميع. وما أن استقر به ألم الضربة؛ لكز باسم بكوعه على صدره، وهو يشير له بسبابته والوسطى؛ إشارة النصر.

سامي مستطرداً: أن اغرب ما رأيته في البئر، إن البحر فوق، بمعنى لو كان القائد طارق بن زياد حاضراً لقال:" البحر من فوقكم". وأنا أنظر إليه بأعجاب بالغ.. أشاهد أسماك القرش كبير الفم، والحبار ذات الجلد البني محمر العينين، واسماك ذات أنياب ناتئة وصُدأة، وأسماك الببغاوات الدمويات، وأخُريات صغيرات وكبيرات بألوان وأشكال مختلفة؛ كأني اشاهدها عبر شاشة تلفاز، كانت الصورة على درجة كبيرة من النقاء.. كان أشد استغرابي: (كيف لا يسقط الماء، ويغمر المنطقة) هذا ما لا أعرفه، ولا أستطيع تفسيره.

إنها الطاقة السلبية. هكذا كان رأي وسام.

ـــ تقصد أن يكون عكس المعقول والمألوف والمتعارف عليه. جمال مستفسراً.

تنهد وسام تنهيدة ضيق، وأطلق حشرجة، مكبوتة في النفس.. كأنه أراد بذلك اجابته بالإيجاب. ثم أشار على سامي بإكمال الحكاية.

كان صديقيّ (صلوح وصدوح) قد أخبراني: بأن هذا العالم امتداد لعوالم اخرى، ونهاني أن أبول أو أتغوط في البئر؛ لأن ذلك يزعج العوالم السفلية.. وإنما أنزلاني لرؤية هذا العالم، تفضلاً منهما عليّ بأنْ انتصر على الخوف؛ ووعداني ان يلتقيا بي كلما أردت ذلك.

وقبل أن أودعهما.. إذا بجياد مطهمة كاسرة، لا تشبه جيادنا، وعليها فرسان مدججون بالسلاح والحديد، طوقونا من كل جانب ومكان، وقد بدت اشكالهم غريبة، ومخيفة جداً، ولهم جلبة وزمجرة، وكأنهم من سكنة جهنم؛ وإذا بقائدهم يصيح بالجمع الغفير: من أنزل هذا الآدمي الى ههنا.

لم يكن أحد قادراً على اجابته، حتى صديقيّ كانا خائفين.. يذودان ببعضهما.. فلكزني بالسوط، وإذا به يردفني وراءه؛ واستدارت الخيول المشكشكة بالسلاسل، راجعة.. أسمعُ صوت قوائمها وهي تؤلم الأرض والزروع.. حتى الحيوانات الأليفة الوادعة التي رأيتها للتو، أضحت نافرة وهاربة.

أنظرُ ورائي المدينة الخضراء التي انبهرت بها، استحالت الى مدينة جرداء، وأرض كالأخاديد المتشققة.. وزروع ظمأى، واشجار خاوية، وجذوع نخيل متفحمة سوداء؛ لفحتها ألسنة الحرائق.. إلا البحر ما يزال فوقي، لكنه بدا هائجاً؛ حتى الصخور بالكاد تتنفس.

لم أكُ خائفاً، توقعت أنني في حلم، ساعة وأسقط من ظهر الجواد، على فراشي، وبين أحضان والدي، وأضحك حتى اوقظهم من لذيذ نومهم، لكن الأمر لم يبد كما توقعت؛ كأني أسير عصبة غير معروفة، وفي مكان مجهول.

(٢٥)

ما زلت مصفداً بلا قيود، منقاداً مع الركب إلى المجهول.. لا أملك غير عينيّ ككاميرا، تلتقط مجموعة من المشاهد الخفية في عوالم أظنها غبية، أو متخلفة عقلياً.. المدينة التالية التي دخلناها لا يمكن إلا أن أسُميها بالمدينة البدائية.. أبراج صخرية حفرتها معاول طقوس الطبيعة؛ لم يكن لأحد يد في بنائها.. جنسٌ من خلقٍ غريب إذا لم يكن وحشياً، وجوه مرقعة بجلود الحيوانات المنقرضة.. جنس مقزز محاط بالنار من كل جانب ومكان؛ حتى أطفالهم تلعب بكرات النار. وكان البحر يعلوهم وهو مسجور، ويغلي غيظاً.. أرض خالية من زرع ما عدا حيوانات مستهجنة: نمور ذات أسنان كمصاصي الدماء، والماموث الصوفي الذي بدا عشر اضعاف حجمه المعروف، والزواحف بصدفات مدرعة ان لم تكن من حديد، فهي من فولاذ خام.. كانوا يطالعوننا بخوف وريبة، ما جعلهم ينفرجون عن طريقنا.. دون إبداء أي اعتراض؛ اذاً فقافلتنا كانت ذات شأن ملكي في المنطقة.

كانت المدينة الثالثة، منطقة ذات تعرجات مخيفة، والتواءات حادة، بين الوديان المعرضة للانهيار.. كان السقف عبارة عن طبقة من الجليد السميك، الذي بدا عليه طبقة من الكلس الأصفر، وذات نتوءات مدببة كالخوازيق، من الضخامة بمكان ما إن تسقط منه نقطة حتى ينهار مكان بمساحة فرسخ أو أكثر.

المشكلة أن لا أحد يكلمني، وإن كانت لغتهم كلها إشارات.. ولا أعرف ما المطلوب مني، وإلى أين ينتهي بي المطاف.

كانت بيوتات المدينة في مصاف الوادي كأنها جحور الذئاب.. المدينة بالكامل منغمسة بالثلوج.. حيواناتها كانت كلها فرائية، وتعتمد الدببة والفيلة البيضاء المسرجة بحجر الالماس؛ كواسطة للنقل.

وما تزال القافلة تسير بلا توقف على المدين الرابعة.. ما لفت انتباهي إلى أن المدينة مضاءة بأقمار غارقة في المحيط.. المدينة هرمية الشكل، وكأنها من البلور.. الهرم وحده كوكب دُرّي.. تحط به طائرات غريبة الشكل، وتطير من مطار غير مرئي.. وقطارات تسبح في فضائه وتتلاشى.. لم أر له مدخلاً أو بوابة واضحة.. فما إن يصطدم به أي جسم غريب، إلا وابتلعه.. لم أتعرف إلى جنس قاطنيه، ولم أشُاهد أية مخلوقات واضحة المعالم.. وأكثر ما شدني إليه حركة الهيكل الكبير الإرتجاجية مع دوران هادئ.. ترجلتْ القافلة أمام منطقة خضراء كأنها من الزمرد النقي؛ وترجلتُ معهم.. أدركت انها المدينة الأخيرة.. طالعت سقفها بشغف، البحر بدا صافياً جداً.. لكن الأشجار كانت معكوسة، الجذور الى الاعلى، والثمار متسافلة.. طيور النوارس تتعالى لتلتقط الأسماك والأحراش.. وطيور القبرة تتغذى على حَبٍّ أشجار التين والخوخ، والبذرة تسقط للأعلى.. كانت المشاهد ساحرة وخلابة، وإذا بفتاة قمرية الطلعة، وضاءة تبرق حبوراً وبهجة، قالت: أظنُّ إن رحلتك كانت ممتعة.

لم أجبها، لأن بها من السحر ما يخرس النطق..

عندما أحسستْ بأني عاجز، لا أقوى على النطق، قالت: وددنا أن نُريك مناطق الفصول الاربعة، إلا منطقة الفصل الخامس فأنك ستراه وتعيشه؛ طال بك العمر أو قصر.

كان باسم متهيئاً، لضربه بالحذاء العسكري.. لكن وسام أعترضه بقوله: إن هناك فصلاً خامساً، وربما أكثر؛ لا يعرفه الكثير.

وأشار الى جمال لتعزيز رأيه، فأجاب: نعم أنه يوم الفصل. واضمر تمام القول: انه فصل من فصول كثيرة.

فضحك يحيى.. إلا باسم يزدرد ريقه فرقاً.

فعلق يحيى على حديثه: لكن للحديث بقية؛ كونك ابتلعت جزءاً كبيراً منه.

باسم منتقماً من سامي: نعم. ابتلع القندرة، الجزء الاكبر في الحكاية.

* *

الحيوات الأخرى

(٢٦)

ربما صراعنا الكبير والمستديم في كل مكان؛ مجرد حلوم ضالة..

استلقى جمال أسفاً متململاً يشعر بنوبات صرع في زغاب المخ، ومعركة وجود.. وهو يتساءل مع نفسه: إذا كان هذا حال العالم السفلي، فما يكون شكل العالم العلوي؛ وما شأن عالمنا نحن.؟!

وكأن حالة من توارد الأفكار، تواصلت مع وسام، الذي بدا يتمالكه إحساس بالظفر، ونوبات عفرتة؛ لتوائم أجوبته مع حكاية سامي.. وحتى احساسه بتصديقه كان نابعاً من تؤامة الأفكار وتوالفها.. على خلاف ما رأى جمال من امتداد القدرة الالهية، التي هي خلاف كل أفكار الإلحاد، ومصداق غير شمولي لتعدد الاكوان والعوالم الأخرى؛ لم يقتصر على خلق الانسان وحسب، وإن كان الإنسان سيد الموقف، ونقطة الحسم.

إلا يحيى الذي لم يختلجه شك في صحة هذه الحكاية، راح يرسم عبثاً، مخططاً تجسيمياً لهذه العوالم، وكيف يمكن ترتيبها، وما مصداقها، مع أفكارهم التي لم يكن يوماً ملماً بها، سوى الأهم فالأهم من متعارف ومعتقد..

لكنه رجح أن الإجابة، وإن كانت متناسقة مع عدد الفصول؛ فهي لم تكن بالإجابة الوافية، إلا إذا كان هناك جواباً اوفى معنى ودلالة.

ظل باسم غارقاً بنوبات من الخشية والقلق من ماهية هذه العوالم، والحيوات الاخرى، وماذا لو استدعى حضوره إليهم، أو طُلِب بالاسم أن يخوض مثل هذه الرحلة.. نظر لزجاجة الخمرة التي لم يبق منها سوى الثمالة، فاحتساها على عجالة، مخافة ان يشاركه أحد؛ وهو يبصق على سامي نفثاً.

وبما إن الوضع كان مكهرباً، بأفكار عارمة، وإجابات خجولة.. ارتأى وسام إن الحاجة إلى حكاية طريفة، هي الحل الأمثل لصفو المزاج، وانبلاج السرور، فسأل: من له حكاية طريفة، تخرجنا من الكمد والترح، الى المرح والفرح؛ فليحكي مشكوراً.

يحيى بعجالة: أظن أنَّ سامي قادرٌ على ذلك، فلنُسمّي هذه الليلة باسمهِ، ليلة سامي.

ضحك وسام: فعلاً إنها ليلة الممسوس سامي؛ وما أقبحها من ليلة، موحشة كخلقته الدميمة.

سامي غير مبالٍ: الإنسان جوهر، لا مظهر.

وثب باسم للتناوش: وأنت والحمد لله، لا مظهر ولا مخبر.

علا الضحك أجواء الثكنة.. حتى جمال الذي بدا حريصاً، ومستقبحاً للمزاح الثقيل، تجده مغموراً به، قائلاً: إذا كنتم مصرّين على السهر والمتابعة، فسأعد الشاي.

يحيى مقاطعاً: نفد السكر.

وسام: أحلى. الشاي أحلى بلا سكر.

باسم يعجز أن يخرج من لبوس طباعه وسفاهته: أحلى كالمشروب السادة.

(٢٧)

قد تشعرك الخيانة بالهزيمة، ولا سبيل للانتصار عليها إلا بخيانة الشعور..

كأن سامي كرّس نفسه لهذه الليلة، ومن دون لفٍّ ودوران ولتٍّ وعجن، وجد نفسه هادراً لشقشقة كادت تكبس على أنفاسه.

هل تصدقون أن الوقت الذي أمضيته في العوالم السفلية، لم يكن سوى لحظة عابرة للزمن، اظن ما حدث خارج الوقت.. إما ما كان داخل الوقت ومسيطر على المكان، فهي أمي، التي لم تكن سوى قطعة بالية، لصورة خارجة من الإطار، لجثة نتنة.. أشعر بزفراتها المتفسخة، وأرى تسلق الديدان فوقها، وانتحار البكتيريا.. حاولت أن أوقظها لشعوري بالجوع، فجلستْ متكاسلة نظرت بوجهي باشمئزاز؛ فنهرتني.

(لا أحد بمقدوره ان يقاطعه، أو يعترض عليه، فهي أمُه قبل كل شيء، وهو أحرص من الجميع عليها.. وتبقى الأم تاريخ وذكرى، ماضياً وحاضراً؛ وهي القادرة على نسف كل هذا المجد، بلحظة انهيار، ووصمة عار).

كان سامي على ما يبدو رجلاً قارِحاً مصاباً بلطخة في الحياء.

وتابع الحكاية: أخيراً نهضتْ من نومها، وعليها مسحة من الإتساخ، لا شيء فيها يدعو للطمع أو الرغبة ـ أعان الله أبي عليها ـ وإن كان لا يقل قذارة عنها.. أول ما قامت به كرعت الدبس من علبة معدنية، دون أن تتنفس.. ما إن انتهت حتى تجشأت عناء الكرع، فبدت شفتاها السوداوان منتفختين، واسنانها المعشوشبان بصفرة الدخان؛ فقد كانت تدخن سيجار اللف بنهم.. أظنها أن مشت، تمشي على فؤادي، كل ما فيها لا يطاق.. ودائماً ما كنت أسمع جدتي تقول: لولاكَ لما جلبنا هذه الخنزيرة التي لم تر السماء بعد.

لا أعرف ما كانت ترمي إليه، لكن نعتها بالخنزيرة وحده، كان مقززاً.

قدمتْ اليّ صحناً من (الفافون) وبه قطعة جبن صغيرة، مع قطعة من الحلوى الشعرية، فأشرت إليها على بلاص العسل، التي كانت منتصبة على الرف، فامتنعت بزعمها أنه علاج لوالدي.. لم تدر بأني كنت اتذوقه بين فترة وأخرى دون علمها.

على الرغم من برودة الجو، والشمس المهزومة، كانت تخمُّ الحجرتين بلباس النوم الخفيف، حتى إن ثدييها متدليتين بِلا صدرية.. حملت اجانة كبيرة مُلأت نصفها بالماء، ووضعته على مشعل النفط.. وبدت لي كالمجنونة وهي تجول بين الحجرتين والمطبخ، وتنظر إليّ بنظرة ملونة، مرة بابتسامة وإستحسان، وتارة بإزدراء واستياء.. أخذت مني الصحن وأخرجت ملعقة كبيرة

من العسل وأضافتها على الجُبن.. شعوري بالفرح لوجود العسل قد تبدد، طالما كان العسل علاجاً لأبي؛ فيا ترى ما هو المرض الذي نشتركا به.!

ما إن دلفت للحمام، دقائق ونادت عليّ، للحاق بها.. دخلت عليها، وهي جالسة على تخت خشبي صغير، وجهها للداخل، وظهرها للباب.. وكان جانبي وركيها اكبرا من خشبة التخت....

لم يطق جمال صبراً على سفيه حديثه، فصرخ به مقاطعاً: كفاك سفالة.

توقف عن كلامه دون ان يبدي ردة فعل.. بينما تصدى الباقون معترضين على تدخل جمال. وأنهم مصرون على الاستماع إليه؛ وبرغبة متوقدة.

فتشجع سامي للنيل من جمال فوجّه الكلام إليه: أتعتقد ان هذا مخالفاً لهوى السماء، أو كما تسمونها إرادة السماء. نعم أنا اعتقد كذلك.. وإنْ كان ثمة قرار لها ـ في إشارة الى السماء ـ فهو قرار خاص يتمثل في الخطوط العريضة ليس ألا.

وثب باسم من مكانه مستنكراً وناقماً على سامي: من أنت، حتى تتحدث عن السماء؛ غير نغلٍ وأبن عاهرة.

(٢٨)

كادت أن تكون فتنة اعتقادات، للحكومة بها رضاً، وللناس بها مصارع واقتتال.. عندما يتحدث بالدين من لا دين له، ويشطح بالمعتقدات من لا يعتقد.

لكن ما حدث للتو سرعان ما أنكفأ وتلاشى، ولم يعد سوى مشاحنات سكارى؛ خاصة بعدما تدخل وسام برجاء ومودة.. وبقدر ما يحب الاستماع لهذه الحكاية، تحفظ على شعور الآخرين، فالأم لها قدسية في كل الأديان والمعتقدات، حتى الوضعية منها. فمنع سامي من خوض التفاصيل في هذه الجزئية المبتذلة ـ على حد قوله ـ إلى ما هو أهم وأرقى.

لو أنكم تابعتموني لآخر الحديث، لعرفتم كم انا صادق وصاحب حق.. هكذا بدأ سامي بعتاب. واستأنف الحكاية مبتورة: لا أكره من الليل، عدا ذاك الصمت الزاخر بالكلام، والزاعق بالظلام، وكل العناوين التي تشغل المانشيتات العريضة؛ كانت مجروحة الشهادة بالصمت.!

قد يكون الصمت إلهاً مقدساً بلا طقوس، ولا نسَّاك ورهبانية، لكنه يستحق التأمل بقدر كبير، إن كانت الطبيعة جاءت بشيء جيد، فلا أجود من الصمت، ذلك الجسر المفعم بالثقة، والاعتناق اللطيف.

لطالما خشيت الوحدة واستمرارها، إلا اليوم فلا أجد غيرها راحة وسكينة.. خاصة عندما عرفت سرَّ البئر وسلمية العالم السفلي.. إسلمتُ بان الكون حفي بالجمال ندي بالحياة.. لا شك أن الخوف واحد من أعتى جنود النفس، وأكثرها مِراساً على الاقتحام، وهو ينفجر من الداخل قبل الخارج.. وقد آليت على نفسي إلا أتنازل له، ولا أخضع لسلطته.. لكني نسيت أنه عائد الى فصيل مسلح من الأشرار: من همٍّ وغمٍّ، وذكرى وشوق، وألم وندم؛ كلها جنود غير خاضعة لمقاييس ومعايير ثابتة.

وبينما أنا في هاجس مرير، يذكرني بامرأة، أوسمها بـالأُم، وهـي لا تسـتحق مني إلا اللعن والقذع.

إذا بضـيفيّ العزيـزين يقتحمـان علـيّ وحـدتي (صـلوح وصـدوح) وهمـا يبتسمان لي، جلسا من حولي، بعد أن نفضت اللحـاف عـن جسـدي؛ وأنـا أشـعرُ بدفـء الصـداقة.. حـدّقا بـوجهي العـابس، وإن بـدا عليـه بعـض ملامـح السـرور لرؤيتهما.. فبادرني (صلوح) التوأم الاكبر على مـا أظـن، قـائلاً: لا تحـزن. فأمـك هذه ليست بأمك.

(تنهد الكل مستغرباً، لهذه الانعطافة الكبيرة في مجريات الحكاية)

للحظة خامرتني فكرة أن أكون لقيطاً، أو نغلاً بائساً. لكن صحوة ما واتتنـي فجـأة، ترشـدني إلـى الصـواب: النغـل معـروف الأم، أمـا الأب ففـي قائمـة المجهولين؛ فانتهيت للخيار الأول.

لكن (صدوح) قطع عليّ بنات افكاري بقوله: وأبوك كذلك.!

ومن ثم اختفيا عني، بعد ان تركوني أشعر بالخزي والعـار، حتـى اسـتغرابي كان استغراباً موشى باستحقار للنفس؛ وأنا اتساءل أتراني أبن مَن.؟!

وبدأت اولول:" وا ويلي وا ويلاه". أنا لقيط ودّعي يا سـوء حظـي وطـالعي.. من حق هذه المرأة، أن تعاملني بقسوة، ما زالت متفضلة فـي ايـوائي، علـى أقـل تقدير.. من حقهـم أن يمنعـوني ارتيـاد المدرسـة، بعـد أن تخطيـت السـابعة مـن العمر.. ربما لا أملك حتى هويـة الأحـوال المدنيـة.. مـا زلـت لا أملـك تصـاريح

النسب؛ بكيت أسفاً. كان جمال أول من دمعت عيناه.. ويحيى يلعب بخيشومه عبثاً، وقد اطرق منكسرا.. أما وسام الأكثر قوة وصلابة بكى ناحباً بنشيج متقطع.. حتى باسم لشدّة صلافته، لم يقو على الكلام. تناوش زجاجة الخمرة الفارغة وعبأها بكمية من الماء، واحتساها بجرعة واحدة على الرائحة.

(٢٩)

لا اظن مآتم التعزية كلها تعزيني بمصابي في نفسي، وحيرتي بين أن افتح قلبي للعالم، وبين أن أقبل الهزيمة.. وأدركتُ عندها أنَّ الظل الذي يتطوح، كان شريكاً في السكر.

عادت أمي من التسوق، بعد ان سلبت والدي حصته من الإرث.. كان برفقتها الإسكافي الأعرج **(ضحك الجميع لسماع قصة الاسكافي، التي كانت مبهمة)** هو صاحب أول دكان في شارعنا، يحمل معها عليقة التبضع، وزنبيل من الخوص، كانت قد ملأته بحاجيات البيت.. دلف الى داخل الصالة معها، والتي تنقسم الى صالة ومطبخ صغيرين. جلس وكأنه في بيته.

تذكرت قبل أيام، وأنا أتسوق من البقالة، التي بمحاذاته، إذ نادى عليّ، فاقتربت منه على حذر.. كوني أتصوره شخصاً غير مأمون الجانب، ولا يبدو عليه سيماء الاحترام.. وكان قد نترني إليه، وقرصني في خدي، وهو يقهقه، قائلاً:" هذا الشبل من تلك النسرة".

ما كنت لأفهم ما يرمي إليه الا أني ازدريته وكرهته. لكنه عاد ليعرض عليّ بضاعته المزجاة: إذا كانت عندكم قندرة ممزقة، تحبون إصلاحها أو رقعها؛ حتى وجه أبيك البائس، أذا احتاج الى ترقيع؛ فأنا موجود ولكم مني تخفيض خاص. هذا ما كان من موقفي بالأمس معه، واليوم يدخل معززاً بيت الرجل البائس، بدعوة من صاحبة المنزل؛ ماذا تراه يفعل.؟

قامت أمُي بنشر مشترياتها: العدس والباقلاء والماش، وزجاجتي لبن، وسمن بلدي، وعلبتي دبس وراشي، وجبن محلي وحلوى، وقطعة شوكولاتة أشارت بها اليّ؛ وارجعتها للكيس.. وثمة كيس جميل، كشفت به عن ملابس جديدة زاهية الألوان، عرفت أنها نسائية لألوانها الصارخة.. حتى هذه اللحظة، أنا متأكد، أنّ أمي جلبت مسواق البيت. لكني لم أعرف ما دور هذا القندرجي الذي بدا فاغراً فاه، باسنانه السوداء المسوسة، وهو مبتسم بلا سبب؛ إلا لقلة الأدب.. ولا أظنه سيتحرك، أو يتزحزح من مكانه، إذا لم ينهره أحد، ويطرده شر طردة.

قامت أمي بكل بجاحة، لإعداد الشاي، وكأن المدعو أحد أهم أقاربها.. كدت أموت من ثقل هذا الرجل، وبجاحته والريبة التي بدت تخنقني.. وإذا بأمي اعطتني درهماً، وأمرتني بالذهاب الى المخبز، الأمر المعتاد يومياً؛ كأنها بذلك اختارت التوقيت الصحيح، والعذر المناسب.

ذهبت للمخبز، الذي يبعد عنا مسافة زقاقين، وكان مزدحماً كالعادة.. ذهني كله أنصبّ، مع أمي والإسكافي القذر.. وتراءت إليّ أفكار سوداء، وتصورات اخوف من العوالم السفلية: ماذا يفعلون في الخلوة.؟ أين أبي عنهما.؟ استوقفني ذكر أبي، وبدأت أكيل إليه شتى أنواع الشتائم، التي سمعتها من أمي، وجارتنا القديمة.. وأرجع لألعن أمي: كيف لامرأة أن تستبدل موظفاً، له سمعته ومكانته وتوجهه الثقافي، وهو يتابع الصحف والمذياع، وله اراءه السياسية، ماركسي الهوى، برجل قندرجي، أفضل ما مر على رأسه، وعشعش في مخه، ذكر القباقب والشواريخ؛ في حين يصبح الناس على فنجان قهوة، وفطور شهي، يصبح هو وفي رأسه ألف نعل مقطوع، وحذاء مشروخ.. لكن يبقى العتب على أبي الفاشل.. لم انتبه من الألم، حتى صاح بي بائع الخبز: نقودك.

أعطيته الدرهم، وأنا أنظر للخباز المفتول العضلات، الذي كان يلاكم كلاكيع العجينة، بطريقة خبير، ويفرشها على المخبازة، ويلصقها بالتنور بقوة، وبحركة لولبية دائبة يستمر العمل.

كنت مستغرباً، أتساءل مع نفسي: (هل يحتاج هذا العمل إلى هكذا عضلات). رمقني بعينين قاسيتين، وهو يقترب مني، متسائلاً: أنت أبن رغيبة خاتون.؟

فاعرضت عن إجابته. فاستطرد القول:" سلم لي على الماما؛ وقل لها (ديسلم) عليك عمو ابو راغب الخباز. وقهقه بصوت عال. ما دعا كل الصناع والزبائن أن يضحكوا معه.

فشكرت السماء، وهي المرة الأولى التي أفعلها معرباً بها عن امتناني على أن هذه المرأة، لم تكن أمي؛ وأنا لقيطٌ وأبنُ شارع.

(٣٠)

كنت كمن حكمت عليه المحكمة المتنفذة بالجنون المؤبد..

تكررت اللقاءات بيني وبين توأم الجن (صلوح وصدوح) مرة بمناسبة، ومن غير مناسبة مرات.. مرة باستدعاء مني ورغبة، ومرة باقتحام وتنفذ.. حتى صرت توأمهم الثالث؛ وابدلت اسمي من سامي الى (سملوح).

قاطعه وسام: نعم الاسم.

ابتسم سامي، بينما كركر باسم بعنجهية.

فاستطرد قائلا: تعلمت منهما أشياء كثيرة، لكن أفضل ما تعلمت، ألا أخاف أحداً، ولا أخشى شيئاً.

غرفتي الصغيرة المتهالكة بدت كغرفة عمليات. وباتت كباحة كبيرة، كل ما فيها زاهٍ ونائر؛ حتى أنا لم أعد أنا.!

كنت اقوى بكثير مما كنت عليه، لم يقف أمامي، ذاك الاسكافي الاعرج الاهوج، الذي ظل يدعو الرب على أنْ لا يراني؛ أو اصادفه مجرد مصادفة، ولا ابو راغب الخباز المفتول العضلات، الذي ما كانت عضلاته لتسعفه من غضبي.. حتى رغيبة خاتون، نالت جزاءها العادل.

هكذا كان قدري أن اصدق جنيين كاذبين، أرادا النيل مني، فكانا وكنت. كلما ذكرتهما تبولت وتغوطت في فوهة البئر، على عالم لا أنتمي له؛ ولا أفكر بالانتماء إلى غيره.

باسم باستفزاز بيّن: ما تتوقع من بيت لا يُذكر فيه اسم الله.

سامي هازئاً: أتوقع كل شيء، إلا أن ينتقده مثلك؛ هنا تكمن الطامة الكبرى.

جمال يحادث نفسه بصوت كتوم: (الله أولى بعباده).

لكن يحيى ظل مستيقناً ان هناك الكثير من الكلام قد ابتلعه سامي لسبب ما، والاكثر منه الاحداث التي أُخفيت.!

❊ ❊

بين انذارين وثالث

(٣١)

لم أشعر بنهاية الحرب إن انتهت، لطالماخلفت أثراً بليغاً في الـنفس لا ينسى.

القوانين الاذلالية صنعتْ جندياً عبثياً، غير منضبط سلوكياً، قد لا يتورع من ارتكاب اية حماقة لأثبات وجوده، وتقويم انكساره، ولو على حساب الآخر.

عمدت قيادة عمليات شرق دجلة على الاسراع بالتحصـينات اللازمـة، مـن فـتح عقـد ترابيـة بمسـاحة (٥٠٠) متـر بحجـم فصـيل بـالعمق تعزيـزاً للقطعـات المتراجعة على خط التماس، وكمصدٍّ لأي هجوم محتمل، فضلاً عـن الأسـلاك الشائكة والمعرقلات الشوكية التي يبلغ ارتفاعها المترين تقريبا.. تم نصبها علـى رأس المسالك والسبل المائية؛ لإعاقة أي تقدم بالزوارق والطرادات السريعة.

الحالة الاسوأ التي رافقت الاحداث المتسارعة، إعلان حالـة انـذار (جـيم) الذي يلزم بقطع الاجازات بما في ذلك النـزول اليـومي والـوقتي والتحـاق كافـة المجـازين فـي مـدة لا تتجـاوز الـ (٢٤) سـاعة؛ مـا يـدعو الـى تكامـل مواقـف القوات المرابطة.

ما إن سمع جمال الخبر، إلا واصيب بالإحباط، وشعر بضيق الدنيا على رحابتها، ووجد نفسه أشبه بصورة محنطة في بروازٍ من الابنوس، ولم يجد وسيلة للتنفيس عن ضغطه المتصاعد، غير أن يركل مكتبه الصغير؛ ويبعثر الأوراق بشكل فوضوي.

هب وسام إليه وأمسك بزنديه في محاولة للتخفيف عنه وتهدئته.. فاستجاب له وجلس وعيناه تقدح شرراً.. وأعرب له عن أسفه.. فالحرب كلها بكفة والاجازات بكفة وهو يتململ ويتأوه؛ واستأنف قوله: الاجازات تعني قبلة الحياة لغريق، الانعاش المركز، البقاء، الوجود، الشعور بإنسانيتك المهدورة تحت جور قرارات العسكر.

يتحسس وسام مدى صدق ذلك، ما دعاه لمشاركته ألمه ومواساته في حزنه.. فالانقطاع عن الحياة المدنية؛ موت لحقيقة الإنسان ووجوده.

لا يختلف اثنان على ان الحروب والغزوات كانت مصدراً للعيش، أو بالأحرى للاعتياش الظالم، بما في ذلك حروب النيابة عن شرف الامة وكرامتها ضد المحتل والمعتل.! كلها مبررات لا تخدم إلا قائد مختل عقلياً، بداء العظمة وألف داء أيسرها الشعور بالنقص.

حتى أحس وسام بأنه اسرف بالمواساة؛ بعدما تجاوز كل الخطوط الحمراء.

دخل ملازم خالد لتعميم أوامر الانذار (جيم) الى مكتب القلم وهو يطالع الوجوه الواجمة.. بيد كان شعوره لا يختلف كثيراً عنهم، لكنه كضابط لابد ان يظهر بالمظهر الوطني المضحي، الذي يحرص على سلامة الوطن.. لكن شدّ انتباهه بعثرة الأوراق والكتب الرسمية هنا وهناك.. فأدرك بأنه رد فعل طبيعي؛ لكن عندما يصدر من انسان سوي كجمال، يكاد يكون أمراً مرفوضاً.. مع ذلك رجح التغاضي، وأمرهم بجمع الاوراق وإعادة ترتيبها.. لكن هيبته العسكرية، لم تعد قادرة على السكوت، وهي تنتفض وتضطرم، إذا ما سدد لكمة شرف للخصم، فقال بازدراء: الظاهر أنت على موعد مع الحبيبة؛ لذلك انعفست خلقتك، وتغيّر سلوكك.

جمال يتصنع التماسك رغم انهياره: من السهل جداً إرجاء الموعد إلى وقت آخر، لكن من الصعب والعسير جداً؛ ان تجدد عقد العبودية.

وبما أنه كان جواباً صادماً لملازم خالد، وعلاه شعور لا يُحسد عليه.. لكنه وبحركة دبلوماسية ألتفّ على الموضوع: المهم إنا عرفنا ان لك عشيقة ـ قالها صاغراً.

(٣٢)

نحن شعب جدير بالرثاء يتمشكل بالتاريخ والاعراف، وأن لم يجد ما ينشغل به؛ انشغل بجنونه.

كان من المقرر ان نستمع الليلة لاعترافاتك، لكنك في مـزاج لـو قتلـت لمـا ندمت. هكذا قال وسام لجمال.. من ثم ألتفت إلى باسم قائلاً: أظن ان للسـكارى حظاً أوفر بأن يكونوا في الصدارة، فألحقْ بصاحبك سامي، واسمعنا ما تشـدو بـه قريحتك من مصائب.

وقع الاختيار على باسم وأن بدا متحفظاً بعـض الشـيء، لكـن زفـرة مـا فـي داخله أراد نفثها عـن قلبـه، وربمـا يجـد فـي الحـديث مـا يـروّح عـن عبـأ ثقيـل وهاجس مكبوت، لماضٍ قاس.

لا أخفيكم سراً عن احلامي التي بدت صغيرة جداً. هكذا بـدأ باسـم: حتـى أنها أقصر من أن تأخـذ حيّـزاً فـي هـذا العـالم الطويـل.. لكننـي عوضـتها بيـدين طويلتين، فقد استرددت جزءاً من حقوقي، وما زلت أفكر بالباقي.

كانت بداية موفقة، قد نالت استحسان الكـل، واسـتغرابهم فـي آن واحـد.! فالاعتراف بواحدة من اسوأ الخصال؛ هو اعتراف لا يؤخذ الا بالقوة.

وعاد باسم ليكمل، بعد ان جاس ملامح الوجوه التي بدت تطالب بالمزيـد: أنا أخٌ بين أخوين يكبراني بالعمر ودونـي آخـر العنقـود، وأختـين تـوأمين علـى رأسي.. أكبرنا حازم موظف، وبعـده قاسـم عسـكري، وهـو يملـك سـيارة اجـرة مرسيدس (١٨) راكباً، وكان أوفرنا ماديـاً.. وكـان والـدي رجـل سـتيني متقاعـد قريباً، تمكن من إعادة إحياء أرض زراعية صـغيرة، بعـدما كانـت مهملـة.. وبـدا شغله الشاغل، ومتنفسه الوحيد، وهـو يمضـي طيلـة النهـار فيهـا، حتـى اصـبحت

مثمرة، وكانت تغطي معظم احتياجات البيت من الخضار؛ الا انها لم تكن مشروعاً ريعياً، وكان منها للأقارب والجيران هبات.

أما الأم فكان لها السلطة والغلبة، والرأي، وسائر التدبير المنزلي.. فكنا عائلة متماسكة على الرغم من تمرد زوجتي اخويّ.. لكنهما عاجزتان من تنفيذ أي خطة كيدية؛ تمنحهما الحرية في بيت مستقل.. كان لحازم الكبير طفل واحد، بينما لقاسم الاصغر طفلان، وكانت زوجة حازم مصرة على الانجاب على خلاف رأي زوجها الذي يتطلع للاستقلالية، التي تبدو مستحيلة لأكثر من جانب، أهمها الراتب الخجول؛ فضلاً عن سعي الوالدين الدائب بالحفاظ على وحدة الأُسرة.

لكن موت الأب، كان الانعطافة الكبرى في تاريخ العائلة، ناهيك عن بدايتي المأساوية.. من دلال مجتزئ، واستقرار نسبي، وأمن، وإعالة.. الى الشارع، وتكفل عائلة، وتحمل مسؤوليات أكبر من عمري؛ وفوق طاقتي.

(٣٣)

لا شيء حقيقي حتى أنا لم أعد سوى مزحة تافهة، نكتة تبدد ملل السكارى؛ وتلفظ بالقيء.

أزفت ساعة القيامة في بيتنا، عرض ونشر وحساب.. بعد ان كادت النساء ازواجهم، صار لا معنى للبيت الواحد، والأُسرة الواحدة.. أمُي التي كانت لها

السلطة العليا، بدت مهددة بالانقلاب ما لـم تنتـه حكايـة الميـراث سـلمياً.. حتـى عندما تتحجج بمستقبل إخوتي الصغار كنت أنا خارج الحسبة.. فهـم مشـمولون براتب التقاعد ومبلغ زهيد من الدنانير، كان تركة والدي وهي أقل بكثير مـن أن يُنظر إليها او يُعنى بها.. لكن أمي لم تيأس بعد، من كسب الجولـة الاولـى.. فقـد قررت ان تكـون معركتهـا الرئيسـة، هـو كسـب البيـت بعـد مـا تأكـدتْ مـن أن القـانون بجانبهـا، وهـي مسـؤولة عـن القاصـرين الثلاثـة البـاقين؛ بمـا فـي ذلـك احتضاني وعدم التفريط بي.. فكان من اخـويّ أن اخـذوا البسـتان بعنـوان قطعـة أرض وأتلفا زرعها؛ وشيدا منزليهما الجديدين.

عدنا ترتيب البيت وترميمه ما أمكن باليسـير المتـاح. كـان راتـب أبـي ومـا بقي من مبلغ زهيد، رأس مالنا البسيط.. وبذا بـدأت جـولتي الأولـى فـي البحـث عن عمل.. الخيارات كانت أمامي قليلة، لا لعدم وجود عمل، بل لأني لم امـتهن مهنة معينة، بما فـي ذلـك الاحسـاس بالكسـل والخمـول، واحتقـاري لكثيـر مـن الاعمال الشـريفة؛ فالاسـتنكاف رأس كـل بليـة.. فوجـدت نفسـي لا أصـلح إلا عامل بناء.. وصـرت مـن رواد المسـطر، مـع ثلـة أعـرف مـا بهـا أثـول ومبصـرها أحول.. أنظرُ إلى دخان العمال، بدا أكثف من دخان السيارات؛ وروائح انفاسهم ربما أشد من روائح البارات.. كان الحراك مستعراً، تقـافز العمـال علـى سـيارات الحمل كالقرود.. فحضرني قول أحد رجال الدين المشككين، في مقولـة أصـل الانسان قرد. فقلت في نفسي: (بل عاد كذلك).

جلس بالقرب مني شاب يافع، ربما يصغرني بالعمر، بان على وجهه ملامح البساطة والعفوية، للوهلة الأولى ارتبت به، لكن عندما تكلم كان شاباً مؤدباً.. جرى بيننا حديث طويل، استشفيت منه أن مصيبته لا تقل سوءاً عن مصيبتي، بيد أوجع ما قاله: إذا لم اشتغل اليوم فقد نبقى بلا عشاء.

احسست بالرحمة اتجاهه، لكن لا أملك ما يمكن أن أقدمه إليه، ولا أظن إن ثمة من يموت جوعاً في بلدي وزمني تحديداً؛ فارتبت بكلامه على الرغم من هدوئه وسيماء الانكسار.. دخل على الخط رجل متوسط العمر، ذو ذقن اشيب، موشى باحمرار الحناء، وشاربين اشعثين، أحاط يده على كتف الشاب، ومشى به على انفراد، دار حديث صامت بينهما.. كان الشاب مطأطئ الرأس، ينظر بحذر يميناً وشمالاً.. ما إن التقى بصري ببصره، أطال النظر بي مستصرخاً بصمت.. فعدوت إليه بلا رشد، وسحبته من يده.. وإذا بالاشيب الحقير، يعترضني، مسدداً إليّ بلكمة قوية على الوجه، كادت أن تسقطني أرضاً، لولا تماسكي.. فأفلته من يدي، وسار حيث عربة صغيرة، مركونة في جانب الطريق الثاني على مسافة أمتار، مليئة بالخردة، يجرها حمار متهالك، وحوذي لا يختلف وجهه كثيراً عن صاحبه (الحمار)؛ أما وجهي فبدت حرارته تبلغ العين انتفاخاً وألماً.

فوجد سامي الفرصة مؤاتية للانقضاض عليه، فقاطعه بقوله: لكمة على الوجه، أفضل بكثير من لكمة على الشرف.!

(٣٤)

لم استعر من وجهي يوماً، فهو خير من لازمني. ما دمت لـم احـتج معه للمرآة.

أخذت أمي بيدي للاسطى حاج عامر، بنّاء معروف فـي المنطقـة، وكـذلك هو معرفة قديمة، لوالدي واخواني، ولنا بـه صـلة بعيـدة؛ هكـذا سـمعت.. شَـرَطَ عليّ الالتزام معه بالوقت، كما قدّم التأخير في العمل، على رأس القائمة؛ إذا لزم ذلك. ولم يكتف بذا، فقد قال: أني أسب واضرب لمصلحته وتعليمه.. فلم تمـانع أمي اطلاقاً على شروطه، واعتقدتْ ذلك ضريبة التعليم، وإتاحة فرصة العمل مع رجل تعرفه، وتأمن عليه أبنها الذي أصبح سندها.

صباح اليوم التالي باشرت معه العمل، أنا رابع عماله، كلهم تقريباً من محلـة واحـدة، أو أقربـاء: أكبـرهم تجـاوز الأربعـين (عمـو سـلام) هكـذا ينادونـه. وأصغرهم بسنّي تقريباً (ياسر) ابن الاسطى. والوسط يبـدو قرابتـه بعيـدة نوعـاً مـا (عبدول) والمتداول عبد. لكن الاسطى دائماً ما يمازحه بعبد شمس، بينمـا عمـو سلام يصيح به عبد العزة، وهما يضـحكان بشـدة؛ وهـو غيـر مكتـرث ولا مبـالٍ، بكل اسماء الضلالة. وكأن الموضوع لا يخصه بأي شـكل مـن الاشـكال.. كـان عبد يجبن الجص، وانا من يوصله للاسطى، وعمو سلام يُعنـى بتوصـيل الآجـر.. بينما يعمل ياسر دوّار، كلما تنقص حاجة ما من الطـابوق أو الاسـمنت، ونصـب السقالات الخشبية في حال ارتفاع البناء، وكل ما لزم لديمومة العمل؛ وهـو غيـر متقيد بالوقت، ولا منضبط بأي قيود.

كان الاسطى طروباً، ينشد بكل ما جادت به قريحته، ويغني ما جاء على لسانه بصوت شجي.. وإذا ما ازداد حماسه فهو يناديك بموال، مازجاً مفردات العمل، بأغنية وأخرى؛ وهو يدبك أحياناً ويصفق، تشجيعاً وتحفيزاً.

أول عارض عكر مزاجي، بعدما بدأت اتأقلم وأتكّيف معهم، كان سؤاله السخيف: أما زالت أمك بفترة العدة.

احترت بما اجيبه، وما شأنه وأمي، واحسست بالنقمة والغضب، فتراءى لي أن اضربه بطابوقة، واسقطه من الاسكلة ميتاً، أو أهينهُ على تطفله وسفالته؛ وأكون بذلك قد خسرت فرصة عمل أخرى. أو أن ابلعها وأصبر على حر نارها، فرأيت السكوت اولى، وربما هو إجابة وافية ورد بليغ. وكلي أمل ألا يفتح الموضوع مرة أخرى؛ وبالكاد فعل.

وعند الاستراحة وعلى مائدة الفطور المتواضعة، التي لم تكن غير جبن ومربى جزر، وكوب شاي.. طرق الموضوع مجدداً بطريقة مختلفة، وهو يكلم عبدول: أموت على أمك يا عبد شمس.

وعمو سلام يكاد يقلده: نعم الأُم أمك يا عبد العزة.

ظل عبدول مبتسماً بهدوء.. بينما ضحكت في سري متسائلاً: أنحن في قريش.؟

وعندما عدنا لمواصلة العمل، كنت أنظرُ الى عبدول، وأكبره على شجاعة الصمت وقدرة التحمل.. ربّت على كتفي، وهو يقول: لا عليك كلام عجائز،

كلام بلا أفعال؛ بينما أنا نكحتُ بنت هذا بدينار ـ مشيراً على عمو سلام ـ ونكتُ بنت ذاك ـ إشارة للاسطى ـ وعوضت دنانيري.

(٣٥)

شتان بين رجل يأكل من دبره، ورجل يأكل بقضيبه.

وإن كانا الاثنان وجهين لعملة واحدة، من السفالة والوضاعة، والانحطاط الخلقي.

كم كنت اتمنى ان أحظى بفرصة مماثلة، تُشبع الرغبة، وتملأ الجيب؛ فرصة لا ينالها إلا ذو حظ عظيم.. في بلد الاخفاقات فيه تساند الانتكاسات، وتقمع الفرص، وتستلب الاسباب.

تواصلت مع عبدول في أكثر من عمل، وأكثر من مناسبة، سعياً وراء نيل بعضاً من فضلات علاقاته.. كم أحببت ان اوقد جذوة حظي الخامد، بحظه المتوهج.. لكن كان أذكى من أن يعطي بيد ذليل.. فكان التساوم مجحفاً، المتعة مقابل المال، وكل واردات الابتزاز، تكون من نصيبه، فقد وضعنا خطة محكمة للابتزاز والاتاوة؛ وأنا من يكون بالصورة، وفي حلق المدفع.. وكان الرفض يعيدني إلى المربع الأول، لأقبع بين الأماني، وأحلام اليقظة؛ والبداية من الصفر، الصفر المستهلك الذي لا قيمة له ولا تعريفة.

وكنت تحصيل حاصل لنتيجة مؤسفة، إن أكون واحداً من ضحاياه، إذا ما قبلت شروطه نصّياً.. أو التمرد عليه، والمراوغة معه، مع حساب كل الاحتمالات المتعلقة بخطوط الدفاع لديه، ومدى قوة تحصينها وصمودها.

المشكلة ان عالم المغامرة مليء بالمفاجئات، وعليك ان تتكهن بكل الاخطار، ولا تعويل فيه للصدفة.. وبين كل حساباتي الحذرة لم اقو على حسم رغبة أو صرف نقمة؛ فلا تنعم بالحياة بلا لذائذ.. وجدت نفسي في بيت بشرى بنت (عمو سلام) امرأة ضاع حسنها في حضن البدانة، ثلاثينية متصنعة أكثر في شكلها، لها ثلاثة أطفال، وكان عندها رجل مربوع القامة، مفقتول الذراعين، عريض ما بين المنكبين، ذو شعر أغبر مجعد، ووجه أمرد أملس الشعر.. رحب بنا بحفاوة، وعزم علينا بكأسين من العرق الزحلة.

اصطحب عبدول بشرى الى مخدعها، من دون مقدمات، مطاوعاً لرغبة متبادلة.. ارتحت نوعاً ما لانسيابية الأمر، وبدأت أتطلع لكأس أخرى، بعد أن ارتشفت الأولى بشغف.. وكأن هذا الأمرد سمع صوت رغبتي فناولني كأساً ثانية، وهو يضحك: احذر فأن العرق يضعف الهمة.

نظرت بوجهه متسائلاً: ها.. فعلاً. لكن لم أتعرّف عليك بعد.

بدا متلبكاً شيئاً ما: أنا صديق.

إجابة غير وافية، معدومة الصراحة، لم تشبع فضول السؤال؛ تواقة لتشتيت الانتباه.

فلم أستطع ان أخفي فضولي أو اكتمه، حتى وأن كان في قرارة النفس ما كان هذا الشخص، أو يكون؛ فهو لا يغيّر شيئاً من واقع الأمر.. الرغبة هي الرغبة، وأنا ملزمٌ بتنفيذها، وفقاً لخطة بعيدة الاهداف؛ قد أكون الخاسر الأول، إذا لم اتجاوزها للمرحلة الثانية.

وعدت عليه بعد شعوري بالسكر: أهلاً بالصديق.

نظر لي وهو يحس بانبطاحي للسكر، فلامني: ألم أنهك من السكر.

صحت به: ومن أنت لتأمرني وتنهاني.

قال متبجحاً: أنا زوجها.

للحظة طار المشروب من رأسي دفعة واحدة، وأنا اردد مع نفسي، بصوت مسموع: أنت زوجها، زوج المدام، زوج بشرى، واويلي كم أنت حريصاً عليها، كم أنت محترماً، يريد راحة زوجته، واسعادها ولو في احضان الباذلين، الناس المقتدرة.. ليس مهماً عندك المال، ولو بفلس واحد، ولو أحب أن لم يعط، فلا بأس. ما زال يقصد راحتها؛ هو ذا نعم القصد.

أنا كذلك أريد المتعة، مع امرأة تريد المتعة، لا امرأة تقبض من فرجها؛ ما يأكله زوجها القواد.!

سمح لي بالاسترسال بذمه وشتمه، حتى انتصب كالثور الهائج، واخذ بي من تلابيب قميصي، ونترني إليه بقوة، ونطحني برأسه، ما اشعرني بدوار مخيف، وانهال عليّ بالركل والرفس الموجع.. لم أجد غير الصراخ متنفساً، وإذا

بزوجته بشرى فوق رأسي، وكانت عارية إلا من قميص النوم القصير.. ووجهها لا يختلف كثيراً، عن وجه قوادها وحشيةً، وهي تصيح بي: يا ناكر المعروف.

حاول عبدول التدخل متعذراً بالسكر، لكن الأمرد الاملس، زمه بعيداً عني.. وعاد رفعي مجدداً من قميصي، دون ان أبدي حراكاً، مُدارٍ لوجهي براحتيّ، مخافة ان يجدد العهد، بلكمة تطيح بأسناني، أو تصادر إحدى عيني.. يبدو أني أسأت الظن به، فالرجل كان حريصاً على تجريدي من كل فلس في جيبي.. وأشار إليّ بأدب رفيع، إلى الباب، منذراً ومتوعداً إذا ما عاودت وصول بابهم مرة ثانية؛ سيرفع وقتها الإنذار الأحمر طرداً من الحياة.

* *

رجولتي على المحك

(٣٦)

لطالما كانت التبريرات الساذجة، أثقل من الذنب على المذنب.!

بدا باسم حكايته التالية بقوله: بدأت أمي تشكك برجولتي، بعد تبريرات سخيفة، وأعذار أقبح من ذنب.

لم تفت هذه البداية على سامي الذي كان يتحين الفرص، قائلاً: إذا كانت أمك تشكك فنحن متأكدون.

ضحك الجميع، بينما كان وسام يتطلع لمعرفة المزيد من التفاهات، التي تنم عن رغبة موغلة بالتخبط والانتقام للذات.. فرحب بدوره في الاستمتاع بحكايته وانصت مطرقاً بشوق.

كم كرهت أخويّ حازم وقاسم وزوجتيهما اللتين فرقا كيان الأُسرة الواحدة.. لشعوري بالاحتياج إليهما والاستناد عليهما فهما عزوتي وملاذي.. لكن ما فائدة البكاء على الإطلال، بعدما أصبحا من الماضي.. فأمي الزمتهما الحجة بان لا عودة أبداً الى كنفها، ولا بصيص أمل. وكلما طالت مدة البعد

والفراق كلما كانت العودة أصعب.. وبالتالي فأنه ليس من الرجولة البكاء والتشبث بأمل لا يتحقق؛ وإنْ تحقق لا ينفع.

بالأمس أسمعتني أمي كلاماً جارحاً قالت:" إذا لم تجعل لشاربيك قيمة؛ فان شاربيك والنعل سواء.

واحترت بالانتصار لرجولتي، أأكون شقياً، أفسد وأنهب وأقتل، أمْ أحلق شاربي واسترح.؟!

ثمة ابتسامة عريضة علت وجوه الجميع، حتى جمال الذي كان بمنأى عن الاستماع، وجد نفسه منجذباً بشكل وبآخر.

تابع باسم: فبدأت اول مشاريعي المستقلة، بصناعة العسلية، حلوى من السكر البني، أو الابيض المخلوط بأصباغ (اللوزينة).. وكان الاطفال يتهافتون على منزلي للشراء بالجملة، وكان أخي الصغير (عمر) ممن يبيعون في الشارع، ولم تقصر شقيقتي في مساعدتي، إلا أمي التي بدأت مرحبة بالمشروع، كانت تدرك بأنه مشروع سطحي، وقليل الوارد. لكنها ارتضت إليّ الحركة؛ آملةً أن تحلّ في ذلك البركة.

أيام قلائل، وتمالكني الملل خاصة بعدما فتر الشراء، وكأن موسم الكساد قد حلَّ.

قمت بجولة في السوق الكبير، عرضت نفسي عاملاً صانعاً، في أي دكان وأية حرفة، فأن لم تكن الاجابة بالنفي، وعدم الحاجة؛ كانت الاجابة بالأسبوعية القليلة، التي لا تتجاوز الثلاثة دنانير.

أخيراً حالفني الحظ، بالعمل في مطعم، أُعنى بغسل الصحون والقدور، وتنظيف الخضار، وتجهيز السلطات. مشروع أكبر من عامل، لكني قبلته برحابة صدر، خاصة إن اليومية كانت من اثنين ونصف الى ثلاثة دنانير، لكنها مشروطة بوقت الدوام الطويل، الذي يقضي على النهار تماماً؛ هذا إذا ما زحف على تباشير الهجوع.

لا أحد يعلم بسبب تأخيري، ما دعا والدتي لتسأل عني كل بيوت الجيران، وصحابي المقلّين.. فتنازلت صاغرة، لتذهب إلى بيت حازم أخي الأكبر، وتترجاه في البحث عني.

لكن حازم كان ألعن من أن يكلف نفسه، عناء البحث، ومشقة السؤال. فأجابها على الفور: اذهبي الى البيت، ترينه سكراناً في احدى البارات، لا يأتي حتى يغسل الصحون، وينظف الحمامات؛ بدلاً عن مشروبه الذي يعجز عن تسديده.

عادت أمي حانقة ناقمة مني، لأني شرخت كبريائها، وانزلت رأسها للأرض؛ وهي لا تقبل أي عذر مهما كان.

حلفت أنْ لا تسمعني، فقمت قبّلت رأسها ويديها، ووضعت رأسي على فخذها، واستلقيت أحكي لها حكايتي. فلم تجبني إلا ببضع كلمات: ليس كل من شمّر عن ساعديه، فهو رجل؛ الرجولة إحساس بالمسؤولية.

(٣٧)

عندما يقولون إنَّ الحق يؤخذ ولا يُرجى، أتأكد عندها إن خللاً ما في القانون.

كان الحاج فيروز صاحب المطعم الرجل البدين، الذي لا يقوى على الحركة، وهو ملازم لكرسيه وميز الحساب، يتناوب مع ولده البكر (محسن) على إدارة المطعم.. المطعم كان عامراً بالزبائن، والعمال بتزايد، فكل عامل يعمل أكثر من عمل، وكلهم شباب بعمري أو أصغر.. حتى إن مشادة كلامية نشبت بين عامل وزبون. قرر محسن بأن العامل هو المقصر، فقام بطرده بعد أن اعطاه أجرته كاملة، وقال:" هذه قوانيني؛ والقانون يشمل الجميع".

تعلمت من العمال المخضرمين في المطعم، أفضل طرق التملق و(التعايش) ـ وإن سُمي بالنفاق ـ لنيل ثقة صاحب المطعم، واكرامية الزبون، وبدأت اتبحر في هذا الفن، كيف تكون انساناً ناجحاً في غضون أسبوع واحد.

ألتففتُ على محسن الابن الثري الصغير، واستملته نحوي، بعد أن كنت أحد أهم عيونه، ومصادره الثقات.. واجتهدت في ذلك، حتى صرت الآمر الناهي، من بعد الطباخ ـ الشيف ـ الذي بدا يتخوف مني، خاصة وأنا اسعى لتعلم فنون الطبخ، فهي مهنة مدرة للمال، وفاتحة للشهية.. فسعيت سعيي دون ابداء أية خصومة.

فحاج محسن الصغير الذي لم يطف، حتى بأقرب مزار، قد صيرته حاجاً، ومعتمراً واستاذاً، وشيخاً. خاصة بعد أن ارتدنا الملهى معاً، وسكرنا معاً؛ إتكّيف على حساب مفتوح بلا وجع قلب.. كذلك صنعت من الشيف أبو سعد، عمو ابي سعد، وشيخ سعد؛ ومولاي ومولى المؤمنين والمؤمنات.

(ابن الكلب. رد فعل طبيعي صدر من سامي إشعاراً بمنجزه العظيم).

لكن ذلك لا يعترض شق طريقه، ومواصلة كلامه، فاستطرد القول: المهم أشرت على حاج محسن، بأن يفتح جناح خاص للعوائل، لكن الظاهر سبق وأن ناقش الموضوع مع أبيه، ولم يحظ بقبوله، فأن الأمر يتطلب الكثير من المال، والوقت، وإعادة بناء وترميم إلى آخره.

لكني لفتُّ انتباهه الى مسألة، لا تقل اهتماماً من الربح، وهي معرفة العوائل، والتعارف مع المستطرقات منهن، وبالخصوص الطالبات اللاتي يبحثن عن فرص.

غفر الله لحاج محسن بدا يسيل لعابه، وكاد يجن على إقامة مثل هكذا مشروع. حتى إني بدأت أنظر الى حركة ما تحت بنطاله، تشيع بعمق رغبته.

وأخذت بيده، الى بيت بشرى وزوجها الأمرد القواد، وعندما نظر لجيوبنا عامرة؛ لم يتمالك نفسه حتى سحبنا إلى الداخل.

فكان حاج محسن وبشرى منشغلان بالتعبير عن همهما الحميمي، وكنت أنا منشغلٌ بالأمرد القواد؛ ثأراً بطريقة أخرى.

(٣٨)

الحيف الذي وقع عليّ من أقرب الناس إليّ، ولّد شهوة الانتقام، وهي ذات الازدواجية التي نقع بها جميعاً؛ مقارعة الظلم بالظلم.

أغراني التمكن من الاطاحة بالخصوم، ولا أقبل بالمثل، ما لم أرد الصاع بصاعين.. أعرف أنها ليست معياراً للرجولة.. لكني بدأت أصدق كلام البلطجية، وشقاوات المحلة: "الضربة التي لم تكسرك تقويك".

أنا أقوى بكثير من ذي قبل، لم يكن حاج محسن هو السبب، بل معرفتي للحياة، بدت أوضح وأنصع صورة من ذي قبل.

أمي المرأة المهضومة من أخويّ وزوجتيهما.. عمدت على رد الاعتبار لها، فالمزرعة التي أُخُذت منا عنوة، من دون قسمة شرعية لابد أن اعيدها.. أدرك جيداً أن هناك نظاماً صارماً في البلد، وقوانين تكسر الظهر، والعراق واحد من أشد الانظمة الشمولية، الذي ينص بين دفات قوانينه: الكل متهم حتى تثبت براءته؛ عكس كل الاعراف الدولية والمواثيق.

فاستنتجت أن للفرية والبهتان شارة، والبادي أظلم.

فقد التقيت منذ فترة ليست بالقصيرة، بـ(جبار بلطة) أحد اشقياء المحلة، في المطعم واستقبلته بحفاوة بالغة، وقدمت له ما لذ وطاب، كل ذلك بالمجان مقابل التعرف عليه، مع العلم بأني لم أكن صاحب الفضل عليه، وهو بالتالي

يأكل ويشرب، ويمسح يديـه بالحـائط. فالحـاج فيـروز يتحاشـاه قـدر الامكـان؛ إلا أني احسسته بأنه محترم، وذو شأن، وله منا السمع والطاعة.

وجـاء اليـوم لاسـتغلاله لمشـروعي بالانتقـام مـن أخـويّ، فالرجـل ابـدى استعداده مقروناً بالامتنان، وهو لم يشترط عليّ أجـراً معينـاً، ولـم يطالـب بنسبة. لكني وفرت عليه هذه التعاقدات بإلزام نفسي بوليمة كبيرة، مع ما يرغب بـه مـن مشروب، وفي أي ملهى أو بار يختاره هو.

قاطعه سامي الـذي لـم يـتعلم السـكوت: بـالطبع تأخـذه الـى ملهـى؛ إلا إذا كنت ناوياً أن تأخذه لزيارة أولياء الله الصالحين، أو قبور المسلمين.

وكالعادة لم يلتفت إليه، أو يعقب، غير نظـرات إصـغار وتحقيـر. واسـتأنف القول: ذهبنا معاً لبيت أخي حازم، فما كان ليستقبلني لـولا أن رأى جبـار بلطـة.. فأجلسنا في غرفة الاستقبال، وقبل خوض أي حديث، طلبنا منه ان يأتي بقاسـم. وكانت جلسة سمر جميلـة، تكلـم الصـمت أكثـر مـن كلامنـا، فخرجـت بـألف دينار، نصفه مقدماً والنصف الآخر بعد ثلاثة أشهر، شريطة التنازل كتابياً عن ايـة حقوق تخص المزرعة.. لكني أمليت عليهما شروطي بصـيغة أفضـل، بـأن يكتبـا بذلك كتاب تنازل عند كاتب عدل عن ميراثهما في البيـت الكبيـر.. وكـان ثمـة جدال حول حقهم وحق اطفالهم. فامتنعت عـن أي تفـاوض بهـذا الصـدد، ولـم اكتف بعد، فقد اشترطت عليهما أن أية مشكلة تتعرض لها عـائلتي، وأعنـي بهـا أمي وأخي الصغير وشقيقتي، من أفراح وأتراح، وأقـدار ـ لا سـمح الله ـ فعليهمـا المساهمة بالجزء الاكبر.

اعلم أنها ليست برجولة، وربما تسجل في قائمة الدونية؛ لكنني خرجت راضياً عن نفسي، وذا أهم.

(٣٩)

ما اختلف اللصوص فيما بينهم إلا وبانت خيوط الجريمة.

بدوت واثق الخطى أعيث فساداً شرقاً وغرباً، أعيش يومي ولو على حساب الكل.

فاجأني جبار بلطة وقد قرر، ألا يتركني وشأني، وهو يتحسس أنه سبب رئيس، بالحصول على هذا المبلغ الألف دينار المجتزئ، فطلب مني النصف. وهي مساومة غير عادلة ولا مقبولة.. فحاولت التفاوض معه، لكن من دون جدوى، لكنني كالعادة لم آيس من وجود حل بديل؛ أقلها يرضي غروري.. لكنه بدا يهددني في مكان عملي، ويتردد في اليوم مرة أو مرتين.

فأملته على مبلغ الخمسمائة المتبقية، لكنه أبى إلا أن يأخذ حصته من الدفعة الأولى، وتعذرت له، بأنها بحوزة أمي، وقد استنفذتها بالكامل، كسوة للأطفال، ولوازم البيت الضرورية؛ فصم اذنيه ولم يسمع إلا صوت نفسه.

فعكفت على فكرة محكمة التدبير، وطبختها على نار هادئة، بعد ان مخمختها جيداً. وطرحتها على حاج محسن بعد ان شحنته بأسلوب سحري قلت له:" إنَّ يوماً سيأتي عليكم، يشارككم فيه جبار بلطة بحصة بالمطعم؛ ما زال لم يجد رادعاً".

فأخافه الكلام، وهو مصدق لكل كلمة فيه، كيف وبلطة اخذت رجله تجرٌّ على المطعم، ومع شلة فاسدة مجتمعة من حوله، تعتاش على صيته وحسه.. وصار يأمر ويجاب على الفور، وبدون تردد ـ هكذا اطحت به ـ ووعدته بأن التدبير عليّ، ما عليه غير المساندة والتأييد؛ وشرحت له خطتي كاملة.

فبدا حاج محسن سارحاً متردداً، في اتخاذ مثل هكذا قرار خطير، وبدا خائفاً من عواقبه، على الرغم من علاقاته الموسعة، لكنه آثر الاحتذاء بسياسة أبيه المشهورة: "ابعد عن الشر وغني له".

فوعدني أن يحدث أباه بذلك، ويرى رأيه.

قلت في نفسي ذهبت جهودي أدراج الرياح، فالأمر يبدو أنه سيتأخر كثيراً؛ ونرجع للإجابة ذاتها.

وزاد بلطة تهديداً، فقد ترك على عتبة بيتنا، زجاجة مليئة بالبنزين، مع علبة كبريت؛ إشارة للتهديد بالحرق.. فشانت عليّ وكأني لطمت بصفعة قاسية على الوجه. وضاقت الخيارات أمامي، إلا الخيارات الانتقامية، لكني أدرك أنه خيار خطير النتائج، وخيم العواقب؛ كمن يصب الزيت على النار.

في حين أن أي تنازل، أو تفاوض على حقي، هي ثلمة كبيرة بحق رجولتي، فأعطيته الاذن الطرشة، وأنا متحسب لردود فعله، التي ستقتصر بشكل من الاشكال على إرسال فردين من عصابته، واعتراضي في منازلة غير متكافئة.. وكان حدسي في محله، وتوقعاتي صائبة إلى حد ما، فقد رأيت شخصين من

اتباعه يحثون الخطى ورائي؛ فقلت في نفسي تلقّى الموت أفضل من الانبطاح له.. فوقفت منتظراً، وقد اخترت موقعاً مكتظاً بالمارة. فتقدم أحدهم إليّ، وكان بمتناول ضربتي، لكنه بدا لي وديعاً مسالماً؛ لم يأت لغرض العراك. وبالتأكيد فقد كان مرسال سوء ونذير شؤم، فأخبرني: أنك بخير ما إن تدفع المبلغ، لمدة أقصاها يومان؛ أو أنَّ واحدة من التوأم هي من تدفع الحساب.

(٤٠)

ليس ثمة شبه بين الذكورة والرجولة، فكم من ذكر لا يُذكر في مجالس الرجال.

شعرت إن القضية باتت قضية شرف، ورجولتي باتت على المحك.. لا أشك للحظة بأن تاريخ جبار بلطة حافل بالدونية؛ وكلها موصومة بالعار والنقيصة.

كانت أختاي التوأم ملاكين طاهرين، أجمل ما خلقه الرب في عيني، وأفضل ميراث خلّفه أبي، ما زالتا في الثالثة عشرة من العمر، هذه السنة الأولى لهما في المتوسطة، مسرورتان في ملابسهما الجديدة، وحقيبتا المدرسة، ومحفظتا الاقلام، وهما يجلدان الكتب الجديدة بأوراق ملونة. وكان أخي عمر الصغير يشاكسهما وهو يخفي كتاباً ويظهر آخر؛ حتى امتزجتا وجهاهما بالغضب والسرور في آن واحد.

وأنـا أتحـرّق، وفـي داخلـي غـيظ وألـم، فـأي زنـيم يلطـخ البـراءة بالـدم، واقسمت ان لا ابقي له باقية؛ ولا يثني عزمي عنه إلا الموت.

استحيت وأنا استنجد السماء، حتى هذه الساعة العصيبة التـي أمـرُّ بهـا، فمـا يزال حلقي وعقلي لم يطهـرا بعـد مـن المشـروب.. ولا غـرو إن كـل جـوارحي واحـدة أقـذر مـن الأخـرى.. فـان طهـرت مـن الخمـر، فلـم اطهـر مـن الزنـا، خاصةً بعدما كسبت سـهام بنـت الحـاج عـامر المقـاول؛ ووثقـت علاقتـي معهـا بأواصر المحبة.

سامي وثب من مكانه قائلاً: لكنك لم تخبرنا بقصتها.

باسم ضاحكاً: لأنها طلبت مني الحفاظ على السرية.

يحيى متهكماً: والنعم منك ومن سريتك.

وسام مترقباً النهاية أكثر من غيره فصاح به: أكمل.

باسم، باختصار: الحمد لله أنها انتهت بطريقة ما.

وأبى ان يذكر أية تفاصيل، حتـى تبـادر للـذهن بأنهـا حُلـت بشـكل ودي؛ كحلِّ تسوية.

لكن إلحاح وسام على معرفة النهايـة ولـو تلميحـاً، قـد يسـاعد بشـكل مـن الاشكال للتكهن بمدى بشاعة الذنب أو سطحيته.

فلمّح باسم، على أنه تناقلـت أخبـار، بـدهس جبـار بلطـة بسـيارة مجهولـة، ورميه في النهر، وشاع غير ذلك: بأن للحكومة يداً في تصفية هولاء الشـقاوات ـ الفتوات ـ بشكل ممنهج؛ طال الكثير منهم بين قتل وسجن.

لكن مشاغبة سامي أثارت نوبة من الشكوك بعد ان سأله: كم عمر التوأم الآن.؟

فأثار غضبه، وللمرة الأولى، ان يتحامل عليه بالسلاح وهو يزبد ويرعد: إياك وذكر سيرة التوأم على لسانك مرة ثانية؛ فأقتلك ولا أبالي.

سامي غير مهتم له، ولم يعره أدنى أهمية، ورجع يناكفه: أقتل بلطة الذي..

فقاطعه باسم بنشوة ورجولة: وما أدراك.!!

* *

ذنب النجاة

(٤١)

قد يكون "الاعتراف بالذنب فضيلة".. لكن أي نوع من الـذنوب؛ لا أحد يود أن يعرف.!

فهناك ذنوب مصدر فخار وتباهٍ، ولو أُتيحت له الفرصة لما توانى من تكرارها، وتطلع لها بكل رحابة، دون خوف أو خجل.

لم ينته باسم بعد، إلا وقد أخفى الكثير، وميّع الأكثر، وضلل بعضاً، وكذب ببعض.. كانت كل الوجوه تحملق به متسائلة: ان حكايته منقوصة، وليس بالإمكان اكمالها تحفظاً، وتجنباً للمساس المباشر طوراً آخر؛ والاحتكاك مع السلطة.

إلا وسام كان على قناعة تامة بأن حكاية باسم كانت مكتملة الجوانب، وان ما أخفاه كان مقروءاً وبيّناً.

وليس من السهل ان يصمت باسم وهو ينظر للعيون محملقة به، وقد علا الوجوه الشك والريبة، فقال:" أنا لست بأصدق منكم، ولكني بالتأكيد لست أكذبكم".. وهو بذا قطع عليهم شوطاً طويلاً من التفكير والتساؤلات.

سامي متفلسفاً: ليس من السهل ان نعد ذنوبنا؛ فربما أُسقِط بعضها من حسابات الالهة.

كان جمال يترصده كلمة بكلمة، وهو يستقبح قوله: الظاهر أنك تعبد أكثر من إله، وهذا ما يزيد ذنبك ذنباً.

سامي مصرٌ على المناورة: أنا أحترم رأيك، وما تعتقد؛ لكن ذلك لا يفرض عليّ ان أوافقك الرأي والمعتقد.

مسك وسام بزمام الامور من جديد، وعلى دست القيادة قال: نحن نقيّم الآخرين حسب اعترافاتهم، ليس من الضرورة ان نسبر غور اعماقهم، ونطلع على نزعاتهم، وما انطوت عليه أحلامهم وسرائرهم.

اعترضه يحيى: يفترض ان لا نقيّم احداً، المهم ان نسمع اعترافه، وهو من يقيم نفسه بنفسه.

استحسن وسام الفكرة، لكن ثمة هاجس يحاول التعبير عن نفسه، والإفصاح عن خطاياه تحت قياس انساني، ومعايير وجدانية، عساه يكون أقل ذنباً، فعقّب: فكرتك صائبة، إذا كان الشخص لا يؤمن بتقييم الآخرين، ويعتقدها نقصاً لكماله، أما إذا رأى غير ذلك، فالتقييم درجة لا يُبنى عليها اساس؛ ولا يُسقط عليها جزاء.

سامي مشككاً: أتعلم ان فكرة الاعتراف، هو عمل مسيحي مترسخ باعتقاداتهم، شريطة ان يكون أمام الأب الكاهن؛ ولا اعرف ان لك صلة بهذا الموضوع، لا من قريب أو من بعيد.

وسام مبتسما: بالتأكيد، ولكنـي اجتـر هـذه الفكـرة منـذ زمـن، اعـرف أنهـا مجـرد فكـرة لا تسـاوي شـيئاً أمـام الخطيئـة؛ لكنـي أؤسـس لشـيء أكبـر، ربمـا لاعتراف أممي بمظلومية الشعوب. ماذا لو استفدنا من أجهـزة كشـف الكـذب، المسـتخدمة لنـزع اعترافـات الجاسوسـية ومـا شـابه. وجئنـا بـرئيس كـل دولـة، ووجهنا له أسـئلة صـميمية تمـس واقـع البلـد وحقيقتـه المزيفـة ـ كانـت إشـارة صـريحة وواضـحة علـى رأس هـرم الحكومـة ـ لكنـه اكتفـى بـالقول؛ واللبيـب بالإشارة يفهم.

(٤٢)

تظل الشعوب مخدوعة وتبقى، ما يزال الخبز يعجن ويلات بيـد الحكومـة، ويوزع في بطاقة التموين.

يحيى الرواض يعـرب عـن حقيقتـه مبتـدئاً: إذا كنـتم تحبـون سـماع اعترافـي، فلربما كانت ذنوبي كلها لمم، على ما أظن نزق واستهتار كـأي شـاب بسـني، يملـك ما أملكه من محلات بيع وصياغة المجوهرات.. لكـن الـذنب الأكبـر مرفوعـاً لأبـي، وهو مـن شـاركني ذلـك، بـل وأكثـر بعـدما اصـرَّ علـيّ بـأن المقابـل هـو المخطـئ، وفهّمني ان لا قيمة للاعتذار أو طلب المغفرة، مازال الخصم معترفاً ببراءتك.

والحقيقة لم أكن بريئاً، وأنا أعرف ذنبي، وأقرُّ به أمام أعلـى هيئـة قضـائية، وأقبل الحكم، وأن أطاحوا برأسي أمام أعين الناس؛ فلا بأس فذا جزائي العادل.

لا يفوت الكاذب كذب الآخرين اعترضه باسم: هذا غير صحيح، فالرأس أهم من سائر الجسد.

لا يروق يحيى هذا الاعتراض، فعمد على تجاهله واستطرد: كنا في المعهد التقني الاداري، قسم الادارة وفي مجموعات متفرقة، لا نعرف بعضنا بعضاً، أنا واثنان من اصدقائي من مدينة العمارة في نفس المعهد، كل واحد منا في قسم مختلف.. كان القسم زاخراً بالطلبة والطالبات، لكني حذرٌ من إقامة أية علاقة ما لم تكن بعيدة عن الحرم الدراسي.. أعني أية علاقة مع الجنس اللطيف.

فكانت (سعاد) من أذكى وأجمل وأصعب البنات التي التقيتها في ذات القسم، ناهيك عن الحشمة والتدين، متكاملة في كل شيء، محببة لدى الجميع، تواقة لمعرفة الكل، ذواقة في كل حديث؛ كانت تشكل عقدة غيرة وحقد لكل بنات القسم والأقسام الأخرى، فضلا عن منى كل طالب.. لا أقول إلا أن سعاد ايقظت في داخلي الخلايا السرطانية المسبتة؛ وصرت خلاف كل الناس، أكافح سرطاني بسرطان.

لا تستغرب عندما أصف الوضع بالسرطان، فأنا لا أعرف تسمية تليق بالحب وتناسبه مثل السرطان، فكل العلاجات الكيميائية المبتكرة قد تحدُّ من انتشاره، لكنه يبقى إله الفتك. هكذا كانت سعاد.

نعم عرفتها عن كثب، كانت إجاباتها أبلغ من السؤال نفسه، إلا سؤال واحد تصكُّ أُذنيها عنده، هو سائل حب.. الحب كذبة، دوّنها من يحب التدوين

كتجارة، استطال به مبتغاه من شعراء الجاهلية. هكذا استرقت السمع لها ذات مرة؛ وهي تصف الحب.

وفي محفل آخر وآخر قالت: العشق نكتة تافهة، يمررها الاديب بين سطور ملطخة بالدم والعار، لم تتوقف إلا عند الملامسات الجسدية؛ نزولاً على رغبة المستهلك، والمتلقي المسكين.. (فكذبتها وصدّقتُ نفسي؛ وأنا على يقين إن مثلها لا يكذب).

تساءلت مع نفسي مرات كثيرة: (من وضعها في دربي قدري؛ بئساً).!

فقد شطحت بقدري، هو ذا السرطان الذي أخبركم عنه. ان يصل الحال إلى الكفر، ربما كل ذنوب الحرمان أصغر من أن ينظرُ لها الرب؛ إلا الظلم فأنه خطيئة كبرى، وساء سبيلا.

(٤٣)

إذا كان الوسيط ربيب حانة، فهل ترجو منه انقاذ هوى، واسعاف قلب..

يقولون:" الحكمة ضالة المؤمن" فما هي ضالة العاشق.؟!

سعاد، نعم سعاد هي ضالتي؛ وربما ضلالتي.

في قلبي ذكريات طاعنة بالفحش، انوء عن ذكرها، ولا أجد فيها الا سماجة خلق وفظاظة.. أحببتها حتى اعتقدت، هي المرأة الوحيدة في الكون.. تقاسيم الجسم مكون من فسيفساء غرائبي يشمل كل اطياف الجمال، وكأنها

كونٌ نأى بنفسه بعيداً عن تجاذب الأكوان وتصادمها.. منطِقها رسائل رئاسية مشذبة بأفضل الأقلام، تفوق قدرة المترجم على احتوائها.

وكانت مشكلتي بين دين وحب، وكلاهما لا يجتمعان تحت سقف واحد.. قد أكون متسرعاً جداً حدّ التهور إذا ما غامرت باعتراف ذليل، عما يختلج في قلبي نحوها.. إذا ما كانت هناك عدة مقدمات أهمها: استمالة الآخر ولو بشكل تعاطفي؛ أو استجدائي.

فغصتُ في وجدانيات السياب، ومسلّات القباني، وروحيات جبران، لأخطّ رسالة كلها روح، لكني وجدت في قلبي تعابير خام، واحساس خام، ربما البوح به أفضل، من أن ألتسن قول فلان وفلان.. فكتبت لها: أنا وما أملك لك، قلباً وقالباً. توقيع المحب الذي لا يكذب.

وأرسلتها بواسطة زميلتنا (نوار).

وكان الجواب سريعاً، أسرع حتى من الرسائل البرقية.

ـ أنت وما تملك لله. توقيع أختكم المصون التي تحترمكم كثيراً.

فطمعت بها وكتبت مجدداً: من أخوكم الذي يحبكم في الله، ويسعد في لقاكم.

فأجابت: الحب يا سيدي ضليل الشرف، فكن بصيراً بنفسك؛ سلمك الله.

وبلا إطالة ومماطلة، وخواطر زاعقة، وجراحات نازفة، كتبت لها: طلبنا ودكم بالأمس، واليوم نطلب قربكم؛ فعسانا أهلاً لذلك.

تأخر الرد كثيراً، لم يعتد المرسال ذلك، وبدت نوار تتخلف عن لقائي، وتكره مجابهتي. وكنت اطلع لها من كل مكان، لكن سرعان ما تختفي، فقلت عسى ان يكون المانع خيراً؛ وإن كنت متيقناً بأن لا خير بادٍ في الافق.

وبعد مداهمات مباغتة، وتوجيه مخبرين، حظيت بلقاء نوار، التي بدت خائفة نوعاً ما، أو أظنها تفتعل ذلك.. أخرجت من جيبي عشرة دنانير إضافة إلى ثلاثين ديناراً سابقات، فقد كلفتني كل رسالة عشرة دنانير مقدماً. لكن هذه المرة بدت عصامية، وامتنعت قائلة: وفّر نقودك لنفسك.

مستغرباً: ما الأمر.؟!

بصراحة مومس: لم تكن سعاد من تجيبك. فقد نهرتني منذ البداية، فلم أجد غير ان أفتعل ذلك؛ لأسحب بعض النقود.

(٤٤)

هل صنع بكم الحب ما صنع بي.. مستحيل.!

كانت إذا اجابت عن سؤال، اجابت بغنج ودلال، وإذا شرحت درساً ما بإسهاب غير ممل، وتلقائية، كانت أقرب لفهمي من شرح أفضل الاساتذة. في صوتها بحة شجية، أتمايل معها كمن يستمع لإطلال ناجي، حين تشدو بها أم كلثوم:" واثق الخطوة يمشي ملكا". فلا أوثق منها خطى ومسيراً وهدفاً.

وعندما تتكلم مع طالب زميل، أظنها تشرع بقتلي، مع سبق الاصرار والترصد.

وإذا ضحكت مع طالبة ما، ضحكتُ أنا بلا شعور كالبليد.. حتى فقدت الثقة بالنفس، محبط، جبان مواجهة، إتكلت على سمسار فاسد. أحبك الكلمة الأصعب التي لا أقوى على نطقها، ومجابهة من أحبها قلبي بجنون.

ربما كل ملامحي كانت ناطقة، إذا لم تكن صارخة، عيون قلبي متوهجة متوقدة تحرق حقولاً من الورد الندي، من الآمال، وشعر الغزل، وكلام الحب الذي لا ينتهي. تومض تشتعل كألعاب نارية، كلمة أُحبك بيافطة كبيرة ملونة.. لكنها لم تلتفت، ولا تفكر بأن تلتفت. هكذا دار الحديث مع أبي بكل تفاصيله.

فربّت على كتفي وحب تطميني: لكل مشكلة حل، فلا داء بلا دواء؛ ولكل عناء أجل.

لم يصبر سامي على مهزلة الحب، فهو الشخص الوحيد بينهم الذي لا يعرف الحب، ولا يطمئن له، وعنده مع النساء ألف مشكلة ومشكلة، فعقب: وانتهى أبوك إلى السحر وأعمال الشعوذة.

يحيى ضاحكاً: بل انتهى للعبث مع أمك.

سامي ساخراً: بداهة في الرد وابداع؛ الصبّي النجس.

علت الوجوه فرجة ابتسامة، إلا باسم كان يقهقه بعبط.

كظم يحيى غيظه، ليعيش نشوة الذكرى على أملِّ أمل.. لكنه استقتل للدفاع عن معتقده، خاصة ما يشوبه من نظرة اجحاف ومقت، وطعن بالطهارة.. انتصب كفه الايسر، ليضرب أنامل راحة كفه اليمنى قائلاً: نقطة نظام. ثم

استطرد: أتعلم ان ديننا كتابياً، ونحن أولى الديانات التي انبثقت منذ مهد الانسانية، فأدم وشيث ونوح وسام وابراهيم، إنتهاء بيحيى عليهم السلام كلهم انبياؤنا. ولنا كتب عبادية، وتعميد، وأشهرها: (كنز اربا). ونحن لا نختلف كثيرا، من حيث الصلاة والصوم والطهارات، وكثير من العبادات الأخرى؛ كالإيمان بالآخرة.

حاول وسام لملمة الموضوع بقوله: لا عليك بسامي، فهو يحاول المزاح؛ أكمل من حيث انتهيت.

لكن جمال اعترضه برجاء: أرجو ان تخبرنا اليسير عن دينك، لمعرفة حجم الذنب على اساسه.

تأمل يحيى وجه جمال وهو باسماً: ليس حب اطلاع، بقدر ما هو قياس للجرم، وتعنيفي عليه.. المهم يشير النص الرابع والستون من كتابنا:" من أتبع السحرة والمنجمين الدجالين، وآمن بهم يعذب في أحواض من الزمهرير". بينما أشار النص السابع عشر:" كل من زنى يذهب الى بيت العار". ولا نختلف كثيرا معكم بالتواصل مع الموتى بالثوابات كما تسمونها؛ تسمى عندنا (اللوفاني) ونحن من أفضل الأديان احتراماً وتقديساً للمرأة؛ فكل المواليد المندائين تسمى بأسماء امهاتهم (الملواشة).

اقتنص باسم الفرصة للنيل منه: سلم لي على الماما حياوي ـ فانه أراد بذلك إعادة ذكرى (ابو راغب الخباز) للحياة. فضحك الجميع.

(٤٥)

قد يفسد الإيمان أشياءً كثيرة قد لا تعوض، لكن ثمة مصلحة غيبية تبقى غامضة.

كنت متأكداً من كلام أبي لم يكن سوى حقنة مورفين، مجرد مهدئ، وان كان وقتياً، فهو يعمل على تجاوز الساعة الحرجة؛ حتى يجد سبل الانفراج.. وبما إن لا شيء يمكن ان يخرق المألوف، ويتجاوز المتعارف عليه؛ تظل كل الاعمال مقيدة بأحكام وقوانين.

حتى فاجأتني نوار في مكالمة هاتفية، اخبرتني فيها: أن سعاد تريد لقائي. قلبت كل الموازين رأسا على عقب. رأيت الدنيا مقبلة عليّ، احسست بأن حلمي صار حقيقة.. وكأن العوالم الغيبية التي دائماً ما أسميها بالغامضة، فتحت لي أبوابها، واستمعت إليّ بعد طول نداء. كم أنت كريم يا رب.

اليوم هو يوم عيدنا عيد الازدهار (دهفه هنينا) تجتمع به العوائل للتعميد، وتأدية بعض الطقوس، ولا يمكن التخلف عنه لأي ظرف. لكنني كسرت القاعدة؛ فلا عيد أجمل من لقاء سعادي.

كان الطريق من ميسان الى البصرة شاقاً ومملاً، بدأت أقاتل الدقائق والاميال، وانا أقود سيارتي بأقصى ما يمكن لأجمل لقاء.. حتى اعترضتني سيطرة تفتيش طارئة، كدت أن أدهس أحد جنود الانضباط. لكن الرجل لم يقصر، فقد عزم عليّ بضيافة خمس نجوم، ركل ولكمات وصفعات وضرب بالهراوة؛ ولا ضرب سعران لباسم.

باسم متهيئاً للسب: ابن الكلب.

استعارها سامي سريعا للمهاترة: تعني سعران.؟!

باسم برجاء: لا. لا. أرجوك؛ أكفنا الشر.

أراد يحيى ان يستأنف حكايته، فاعترضه جمال الذي كان ملماً ببعض طقوس الصابئة: أليس هذا العيد ما يسمى بعيد (ابو الروب).؟

باسم حملق بعينيه مستفهماً: ماذا.؟

أجابه وسام لما لوى جمال عن إجابته: ابو الروب لكثرة تناول الرز واللبن الرائب لشدة بياضهما.

فأعرب باسم عن سفاهته، الصفة اللصيقة به قائلاً: العرق المسيح أيضاً أبيض خالص.

استاء يحيى، لكنه لم يجد بداً من اكمال قصته، وهو يقول في نفسه: (ثمن النجاة ذنب معرفة مثل هكذا نماذج) مشيراً لباسم. ثم أكمل: تركني الانضباط، وأنا أعاني الأمرين، ندوب وكدمات وحدور زرقاء.. ما عدا وجهي البائس، كان سليماً إلا من بضعة صفعات. سمعت وقتها صوت رجل مدني، أظنه من الأمن أو جهاز الاستخبارات، قال لهم: اعفوا الوجه.

أما ذاك الذي كدت أدهسه، امتنع من الإذعان لأمره، وهو يقول: "العن ابو هالوجه الصبّي النجس".

باسم ساخراً: معروف من وجهك النحس.

قاطعه يحيى: بل لأن أوراقي الثبوتية كافة كانت بحوزتهم بعد ان قلبوا السيارة بالتفتيش، قطعة قطعة.

يعيد سامي الكرة من جديد ساخراً: سيماهم في وجوههم.

نظره يحيى بازورار عينيه، مترفعاً عن إجابته.. وعاد لحديثه، بعدما رأى الوجوه تنتظر المزيد: عدتُ للبيت صارخاً متأوهاً، من ألم الضرب والجراحات المبرحة من جهة، وألم اللقاء المتعثر من جهة أخرى، وذا أشد مرارة وأنكى.!

بدوت كجثمان مسجى بين يدي احبتي، أمي تدهن بعض الجراحات بالمراهم، وأبي يمسد بعض الحدور بماء الذهب.. وكنت كلما واتتني القوة، أطلُّ من نافذتي على السماء، أعاتب الغيب البعيد واعتذر، بذبول وخواء؛ أظن بأن ذنب النجاة كبير.!

توقعت أن لأبي اليد الطولى، في تذليل سبل الوصول إليها.. صفقت اخماساً بأسداس: أنه أبي، وعد أبي، نعم فعلها. سعاد تلك الفتاة الصليبة، لم تؤخذ إلا بالسحر، بقوة عفاريت الجن، بالعزائم الجلجلوتية الكبرى؛ شكراً لك يا أبّ.

جمال متهكماً ومستاءَ: إذاً أين أصبحت أحواض الزمهرير.؟

ضحك وسام باستخفاف: البشرية تعاقب بالنار، إلا الصابئة يعاقبون بالبرَدَ.

باسم مستغرباً: كلمة الزمهرير تعني البرد؛ يا أولاد ال.......... .

* *

عواقب الأعذار

(٤٦)

الحلم الذي يوقظك كابوس.. فكيف بمن يوقظه الجلاد.؟!

هكذا أبدى وسام استعداده، لخوض معركة الاعتراف، الأكبر من كل معركة، معركة الحياة بدأت قبل كل معركة.. كيف نعيش الحياة شراكة وأحراراً. هكذا كان يقول، وبالتأكيد فهو مَثَلي الأعلى وقتها.

أبي الذي لم أره طويلا، والذي اكتفى بي، فلا عيال غيري.. وكان دائماً ما يقول:" لم يكونوا الأبناء إلا أعداء، وجهد بلاء".

وكنت أحظى بمكانة جيدة عنده، لا تخلو من الدلال الحريص.. غير أني لم اسمعه يوماً يتألم لألم أحد، مهما كان قريباً منه، حتى جدتي التي لا اتذكر ملامحها كثيراً، إلا أني اذكر يوم وفاتها، فقد كان عزاءها كبيراً في الحي، حضره الكثير من رجالات الدولة ومثقفيها.. كان أبي جلداً صلباً، لا يضحك، لكني لم أره يبكي؛ كان يتمتع بقلب من حديد.

كان من الأساتذة القلائل في تدريس الفيزياء في الحي، وأظن ان قلبه على كثافة ما، أقل بكثير من كتلة نظامه العقلي، فلا ينجذب إلى شيء ما؛ إذا لم يخضع لقواعد ونظريات الفيزياء.

بدأ وسام الاعتراف، بعدما كان التصويت ان يخضع جمال للاعتراف، ولكن بما اننا بلد لا يؤمن بالتصويت، أرجأ اعترافه لوقت آخر. فخضع وسام صاحب الفكرة وهو بين متردد، وبين راغب، في أن يكسر حالة الخوف في نفسه.

كنت من عائلة مرموقة، أبٌ وجدٌّ وعمومة.. كان أبي مدرس فيزياء، مشكك لا يعتقد بالديانات، وإن أدحضت حجته، ذهب إلى أن الأديان مسؤولة عن تشريعات عبادية لا دخل لها بالمعاملات، والحياة العملية.. والدين والسياسة لا يجتمعان أبداً، كالحيّة والبطنج ـ على حد قوله.

ضحك جمال متهكماً: أيعرف أبوك أنَّ الحيّة تعيش متدثرة بأوراقه العطرية.

ضحك يحيى وسامي، إلا باسم الذي يكره إعطاء وجهاً لجمال، لما في نفسه عليه.. فلاحظ يحيى ذلك فسأله: أسمعت بهذا المثل سابقاً.؟

باسم بتعالٍ واهن: لم أسمع به، ولا أعرف البطنج.

فضحكوا جميعاً، إلا يحيى قال: كنت متأكداً من ذلك؛ هو النعناع البري.

عاد وسام ملخصاً ما فات من كلامه: لم أتحدث عن أبي للتعريف به، بل لأسلسل الأحداث، وما أخذت من فكره، وما أنفرض عليّ.. وتابع حديثه، بعد أن تفحّص الوجوه: الأمور التي يتحدث بها أبي مع ثلة من أصدقائه، هي ذات الحديث الذي يعبر عنه دائماً، مع أمي وأجدادي وعمومتي، حتى في أغلب

تصرفاته.. فلا يُسأل أي سؤال الا أجاب بجواب ملتوٍ طويل، أوله علم، وآخره كفر. وكان جدي دائماً ما يوبخه بأدب، بقوله:" صمت دهراً ونطق كفرا".

حتى بدا الكل يتحاشاه.. فإذا ما وجد أمي تقرأ القران، كشف عن إمكانياته العلمية والأدبية، وقال لها: أتعرفين تفسير هذه الآية علمياً، وساق لها الأمثال، والنظريات العلمية.. حتى تقول له وجهاً لوجه: يا ليت أقوالك مثل أعمالك. فيضحك حدَّ التمادي والنزق.. وترجع أمي مشيدة به، معربة عن حبها الأزلي له: أتعلم لِمَ أحبك.؟ وتجيب نفسها بنفسها، دون أن يبدي أبي أية رغبة، أو يتطلع لإجابة ما، وكأنه يخبرها مسبقاً: لأنك إنسانٌ خلوق؛ وإنْ لم تكن متديّناَ.

(٤٧)

إذا كان إثمُنا الصغير قياساً بآثام وجرائم الحكومات والطواغيت، عقوبته الإعدام؛ فما عقوبة هؤلاء.؟!

كنت أحد أهم ثقات المجموعة، والمعتمد عليه بنقل الوثائق والبيانات والكتب إلى أفراد المجموعة، بعد أن اشتّدت الرقابة عليهم، والمتابعة من قبل رجالات الأمن، بعد أحداث اضطرابات وصدامات بين الحزب الشيوعي وحزب البعث، أبان ثورة ١٩٦٨م رغم ما بينهما من مشتركات؛ كان الصراع حول السلطة صراعاً مستميتاً.

وأخيراً وقعت بيد أحد مخبريهم، الذي سلمني تسليم يد إلى محققي الأمن. لم أك وقتها أبلغ الاثني عشر عاماً بعد.. كان المحقق زاهد النايف - عرفت اسمه مؤخراً - والحق إن افعاله تشبه اسمه، فهو زاهد بالدين والانسانية والآخرة، لا يهمه سوى إداء واجبه بأقذر الأساليب المتاحة، فضلاً عن شكله الدميم.. ربما ما حكاه سامي عن العوالم السفلية؛ أفضل منه حالاً وشكلاً.

اختصر عليّ الطريق منذ البداية بقوله: أنت شريف أبن شريف أبن شريفة؛ وإقلبها بجاروف عريض.

ضحك سامي حد القيء. وضحكوا لضحكته البحة: فعلاً معظم رجال التحقيق الفاظهم نابية وسوقية إلى أقصى حدٍّ - هكذا أعرب يحيى عن مرارة.

سامي أعاد ضحكته بذات البّحة المسعورة، وهو يقول ليحيى: أنت دخلت الانضباط العسكري، فغسلوك وكفنوك، فكيف بضباط الأمن.؟!

وتعالت الضحكة مجدداً، خاصة إنّ حكاية الانضباط، ما تزال خضراء لم تجف بعد. ما أشعر يحيى بالألم والمرارة من ذكراهم، لكنه لم يجد بداً من مشاركة أصدقائه الضحكة للترويح ليس إلا؛ وأن كان كل واحد فيهم يسخر من نفسه ويضحك عبثاً.

وثب باسم لوسام: أكمل رحمكم الله، وبيده زجاجة مشروب جديدة، بدا يكرع منها، وهو يصيح: بصحتكم جميعاً، إلا واحداً في قلبي.

عارضه سامي ساخراً: أكمل أكمل، واكتب فينا تقريراً حزبياً؛ واكسر رقابنا.

استاء باسم من هذه التهمة، التي باتت تعكر عليه صفو مزاجه، وهو يعرف ما خطورة وتبعات هذه التهمة، التي ـ دائماً ـ ما ينعتها بالفجة والممجوجة، التي تريد إسقاطه في نظر زملائه؛ فأجابه بحنق، قائلاً: لو كانت أمك شريفة ماذا صنعت.

فنهى وسام سامي، وحذره من خوض مثل هذه الاتهامات الشنيعة بحق زميل لهم، تربطهم به أواصر الصداقة والعشرة والزاد والملح ـ على حد قوله.

ثم عاب باسم على كرع المشروب، من رأس الزجاجة، ونهاه عن ذلك، بقوله: لا تعلم في دبر من كان رأس الزجاجة.!

فتعالت ضحكة جمال، الذي سرعان ما عرف مغزى ذلك؛ وتبعه يحيى ضاحكاً.

(٤٨)

هناك أكثر من أداة للذنب، لكن العقوبة تبقى واحدة الألم مهما اختلفت الأساليب.

يُقال: أُشير على الحمير باتباع حمار منهم، فرفضوا جميعهم ذلك، بزعمهم:" نحن اعرف بإمكانية الحمار". هكذا بدأ وسام تتمة حكايته. واستطرد

قائلاً: والحمير مثلنا رضوا ورضخوا رغم معرفتهم بمن يمثلهم. هكذا كان أبي يصف حال الامة الخانعة.

أول لقاء مأساوي سُجل في ذاكرتي وفي حافظةٍ منه لا تقبل النسيان.. ربما كل لوثة في تاريخ الانسان، تظل صامدة ضد أعتى موجات الزهايمر، على البقاء إلى أمد بعيد.

كان المُحقق زاهد النايف، الذي لا أعرف رتبته، لكونه مدنياً، إلا أن كل الحاشية، كانت تحت طوعه وأمرته، ينادونه بكلمة (سيدي). وعلى الفور حفظت هذه الكلمة، فدأبت على استخدامها بمناسبة ومن غير مناسبة، معه أو مع غيره. هكذا كان الخوف يدافع عن نفسه بأدب محض.

كان تحت يده تقرير مفصّل، عني وعن عائلتي، فبدأ بسؤالي: اسمك.؟

ـ بدر منعوت، لا، وسام بدر.. منـ..عوت.

وهو يطالع الوجوه من حوله، قال: بقر ملعون.

قلت في نفسي:" لعنة الله عليك، أنا أشرف من عشيرتك".

نظر إليَّ شزراً: ما رأيك.؟

أجبته بذكاء: ألف لعنة.

فردّ عليّ بتشنج: عليك وعلى (الخلّفوك) بغل ابن البغل.

وفي نفسي جولات من الألم: عدنا لذكر الحمار، لو يعلم صلة القربى من أهله؛ لما تكلم.

فنهرني مستشاطاً غضباً: بم تهمهم؛ (دماغ سز).

لم أجد غير كلمة سيدي أناور بها: سيدي.. سيدي..

ضحكوا جميعاً.. ففرحت، أنا الطفل الذي أضحك رجال الأمن الواجمين.. الوجوه العبوسة التي لا تقصها المنشار.. فاستعطفتهم ليس تصنعاً، إنما واقع حال، وفي لحظة حنق وحقد على أبي قلت: أريد أمي.

لم يتوان لحظة بالرد عليّ: .... أمك أبن القحبة.

فصدقته القول: الحكومة والأمن أعلم بذلك، هكذا كانت نفسي اللوامة، نزاعة للحقد على كل من حولي، أهلي، ورجالات الحكومة، والدنيا بأسرها.

فنده عليّ متسائلاً ومستعيباً: أنت أهبل يا ول.

في نفسي تسبح الكلمات:″ وابن أهبل ـ لو كنت أقوى على نطقها؛ لكنها حشرجت في الصدر.

وفي كل مرة يزداد غضبه، خاصة عندما يجدني أنوء تحت وطأة الصمت.. فنطق أخيراً كلمة الفصل، عندما طلب من حاشيته: أريد زجاجة من المقاس الخاص.

وإذا بأحد الجلادين، يتناوش زجاجة كبيرة فارغة، وكأنها نخب نجاحه: هذا مقاس جديد يناسب مختلف الأعمار.

المحقق يلوي بوزه ككلب: إذا لم تجدوا أكبر منها، فضعوها في دبره من العقب.

صرخ سامي بتصنع: واويلاه.!

إلا أن باسماً تناوش زجاجة المشروب التي بين يديه وهو يتحسس عقبها، بهزج: يا ويلي على ذيلي.

فحملق به وسام مطيل النظر، وهو يعرف ما تنطوي عليه طبيعته السيئة: أخيراً اعترفت بذيلك.

باسم مبرراً ذلك: أليس أخوة عاد من يصفوننا بذلك ـ وهو ينظر إلى جمال. في اشارة الى معتقدات تضليل بين الفرق الاسلامية.

حتى تحولت الوجوه اتجاهه بشكل عفوي، تنتظر الرد، لكن جمال أبى ترفعاً من ملاحاته؛ وألتزم السكوت.

(٤٩)

لم أترك بصمةً، أجمل من تلك البصمة، التي تعاهدت بها على عدم مزاولة أي عمل سياسي، واتفقت مع نفسي ان لا أقوم بأيّ عمل تحريضي، وعاهدتها أنْ لا أركن لدين ما حييت.

ردة فعل طبيعية جداً، بعد زيارة غرف التعذيب المروعة، إلى ممرات التشنيع والاهانات، وسباب ما وراء الكواليس.

قاطع جمال استرساله: ربما في الدين النجاة.

عقّب وسام ببداهة: أعلم أنَّ في الصدق النجاة، وليس في الدين؛ فكلنا كاذبون لأتفه الأسباب.

فغالطه جمال متعمداً: عسى أنْ يكون ما تقوله صحيحاً ـ إشارة للاعتراف ـ

عاد وسام برزانته المعهودة: ربما هو الصدق الوحيد في حياتي.

استوقفه باسم، الذي يرى ضرورة الدفاع عن الدين، وإن لم يكن بالضرورة ملتزماً، متسائلاً: الذنب ذنب أبيك الملحد، لا ذنب الدين والتدين؛ مع احترامي إليك.

شرّع وسام في بداية جديدة أراد بها تبرئة ساحة أبيه، دون أن يلتفت الى كلام باسم، الذي لا يعده أكثر من سفيه: أولاً أن أبي لم يكن ملحداً، وإن كان اشتراكياً، يؤمن بأن الدين شيء شخصي يخص الإنسان في ذاته، لا يخص المجتمع.

حاول باسم أن يقاطعه.. لكنه أسكته: أسمح لي أن أُكمِل. وبعد ذلك استمع لتعقيبك.. فسكت باسم. واستأنف وسام كلامه: قال أبي لأمي من بين أحاديث السمر الطوال، حيث كنت استرق السمع لهما باستمرار، خاصة حكايات المداعبات التي تنوّر مخيلتي، وترفع من معنوياتي، وتجيب عن أكثر من سؤال غيرة يدبّ في نفسي، أهمها خلوتهما مع بعض دوني، وحبُّ أمي الكبير إليه وتقبيله بين الفينة والأخرى، كلما أختلت به.. وأبي الذي عزف عن تدليلي وملاعبتي، الذي كنت اتوق لحضنه وحنانه دون جدوى، إلا ذاك الحنان البارد الباهت، الذي لا يشبع نهماً ولا يغني طلباً.. كان يشاطر أمي الحنان الفاره وروحه المرحة، وينام بين أحضانها بطلب منها، أو من دون طلب.. قال

لها مرة: أفضل ما كُلفت باكتشافه مغالطات القرآن تكليفاً حزبياً للردّ على الاسلاميين الذين بدأوا يُكفّرون الحزب.. فأخذت أدقق في كل آية وسورة منه، وأرجع إلى كتب التفسير، فرأيته أكبر من معجزة، وأعظم من كل فكر، وهو جامع لكلِّ العلوم في حقبة من الزمن، كادت أن تكون مثل هذه العلوم معدومة، خاصة وأنها انطلقت من مجاهل الصحراء البيئة القاسية، ذي الاعراف المقيتة، يعبدون وقتها من بين ما يعبدون وثناً من تمر، متى ما جاعوا أكلوه.. تصوري أن ربّاً يؤكل، وآخر تبول عليه الثعالب والدواب. تتحول الى ثورة تمدن حقيقية وعلوم في شتى المجالات، كلها بفضل القرآن.. فكيف لمثلي الذي أفنى عمره بالبحث في العلوم الطبيعية، أن يغالط مخيلة إله عالم بكل هذه المساحات، والفسحات الكونية غير المعلومة ولا محددة بالزمكان.

باسم بازدراء: وما جدوى علمه، وهو لا يؤمن.؟

وسام متأهبٌ للرد: كجدوى إيمانك وأنت سكيّر ولوطي....

(٥٠)

ليس من الضروري أن تشاهد العالم من منظارك، فربما منظارهم أقرب للحدث، مع ذلك أبحث عن زاوية ميتة لعلَّ بها بعض الأحياء المفقودين.

كانت دروس أبي بالفيزياء شيقة جداً، حتى أنها لا تعدو أن تكون إلا بجمال قصص ألف ليلة وليلة وعوالمها الاساطيرية، وسردها الحكائي المميز.

كنت أكثر المتابعين لها، والعاشقين سماعها، مع أني لم أبلغ مرحلة المتوسطة بعد، وكنت أحفظها عن ظهر قلب.. فدائماً ما أصعد للسطح ليلاً، وأطالع نشرة النجوم، وزينة الكواكب التي تشكل عوالماً ناطقة: الثريا واخواتها السبع الضائعات.. الدب القطبي وهو يترقب سمك السلمون في جريان النهر المتجمد الضفتين.. الميزان الكبير الذي تختلف كفتاه، وهو ينبه إلى أنَّ العدالة الروحية، أكبر بكثير من المعادلات الحسابية.. وأوزان النية مهما كانت خفيفة إلا أنها أثقل بكثير من نصائح مزاجية.

وكانت واحدة من بنات أعمامي تكبرني بثلاث سنين، كانت ترصدني كلما صعدت للسطح، تصعد معي للتأمل في خلوة منفرجة للسماء، لكنها تتأمل فنجاناً مقلوباً.. كنت أحكي لها كل ما سمعته من أبي، وأضيف عليه نكهة من هواجسي المتوقدة، برفض لكل قيد، وكل ما يسمى فرضية.. فالكون أوسع من أن تقيّده أفكار نتاج رغبة أو هوى ما.. وتبقى مشكلة العقل البشري مشكلة فضفاضة، فهو أكبر من الحلم، وأوسع من مساحات الخيلاء؛ على الرغم من صغر جرمه، إلا أنهُ يطوي أكواناً مازالت بكراً بعد.!

قالت: ماذا لو أسقطك دوران الأرض فوقي، او أسقطني فوقك، سقوطاً تلقائياً.؟

قلت: لا أفهم ـ وأنا أعرف كل حكايات المداعبة من الألف إلى الياء.

قالت بيأس: إذاً أنت لا تعرف فيزياء الحب.

نعم فيزياء الحب معقدة بشكل كبير، وأعقد من كل الدروس والنظريات الطويلة المملة، التي يطول شرحها ويزداد تعقيدها بين منظّر وآخر.. هذا ما تعلمته عندما رأيت (جنان) أدركت أن المرأة جرم سماوي منفلت من النظام؛ يصعب تعقبها، والتكهن في نواياها.

قاطعه يحيى مستغرباً: إذا لم تكن جنان بنت عمك، فيبدو أنك اخترقت التسلسل، وقفزت فوق الترتيب، طفرة تتجاوز الموروث.

ـ ممكن لكن ثمة استرجاعات لمواقف عابرة، سأتطرق لها عند الضرورة ـ هكذا أجاب وسام.

وهو يطالع الوجوه التي تأمل المزيد من التفصيل، بعد أن كان يفضل المرور سريعاً، للوصول الى حبكة القصة ومكمن القصد ـ الذنب ـ الذي تتراءى له أفلاك عواقبه بلا منظار؛ ربما هي عواقب الأعذار العاجزة عن تبرير خطيئة، وتمرير معيبة.

* *

عشوائية الشعور

(٥١)

لا أحد يفرض على عقلك شيئاً، ما لم تكن أذناك أرهف من مشاعرك.

عشت في بيت العائلة الكبير، بعد وفاة أبي متأثراً بالتعذيب.. وكان جدِّي لا يقبل لأي أحد مهما كان شأنه، أن ينال من أبي، أو يتعرّض له بسوء، وكثيراً ما كنت أسمعه يقول مردداً عن لسان أبي:" أتوقع أن كل شيء منضبط في الكون، وتحت السيطرة". وكان جدي يعاضد هذا القول بقوله: وأنا لا أشكك البتة فيما تتوقعه، على خلاف الكثير من العلماء، الذين رجحوا عشوائية الكون ـ وهذا القول هو سند حقيقي في إيمان أبي، وصك غفران.

عُذِب أبي بطريقة وحشية، حتى بعد إنضواء الحزب الشيوعي في الجبهة الوطنية، مع البعث عام ١٩٧٣م وهو يعاني من كسور، وخلع في ذراعيه، لكثرة تعليقه بالحبال، فضلا عن آلام حادّة في الرأس، لما تعرض له من ضرب، خاصة أنه اشتهر بمناكفتهم، والاجهار في سبهم في أي محفل كان.

وكان دائماً ما يقول لهم: يُفترض بكم أن تعيشوا بعالمٍ آخر، يساوي مقدار همجيتكم، بواحد على تسعة أصفار.

أخبرني (عمو جبار) أحد أقاربنا، ممن شاركِ أبي رحلة النضال: أن أباك تعرّض لمعجزة فيزيائية غريبة، فهو لم يشعر بألم التعذيب، على الرغم من تعرضه لكسور ورضوض وكدمات، إلا أنه لم يُشاهد يوماً وهو يبكي، أو يصرخ، أو حتى يتأوه؛ مما تسبب في جنون الجلّادين واستفزاز قواهم.

وبما أني الأبن الوحيد، الذي يفترض أن يرث كل شيء منه، اذ ورثت منه الإصرار العنيد، الإصرار السلبي.. فآمنت أول ما آمنت بالعشوائية، العشوائية التي كان أبي يحاربها بفكر.. إذ لجأت إليها مؤمناً بها، فالعشوائية هي من جلبت لنا الحكام الفاسدين، وجلبت الحروب، وكل المآسي القادمة في الطريق.. العشوائية بوصلة فلكية دائماً ما تشير الى الجنوب موطناً لها، جنوب العراق جنوب لبنان، جنوب السودان، جنوب افريقيا؛ مأساة.!

العشوائية هي من جعلتني انساناً تافهاً، لا أُبالي بالآخرين، لا أُحبّ كما يُحبّون؛ لا شيء في نظري يستحق التضحية، وليس لديّ أيّ اعتبار لأي شيء.

كان أبي وثلة معه، يؤكدون أنّ الوطن الحر، مصدر سعادة الشعوب.. يتمالكني الضحك، يخامرني شعور بالغثيان، شعوب تحت العبودية، لا تعرف استخدام الحرية، ولا تفكر بذلك؛ وهي لا تملك أدنى مقومات الاحرار.. إذا كانت الشعوب تكافح لأجل البقاء، فكيف يمكنها ان تحلم بالحرية.! كل

أفكار الرجعيين موت وسواد، حزنهم أسود، فرحهم أسود، قلوبهم سوداء، سبوراتهم سوداء، مثل أفكارهم؛ وحتى جنانهم صارت كئيبة ومملة ـ وهو يلوح لـ (جنان) حكايته الغامضة.

حبذا لو أخرجتنا من هذا الجو الكئيب. هكذا قاطعه سامي.

وأبدع باسم في تغيير الجو، بعد تقديم كأس خمر أبيض، بعد أن مزجه بالماء، وهو يضحك: هاك عرقاً ابيض؛ يجعل دنياك بيضاء.

يحيى مضيفاً: لعلك تحلق في عالم العشواء.

إلا جمال الذي أبدى استغرابه: لا أعرف لماذا تتوقف وتغيّر الموضوع عندما تصل الى جنان.

وسام معتذراً: لا.. لا، جنان هي حكايتي الكبرى، وذنبي الذي لا يُغتفر، وهي أول من جربت معها عشوائية الشعور.أهناك ثمة ربط، بين عشوائية الوجود، وعشوائية الشعور ـ يحيى متسائلاً.

وسام بهدوء آثم: الفكرة واحدة، مع اختلاف الطريقة.

(٥٢)

عندما لا تملك قفصاً، لا تفكر باصطياد العصافير..

على الرغم من حبِّي الكبير، وشغفي بالفيزياء، إلا أني كرهت أن أكون مدرساً لهذه المادة، التي قتلت أبي.. وكان معدلي يؤهلني للهندسة، فقبلت في

كلية الهندسة جامعة بغداد/ قسم الكهرباء، وهو اختصاص مثقل بالفيزياء.. لجأت مع مجموعة من أبناء المحافظات للقسم الداخلي، ومن ثم تعرفت على نخبة منهم، وكنا أربعة أنفار.. فكّرنا بالسكن في المدينة، بعيداً عن التقيد، والالتزام بقوانين الأقسام الداخلية، ودأباً وراء العشوائية.. سكنّا في شقة عائدة لرجل مسيحي، في الدور العلوي، وكان تحتها مطبعة (السلام) التي يبدو عليها معالم الكساد، بداية التقشف؛ بسبب قوانين الدولة الصارمة، على الكتّاب، والكتاب بشكل عام، وهي بداية لتقليص اعداد الصحف والمجلات نهاية ١٩٧٨م.

اشترط علينا صاحب الشّقة، الرجل المسيحي بعدم اصطحاب البنات للشقة نهائياً، وأن هناك رقابة صارمة تجرّم هذه الأعمال.. بينما كان وجهه يوحي بشيء آخر؛ كأنه يقول أرجعوا لي في هذا الأمر.

أما صاحب المطبعة الحاج (نوفل) قد كان من البغداديين الاقحاح، فكان له رأي آخر، فهو ممن يحب توظيف البنات ويفضلهم على الرجال، ويقول:" أنا من دعاة أنصار المرأة، وأؤمن إيماناً مطلقاً بحريتها.

فكنّ ثلاث بنات فوق سنّ العشرين، جميلات الوجوه نوعاً ما، الا ان اجسادهن تشي بأنوثة بالغة: (منى) الوحيدة من بينهن بكر رشيد.. أما (وفاء) فهي مطلّقة.. إلا (رشا) فهي متزوجة وأم ولد، وزوجها يعاني من خلل عضوي في القلب، يمنعه من مزاولة الأعمال الشاقة، بعد ان كان بناءً معروفاً، لكن شهرته لا تختلف كثيراً، عن السكيّر العربيد؛ وهو يكبرها بنحو عشرين عاماً.

ومن عشوائية الاسماء، ان تكون (وفاء) اسماً على غير مسمى، وهي تقول بالفم الملآن:" نذرت عمري وشبابي للحب المؤقت، لساعات النشوة، للسكر بالأحضان المليئة الدافئة؛ للحرية في اختيار عشيق الليلة، غير عشيق البارحة.

فكانت أول من حذفتها من حسابي، لأنها خاضعة تلقائياً بالمجون الرتيب؛ وأنا أفكر بصناعة العشوائية.. فكانت منى البنت البكر أكبر همي، بعد ان أعرضتُ جملة وتفصيلاً عن رشا، التي تعبر عن مجموعة عذابات، وتراكم محن ومحرومية.

فكانت أولى محاولاتي، إعتراض منى في إحدى الممرات الضيقة، في دهاليز المطبعة، وبشجاعة مدروسة دعوتها للعشاء في الشّقة.

حملقت فيّ طويلاً، وأنا اتأمل نظراتها الساحرة. أجابت برفض عفوي، وجاوزتني إلى غرفة صغيرة أشبه بالاستراحة.. فحاولت تتبعها، لكني سمعت صوت رشا المشحون بالسعال الشديد.. انسحبت وكلي أمل أن تغيّر رأيها وتعدل عن رفضها، وتتبعني إلى الشقة. وعدت أهيئ نفسي للتلاحم الاسطوري، والتراشق بالقبل، فمضى الليل مسرعاً، حتى أسلمت للكرى؛ بعد احتساء أكثر من مشروب، لا أعرفه بالاسم، إلا بالعلامة.

وتمدد على سريره وكأنه يستذكر الحالة التي مرَّ بها.. فاعترضه سامي الذي بدا لجوجاً: انهض، ما يزال الوقت مبكراً.

لكن وسام غطّ في نومٍ عميق.. حتى سكن صرير السرير؛ لكنّ أنّة أنفاسه كانت مسموعة وفاضحة.

(٥٣)

عيون الشّبكة التي تصيد السمكة، هي أبصر بكثير من عيون السمكة.

هي المرة الأولى التي أفكر فيها بالصيد، أو بالأحرى أفكر فيها بالأنثى.. وبما أني افتقد للمهارة وحنكة المناورة، عجزت أن اطيح بطريدتي (منى).. لا اخبركم كم أنا عاجز، فاخجل أن اقول استهلكت من الأماني، ما استهلكه ألف خليل، حتى استنفذت الكثير من الحيل معها.. لكنها كانت شامخة كالطود الأشم؛ صمّاء عن صوت الهوى وهزيع القُبل.

لا أخبركم كم صرتُ تافهاً وكاذباً وحقيراً، حدّ الضحالة.. فقد قالت وفاء في تقييمي:" أنت اكثرهم وضاعة".

هل تصدقون تقييم سيدة الماخور، كان تقييماً حكيماً.. بعدما تركتُ السهل المتاح المأمون الجانب، وركضت وراء ما لا يُرجى منه غير البؤس والنكد.

أقسم أن هدفي لم يكن تسجية جسد كسول على جسد بتول، ولا شغل قلبٍ ذوى في شغاف عليل.. لكنه ميّلٌ وقح، تصفية حسابات، تجرد من قيّم، لهاث وراء رهان شخصي.. حتى أنها قالت لي مرة تلو مرة:" أنت تناجز الخصم الخطأ، غيرك كان أشطر؛ وفشل".

الفشل الكلمة الوحيدة في قاموس العشوائية، مقدمة نجاح، وإنْ كنتُ استشعر هذه الكلمة بمفهومها المتداول.. لكني كنت أذكى من أن اتنازل أو

اتراجع في مناجزتي لها. وبدوت أكثر اصراراً من ذي قبل.. وهذه المرة رسمت هدفاً أحذو صوبه بروية، وخطى واثقة.. أنْ لا يكون أقل من ليلة عامرة، حتى تزهد الرغبة، وتعفَّ الشهوة وتكتفي.

عادت لتكرر الكلام ذاته، لكن بصيغة مختلفة: بدأت أتحرز عليك منك.!

انطوت هذه الكلمة على خطر ما، أو تهديد مبطن، إذا صحّتْ قراءتي لها.. حتى مللت القراءة، فكانت أطول من روايات (أجاثا كريستي) الغامضة، وأشد مللاً من كتب الاقتصاد، وكل الحسابات الطويلة، والأرقام المهولة، التي طالما انتهت إلى سرقات حكومية، ومافيا دولية، وعرّابين غسيل.

في النهاية أرفع راية الاستسلام، لفتاة تمتلك موهبة التحدي، خلاف كل مواهبي الطائشة والعبثية، التي لم تكن سوى سفسطة كلام، لا ترقى لمستوى الأفكار.

فعدت لوفاء خاتون التمس العذر، وأطلب السماح، وأرتقب منها ليلة عامرة بالضجيج، تحت وطأة المنشطات؛ لأُريها العشوائية المثلى.

سامي مستاءً: أظنك أخفيت الجزء الأكبر من القصة.

وسام بلا توانٍ: مثلما بترت أنت قصتك وظلت معلقة، وكذلك قصة باسم التي تحتاج إلى عشرات الاعترافات بعد.. ويحيى الذي لقف الجزء الأهم، وآثر الحسرة كاتماً لواعجه حتى الموت.. أنا لا اختلف كثيراً عنكم، لكنني في الوقت نفسه لا أهتم، ولا أكترث للخصوصيات التي يراها البعض مهمة.. فلا شيء أهم من تكفير الذنوب، والإفلات من العقاب.

وجد جمال الفرصة مؤاتية: كيف بمن يؤمن بالعشوائية، يؤمن بالعقاب؛ والعقاب جزءٌ لا يتجزأ من العدالة.

طأطئ وسام رأسه منكسراً، كأنه تعرّض إلى ضربة ما في اليافوخ.. وكانت الوجوه ترقب رداً يردع الخصم، وبعد هنيهة من الصمت والتفّكر، قال: شيءٌ نفسيٌ، تثيرهُ العشوائية مثل الصدفة، ومثل الحظ؛ كإيماني باصطفاء الطبيعة.

(٥٤)

قد يكون الحلال والحرام، والنصيحة والتضحية، والكثير من المسمّيات الرنّانة؛ مجرد فوضى منظّمة.

أوعز قائد عمليات شرق دجلة إلى قسم استخبارات القيادة، بالتكفل بمهمة تزويد العوائل النازحة من عمق الهور ـ الأرض المحرمة ـ بصهريج الماء العذب في قصبة مريبي والجمشة، وبعض القصبات الأخرى.. بعد لقاء أجراه مع العوائل للاطلاع على أوضاعهم، وإيجاد الحلول المناسبة.. وإن كان المسعى مبطناً، ويضمر تواصل قسم الاستخبارات مع العوائل المهجّرة، لتحري المعلومات، التي من شأنها خدمة الجهد الاستخباري.

ولما أستشف أن لا جدوى تُرجى من هذه العوائل، التي كانت معظمها من النساء والاطفال وبعض العجائز.. كلّف وحدة زوارق الأهوار، بإرسال عجلة حوضية ـ تانكر ماء ـ بشكل يومي لسد حاجتهم من ماء الشرب.

كان سائق التانكر عريف (فليح)، الذي يتصف باسفل وأسخف الصفات، وهو من أصدقاء سامي المقربين.. جلب وزة مشوية، ودلف إلى ثكنة أفراد القلم، بتباهٍ زائف: عليّ الوزّة، وعليكم المشروب.

استقبله سامي بالأحضان، الا باسم قفز من مكانه: وزَّة مسروقة.؟

سامي متلاعباً بتحاذق: لا، مسلوقة.

فليّح بافتخار: لا هذا ولا ذاك، بل مشوية، وحلال وبالذمة.

وسام ساخراً: ما شاء الله على هذه الذمة وهذه الحرمة.!

يحيى متلاعباً: بما أنها حلال، فلا يجوز إفسادها بالمشروب.

رمقه فليح بازورار عينيه: من مهازل الدنيا أن يشرّع الصبّي للمسلم.

تداخل وسام بحكم سلطته، وقوة شخصيته، رادعاً: إذا كان المسلم حرامياً وخماراً وفاسداً وانتهازياً؛ فماذا ترك للكفرة والمشركين.

ألتفت فليح إلى سامي متسائلاً: الانتهازي، مع الحكومة أم ضدها.؟

أعاد وسام عليه القول: الانتهازي الذي يستغل مأساة الناس، مثلما تفعل أنت، تأخذ الماء من الإسالة وتبيعه على العوائل، وأحياناً تقايضه بسمكة مشوية، أو وزّة، أو دهن حر، وخبز تنور، وخبز سياح.

ضحك فليّح، قائلاً: لا وربك. كم أنا مفضوح؛ الظاهر أن كل الفوج عنده الخبر.

سامي هازجاً: منذ متى وأنت تخاف الكلام.؟ خاصةً وأنت حسن النية، سليم الطوية، (صاحب الوزة المشوية) وزجاجة الخمرية.

بينما كانت الايادي تضرب بقوة، جسد الوزة المسكينة، التي لا أحد يعرف مصدرها.. تنحى جمال جانباً. فاستدار عليه فليّح منادياً: تعال لا يفوتك العشاء، أقسم بكل المقدسات، إنها حلال وبنت حلال.

ضحكوا وهم يزدردون اللحم الصلب بقوة.. وكان سامي الذي أمضى بعض خدمته العسكرية في البصرة، وهو يعرف القليل من لهجتها، وهو يملخ لحم الصدر ويهبر، قال: هذه وزة حرة؛ ليست (بشّة) مستنقعات مثلما تسمونها في البصرة.

لم يلتفت جمال للتداخل اللفظي، ولن يكترث.

ولما سكر فليّح، بدا معبراً عن رأيه في الطعام: يا ويلي كم هي لذيذة، لكنها لم تكن أبداً ألذّ من النسر الجمهوري.

سامي مصححاً: تعني السلام الجمهوري.

هذى فليح متطوّحاً وهو يحك مقدمة رأسه: أنا أحبّ السلام مسلوقاً على النشيد الوطني.

جمال تنحى بعيداً، وهو يفكر بما يؤول اليه الشعب بعد ان تنتهي هذه الحرب؛ وان كان يجزم بأن النهاية قد تكون اخطر من البداية على كل المستويات، والاخلاقي بالذات.

(٥٥)

الانتقام من الماضي، لم يصل بك إلى الحاضر أبداً.

تاكمل وسام بعد ان غشل وجهه بالمشروب: عرفت على (جلال) ذاك الشاب المحصن بطلاسم السلطة، أبن أحد أكابر ضباط الأمن.. قد وفّر له والده سيارة حكومية، بسائق وحماية، لكنه بدا منفلتاً من التقيّد بهذه الامور.. وكان ملاطفاً أو متصنّعاً ذلك، على قدر ما، لكنه كان حقوداً جداً، إذا ما اختلف مع شخص ما. كان أكثر الطلاب تتحاشاه، إذا لم تكن تهابه، ربما في ذلك تحسس الكثير من الطالبات، ونفورهن منه، والقليل منهن من تجامله لبعض الاعتبارات؛ خاصة أنه كان محاطاً بشخصين أو أكثر من ندمائه المقربين.

قلت له ذات اللقاء، متعمداً: بما أنك معزز بالسلطة، فأنت محروم من متعة الحياة.

أجابني بتباهٍ، متنطعاً بغروره: بإمكاني أن أحقق، ما لا يمكن أن تحققه أنت وأبوك.

لم اعتقد انها سُبّة فأبي مات منقوص العمر، قصفوا عمره، وهو في عزِّ شبابه، وعادوا على شبابي ووضعوه كفزّاعة الحقول، يُخيف الهوام والطيور. هكذا هوّمت مع الذكرى.

بدوت كأني لم أسمع فخاره، قلت بتجرد من كل تحسس: أرأيت امرأة بجمال وفاء خاتون، المتمردة على كل القيم، وهي تشاطرك كل اختلاجات نفسك، تخلق لك من المتعة، ما تحلق بك لعوالم قصية.

أجابني وهو يخفي ذهوله، ويتصنع اللامبالاة: رأيت مثلها العشرات.

ضحكت بهدوء وتعالٍ، واسترخصته وانصرفت.. صاح بي: على رسلك إلى أين.؟

قلت له بهدوئي ذاته معتذراً: المحاضرة على وشك البداية. وجررت خطاي بمهل، دون ان ألتفت إليه.

مرّ يومان وهو يحاول التقرب مني بحذر، حتى لا يجد نفسه متوسلاً وذليلاً، فلو أنه نفخ بروح ميت لحيا، إلا أنا فقد أغلقت في وجهه نافذة الأمل.

فعندما يأس مني، استعد للعمل بخطة الاحتياط، التي تنتهي بالضغط والترهيب.. وكنت متحسّباً لكل طارئ، بما في ذلك الاستعدادات الانتقامية.. فما زال دم أبي لم يجف بعد.. فقد قتلوه ببطء خبيث، توقفت إحدى كليتيه، رضوض في ساقيه، خلع في ذراعيه، كيٌّ في أوسع رقعة من ظهره واردافه.. حتى عندما أطلقوا سراحه، كان حبيس المرض، لم اسمعه يوماً تأوه أو بكى؛ لكن داخله كان يتفجّر غيظاً وضجيجاً.

جلست مع صديقي (نعيم) بالكافتريا، على طاولة قريبة منه، تعمدت إثارة موضوع وفاء، وكان نعيم فطيراً وجهورياً، وهو يتكلم عن ليلة ملحمية، خاضها في احضانها، مسترسلاً بغمرات الافتخار.

فربّت على كتفي أحد اصدقاء جلال، بابتسامة مبتذلة، قال: استاذ جلال يدعوكم للانضمام إليه.

نظر نعيم بوجهي متفحصاً: أستاذ جلال.!

قلت للساعي: نرحب به على طاولتنا.

أطال النظر بي، فواجهته برمقة عابسة، دون أن أصرف نظري عنه، حتى تراجع إلى طاولة صاحبه.

لحظات وإذا بجلال على طاولتنا.. نظره نعيم وبنوع من فطارة أهل الريف، وسخريتهم الهادئة، قال: أهلا أستاذ جلال. إعذرنا لم نعرفك.

احسّ جلال بالإهانة المبطنة، لكنه آثر صرف النظر: ربما كانت بدايتي خاطئة معكما، أتمنى أن تقبلا اعتذاري.

نعيم بشجاعة أهل الريف: نحن أبناء عشائر، وحمائل معروفة، لها سمعتها ومكانتها، علمتنا الدواوين أن التكبر منقصة للشخص، وخلل في أخلاقه..

فتداركت ذلك: لا أحد يخلو من عيب، مع ذلك أحس بروح مغمورة بالطيبة في جوفه.

لكنه لم يفهم ما جدوى ما كان في الجوف، إذا لم يظهر على السطح، وفي الواجهة. قلت في نفسي ذلك؛ وأنا أضمر شرّ الانتقام.

* *

إملاءات شيطانية

(٥٦)

أفكار ضاربة، وعقلٌ سارب، وعناوين زاعقة، وأخرى نافقة.. وكتب وأوراق، مرتبة ومبيّضة، وغيرها مسوّدة، كان نصيبها من الخفاء بين الغبار والنسيان، أكثر منه في الإعلان.

هكذا كلّما وقفت على مكتبة أبي، أرى محاولاته البائسة، في تنظيم العشوائية، وحصرها في أوراق صفراء رطبة، متأكسدة، ملوثة بالأحبار والغبار.

أشك أنه واحد من عشرات المجانين، بل من الألوف المؤلفة قلوبهم بين الشك واليقين، يحلم ويكتب، ويصحو ويشطب، ولا يشعر إلا وهو بين مجموعة كراريس، من اللغو والإسفاف.

سامي متململاً، وهو يسب أبا وسام في قلبه.. وكان من وسام أن أومئ له محذراً.. وكانت الوجوه تراقب ذلك بعجب.

فضحك سامي معتذراً وهو يتساءل في نفسه (كيف عرف ذلك ابن الجنية) ثم قال: توقعتُ أنا الوحيد من له صلة بالجن، فكم أنا مخطئ، وغيري من يمتلك عفاريت سليمان.

باسم هلعاً: صارت القصة قصة اشتغال، جان وعفاريت؛ حتى طار المشروب من رأسي.

يحيى برجاء لوسام: ما زلنا نتطلع لمعرفة باقي القصة، فاخرج بنا من عشوائية الحدث، لمرحلة التشويق.

رجع وسام بخفي حنين، من رحلة تتقصى معالم الماضي، وهاجس الخيبة المؤلم، الذي تماسا مع عالمه التواق للحياة.

تردد جلال كثيراً على شقة وسام وزملائه، وأحيوا ليالي الملاح، مع وفاء خاتون الحسناء، التي تجيد اللعب على المراهقين.

وكان من جلال أن ذاب بها وذوى.. حتى طالها تهديد من رجالات الأمن، بعد أن أُحتجزت في دائرة الأمن ليومين متتاليين، بتهمة الدعارة.. وطردت من المطبعة، وانتقلت إلى سكن آخر، بوساطة وتوصية خاصة من أحد ضباط الأمن المتغربين؛ وكان قد أستقعدها لنفسه بشكل خاص.

وتعرض جلال وقتها للضرب والاهانة من أبيه، بسبب عدم الاهتمام بالدراسة، والسهر والمبيت خارج المنزل أحياناً، والإسراف في حانات المجون.. لكن جلال لم ينفك من التحري، والسؤال عنها كلّ من لهُ صلة بها، بعدما أصبحت إدمانه، وترياقه المزمن. فتمارض بسببها ولزم الفراش أياماً.. وكان وسام يتردد على عيادته باستمرار.. بينما كان أبوه قد خبر مثل هذه القضايا أكثر، فهو غير مبال؛ ولو كاد أبنه أن يهلك.

إلا الأم التي أبدت حرصها على سلامة ابنها الوحيد، وهي تتصل بطبيب وآخر، وكانت ممسكة بوسام إنْ لا يتركه، لطالما كان أبنها سعيداً بلقائه.

فكان من وسام أن أسدى النصيحة له، وأشار عليه بأن هناك بدائل كثيرة، والحياة لا تتوقف على أحد ما، أو ساقطة واحدة، فهناك الكثير منهن. وماتزال وفاء في بغداد فهي ستظهر قريباً. وبالتالي فأن الأب كان رجلاً حصيفاً لا تنطلي عليه لعبة التمارض، وهو رجل أمن خبير، يعرف من الألاعيب ما لا تخطر ببال.

فسمع جلال صوت العقل، في لسان وسام، فتماثل للشفاء، لكنه اشترط عليه أن يُقيم عندهم في البيت.. فالبيت أشبه بقصر منيف، من حيث المساحة والبناء.. وكانت أمه قد ساندت رغبة أبنها جلال، خاصة بعدما عرفت ان وسام من المحافظات البعيدة، وقد استأجر شقة مكلفة، وغير لائقة.

(٥٧)

الحبُّ كذبة أجدادنا العظام، ما زالت الممارسات الجنسية مباحة؛ كان الحب.

يقال: (إنّ سبعين ألف فكرة تعصف بالإنسان يومياً) وأنا لا المس منها سوى فكرة واحدة، الثأر للماضي.. كأن أبي يناديني من مكان بعيد، يصرخ بي:" لا تتوقف". كلمة مقتضبة يراد منها الثأر، والانتقام له، كأنه لم يعلم بأن الثأر للنفس أولى.. فعندما ذهبت أمي، لتخطب لي بنت عمي، التي تكبرني سناً،

والتي توشك ان تصطف في طوابير العنوسة. رفضتني بشدة، لفظتني من حلمها، ومن أمانيها، قالت: لا يسرني الزواج من ملحد أبن ملحد.

مع العلم أني لم أؤذ أحداً، ولم أفكر بذلك، حتى هي عندما عرضتْ عليّ نفسها. أبيت ان ألبي رغبتها، احترمت شرفها وشرف العائلة؛ التي فكرتْ هي بتدنيسه. أخلاقي الإلحادية كانت أحسن من أخلاقها..... قد تكون مراهقة، لا شك في ذلك، لكن كم مراهقة بمراهقة، سقطت في هذه المرحلة سقوطاً لا رجعة فيه.. فالبنت في مجتمعاتنا، لم تكن سوى حصالة موروث عُذري. الشرق كله يؤمن على خلاف معتقداته، بأن المرأة البكارة ليس إلا.. الزوج يدخل عليها بمنديله الأبيض، ليغمسه بالدم ويخرج.. والأب القبلي المسكين، واقفٌ بخنجره على دكة الباب.

كانت الوجوه تتنفس الصعداء، مجاراة لواقع أليم، حتى وإنْ اختلفت الصورة من مكان لآخر؛ فالمشهد الظلامي هو، هو.

أما جمال فكان له رأي آخر، فهو لا ينظر للحياة بهذه النظرة السوداوية، حتى إنه وصف كلام صاحبه، بالاملاءات الشيطانية، لكنه أحبّ ان يحتفظ برأيه لنفسه، مخافة الولوج في متاهة من المغالطات.

مسح وسام جانبي حلقه، بعدما تحسس سطوة اللعاب، خارجة عن السيطرة نوعاً ما، وقد طغت على ملامحه.

بدا أبو جلال غير راغب، ولا مُرحّب بإقامة غريب في بيته، وعدّهُ انتهاكاً لخصوصية العائلة، فهو لا يأمن الصداقة، التي لا تقل شبهاً من أبنه المتورط في أكثر من شائنة.. خاصة وأن له ابنة مراهقة، يحاول الحفاظ على خصوصيتها أكثر من أي شيء آخر.. وإن كان لأمٍّ جلال رأي آخر، في إصلاح ابنها ومراقبته عن كثب.. وهي غير متخوفة على أبنتها ذات الثمانية عشر ربيعاً؛ فقد ربَّتها في كنفها أحسن تربية، وأولتها الثقة بالنفس، وكل تعاليم الحصانة.

قال وسام: إنها (جنان) وبالكاد فأنها نفحات من جنان، وعريش من أزاهير معطرة، وألوان ابتهاج، مشرقة كالإصباح بالبشاشة والأفراح.. أظنها كانت الجولة الأهم في حياتي، إيقاعها بحبي سقوط لنظام كامل، أرى أن ثأري سيتحقق، ما إنْ أُعلّق رجليها على كتفي.. لا أظن هناك قوة ستمنعني من ارتكاب حماقاتي، إلا إرادة تفوق نظام العشوائية إن وجدت؛ وذلك ما لا اعتقده.

ضحك جمال متداخلاً: أصبح للعشوائية نظاماً، فمتى ما كانت العشوائية منظمة، خضعت لمنظم.

وسام يحرص على تنظيم شطحاته: النظام ليس دليلاً على التنظيم، مازال قابلاً للخرق ـ وفي نفسه تحاشٍ بالإفصاح للنظام السياسي الحاكم في البلد.

إجابة غير موفقة، أردت بها المواربة والتماهي. أجابه جمال.

جابهه وسام بحنق: أنت تحاول تبرير إيمانك، وهذا من حقك، لكن ليس من حقك أن تفرض علينا ما لا نفترض.

وجد جمال السكوت قامة، والمسكوت عنه فخامة، فلم ينبس ببنت شفة.

توقف وسام وهو يتفحص الوجوه ويتمحصها جيداً، وهي مرتقبة للمزيد، ربما لأن همهم الأول الجانب الجنسي من الحكاية، فقال: أخضعني الأب إلى مجموعة من أسئلة الاختبار، وكأني مقبل على عقد عمل في صفوف الأمن ـ معاذ الله ـ وكانت أسئلته كثيرة، أستشفيت منها، أنه يحاول معرفة مذهبي قبل كل شيء، ثم انعطف على النسب، وجانب من إنسانيتي، ورأيي في النظام.. وكنت متماهياً، معه منساباً لرغبته، إلى درجة إنْ كرهَ مغالاتي، ومقتَ مبالغتي. فقال بالحرف الواحد: أنت أكذب من مسيلمة.

(٥٨)

يقال ان العقل يستحسن الوفاء بالوعد، ولا يستقبح الخلف بالوعيد.

وَعَدتُ أمَّ جلال قبل زوجها، بأن أكون لهما الأبن البار، وأقسمت أن احترم أسرتهما الكريمة، كما احترم الدين ـ الذي لا أؤمن به يوماً ـ والوطن ـ الذي لم أفكر يوماً باحترامه ـ انظروا كم هو قسم عظيم.

باسم ساءه الحديث، وحملته الغيرة على الانتقاد والتهكم، فقال: أن الحكومة التي أعدمت أباك فاشلة وغبية، إذا لم تلحقك به.

عمّ صمت مريب، وبدت الوجوه واجمة، عاجزة عن تدارك الموقف.. كانت جرأة باسم أول أسباب الانفلات من سياقات الاحترام.

كان وسام يعول على أحد ما يرده، لكن الصمت بحسبان.. لم يطل السكوت، حتى تصدى له قائلاً: إذا كانت الحرية تسبب لك بعض القلق، فلا سعادة لك إلا في العبودية.

وتمدد على مرتبة سريره، وقد أثنى الوسادة لتعلية رأسه، وباحترام طلب من جمال إعداد الشاي.

لا يروق لسامي الصمت، الذي ساد أجواء الثكنة، فقال لوسام: أنت ملزم بإتمام الحكاية، لا مجال للتنصل. ومن ثم التفت على باسم، وصاح به، وهو ضاحك: لا أظن أن مشاعرك الدينية أرق من دبرك، تخاف على الأولى، وقد سلمت الثانية.

ابتسم باسم على استحياء، وطأطئ رأسه ندماً.

ـ المشوار كان صعباً وطويلاً، وتعذر بلوغه إذا لم تعل جبلاً، وتهبط وادياً؛ هكذا كان التقرب من جنان عسيراً ومتعذراً؛ لكنني ظللت مصمماً، وبالإرادة تُذلل الصعاب.

جنان فتاة ملتزمة، مصلية صائمة، على عناية تامة بالحجاب، لم يتحقق أن جلس معها على انفراد، بمناسبة ومن دونها.. أكثر اللقاءات تكون على وجبة العشاء، وفي ليالٍ متفاوتة، فأكثر الأحيان كانا خارج المنزل، أما الغداء فدائماً ما ينتهي بكافتريا الجامعة، والإفطار الصباحي غير خاضع لأي التزام، ودائماً ما يكون عابراً وسريعاً.

فتجرأ وسام أن عرض عليها تدريسها، ان كانت تعاني صعوبة في أحد الدروس، ابتسمت بمكر دون أن تبدي رداً.. فقد أمضى ليلته كلها متنرفزاً وضجراً، كيف أقدم على هذه الفعلة الشنعاء.. فقد أحرق مع الأرق الذي انتابه علبتي سجائر، حتى شارف الصباح على الانكشاف، دون أن تغمض له عين، أو يسكت له قلب من الملام؛ ما زاد حرقة الغضب، وأشعل جذوة الانتقام.

استنجدتُ بكل العوالم التي أعرفها، ولا أعرفها لعلّ فكرة ما تنقذني، من نزاع مرير.. كل أفكاري كانت مطروقة ورخيصة، إذا لم تكن مبتذلة.. فبعد المحاولة الأولى، لا يمكنني ان أعود لصلابتي وانتصابي سامقاً، وقد انكسرت في أول ضربة خاطفة.. لكني لم أجد تبريراً مناسباً، أفضل من أني تجاوزتُ مرحلة البداية، الأصعب دائماً، والحرجة على الإطلاق.

المشروب الذي كنا نكرع به في شقتنا بالسعدون، اليوم بات ممنوعاً، في عهد غير مخطط له، مع والدي جلال، عهد ألزمتُ به نفسي، ألا أكون تافهاً أمام علم يرفرف كجنان.

لم أستطع ان أتحرى عنها في مدرستها، مازال جلال ملازمني في كل تحركاتي.. وليس من السهل إن أجازف، وأدس لها رسالة، أو حتى جذاذة، أخبرها بلواعجي وغرامي.

شابٌ مثلي عديم الشعور، لا يجيد كتابة الشعر، ولا ممن يترنم بصوت شجي.. فكيف أُقدّم لها نفسي، وما عساني فاعل.؟

(٥٩)

إذا نفقت روح الوطن، فمالي بجسده القميء حاجة.

أراك تتعرض للوطن والدين، كمن يتعرض لعدو لذود، إذا كان في تعريضك لهما مجرد رمزية، فأرح قلوبنا، لعلنا نجد لك عذراً، فنعفيك؛ أو نعفي أنفسنا من ظنون تلاحقك. هكذا بدأ جمال.

يحيى مؤكداً: بالفعل أنها مجرد رمزية، والمعنى واضح لا غبار عليه ـ كما يقولون المعنى في قلب الشاعر.

وسام بشجاعة: لا أظلم ظنونكم، فأنا لا أكره ما أنا به، لكنني لا طاقة لي به؛ وأنا متذبذبٌ بين رغبة وثأر.

سامي الذي ما يزال ينظر بترقب ملول، وشهوة عارمة، في حكاية جنان المرتقبة، في حياة صاحبه، ولم يعكف منتظراً الحبكة، بقدر ما يود سماع الذروة مباشرة، وليس مهماً ما تؤول إليه النهايات، فقال: إذ ما تزال الحكاية في طور التمهيد والمقدمة، أنا أحبذ أن أنام ساعة، واسمعها في الإعادة، وربما اسمعها من غيرك، فأنا أشعر أن وراءك مصيبة ما؛ لو أنك اعترفت في وسط الكعبة، ما قبلت توبتك.

وسام محتجاً: لا أفكر بالتوبة، بقدر ما أفكر في تماديك وصاحبك ـ في إشارة الى باسم.

شعر سامي بنبرة تهديد مبطنة، فخفّ من حدّةِ لهجته، وتمسكن، فهو يدرك أن لوسام ضربة قاتلة، ولا لدغة الأفعى؛ تصرع على الفور.. وهم في ظرف خطير، إنذار (جيم) الذي يجعل كل ضابط صف، يبحث في كل زاغول، عن جندي يسدّ به النقص.. ربما أهون ما يمكن فعله، طرده من مكتب القلم، ليلتحق في صفوف جند المشاة، المتأهبين على الدوام لخوض المعركة.. فبادر بالاعتذار: لم أقصد إلا الممازحة؛ التمسك العذر.

لم يكن باسم ليفوته التهديد، أو ما وصل إليه سامي، فقام مقبلاً رأس وسام، وهو يضحك متعهداً: غداً لكم عليّ وزّة مشوية.

فبدت على الوجوه ضحكة فاترة.. فتداخل يحيى مداخلة في غير محلها، بقوله: عساها أن تكون حلالاً.

هز سامي يده ممتعضاً: أنظر من يتكلم عن الحلال والحرام.

قطع وسام سجالهم التشريعي، ليعتلي أعواد منبر متأرجح، كرسياً بعمر حروب الرِّدة، قائلاً: فجأة وفي ليلة ليلاء، اختفى أبو جلال من المشهد المرئي والمسموع.. ما أثار شكوكي أكثر فأكثر، اختفاء كل مظاهر السلطة معه، وكل الأبهة المزعومة بالفخفخة.. فقال جلال مبرراً غياب أبيه: أنه سافر مع وفد أمني إلى أوروبا.

قلت في نفسي: (كذاك سافر أبي إلى أوروبا ذاتها، التي قصدها أبوك).. وأنا أتمعن في معالم وجهه، وملامحه التي بدت كالحة، لا براءة فيها؛ وهو نزّاعاً

للمسكنة والانكسار.. أما أمه التي انزوت في مكان قاتم الظلام، تحبس دميعات مستلبة.. بينما جنان النفحة الروحية في البيت، قد ذوت في كآبتها، وخفت وهج الأنوثة في ملامحها، وخبت سعيرها؛ يا لهول المفاجئات الخطيرة.

عرفت أن هناك مشكلة ما، وكبيرة بحجم الموت، فساهمت، وكنت من المدحضين.. فقد كانت كل الأجوبة متفق عليها مسبقاً:(موفد إلى بريطانيا).

لم أكن مقتنعاً بإجابتهم، حتى بدوت لا أفكر بها.. لم تمض سوى بضعة أيام، وإذا بجلال اختفى هو الآخر، كأنه اقتفى أثر أبيه؛ شيعتهما في نفسي:(إلى جهنم وبئس المهاد).

حتى عندما وبّخت نفسي، بأني ناكرٌ للجميل والإحسان، كانت نفسي تضحك عليّ، وتستشنع صحوة الضمير الغبي.

عدت للبيت، حزمتُ أمتعتي للرجوع إلى الشقة.. كانت أم جلال قد اعترضتني، وقالت: نحن اليوم بأمس الحاجة إلى رجل يقف بجانبنا، فهل أنت على قدر المسؤولية.؟

ـ بالتأكيد، ولكن أخاف أن أكون عبئاً عليكم؛ رجلٌ غريبٌ مع نساءٍ أجانب.

قالت وهي تشد من عزمي وهمتي: أنت أبننا.

ـ بلا شك، وأنتم أهلي وأحبتي. هكذا أجبتها ـ ولا أحد يكره أهله مثلي.

(٦٠)

يروق لك أن تخاطبني بأية لغة تشاء، ويروق لي أنْ لا أسمعك.

انصبَّ همي على معرفة سبب اختفاء الأب، وتلاه الابن في فترة قصيرة، فهل هو هروب من بطش السلطة، التي بدت تتآكل، بعدما شاع عن تنازل البكر، لنائبه صدام حسين، وتلتها موجة كبيرة من التصفيات لنخبة من قادة البعث بتهم التآمر مع دول إقليمية وأجنبية.

أنا من بين الناس الذي أصمُّ أُذنيّ، من سماع صوت السلطة. فهناك بوقان: بوق مأجور كعازف الأعراس، وبوق آخر خائف كأهل العروس المشبوهة.

كانت الخالة أم جلال مصرّة على إجابتها القديمة.. بينما أتحسس نغمة الكذب المدارية والمختصرة للإجابة.. إلا جنان، فكانت لا تحبّذ النظر في وجهي، لئلا اكشف كذبها، أو حرصها بعبارة أدق، على سر بيت آيل للسقوط.

في الجامعة استدعاني السيد رئيس القسم، وكنت أشعر ان يدا المصيبة تطالني.. وأني متورط بجريمة ما، إذا لم تكن بالفعل، قد تكون بالنية.. أدخلني السكرتير عليه، بعد أن أستأذنه. لمحت شخصين غريبين كان يطالعاني بطرف أنفيهما.. لم يرق لي السلام عليهما، فوقفت إزاءهما.. تفحصا وجهي ملياً بنظرة استخفاف، فقال أحدهم: ألست ابن عرب.؟

قلت مستفزاً: لا، ابن بدر.

كان رئيس القسم أذكى من ان تنطلي عليه محاولة التحاذق، فقال: لا، وحذق السفيه.

فأشار إلى الشخصين المرتدين لباساً رسمياً: تفضلا هو لكما. وخرج.

سألني أحدهما وكان ذا شارب كث، حتى تكاد شفته العليا لا تُرى، قائلاً: وسام بدر منعوت، من مثلث الشين، ما علاقتك بعائلة المجرم نايف العبد الله وابنه.؟

كلمة المجرم أربكتني كثيراً، وكانت شكوكي في محلها، لكنني بتُّ في موضع لا أحسد عليه؛ فلا مجال للتذاكي والتحاذق ولا للتباكي والعويل.. استعداداتي كلها خائبة، لا جواب مقنع، ولا دفاعات منيعة؛ بتُّ عرضة للإصابة من كل حدب وصوب.

فأجاب عني زميله، الذي بدا على وجهه مسحة من البشاشة الوقورة: نحن نعرف عنك الكثير، ونعرف أنك غير متورط بأمر مشين، نعم أن أباك كان ـ لكنه لم يكمل ـ مع ذلك نحن نريدك عيناً لنا، عيناً للوطن، هناك مؤامرة كبرى على البلد؛ ولا أظن يرضيك ذلك.

ملامح وجهي كانت أسرع مني جواباً، بدأت أتلعثم، في داخلي إجابات مذعورة.. وطن، عين، مؤامرة، لو أنك تحدثت بها في عالم السيرك، لكانت الحيوانات أول من يعفط لك؛ لكن هناك ألف تافه من يعمل بالمجان، لإيذاء الإنسان، وتعزيز السلطان.

خرجت من هذا الاتفاق، وأنا ملزم بعهود ومواثيق؛ قلت في نفسي: (لا أبول عليها إلا أسكر).

والتقيت بالخالة أم جلال، وأنا برصيد معلوماتي كبير، فعندما صارحتها بذلك، أجابتني بحنكة سياسي منافق: لم أحب أن أخبرك، خوفاً عليك.

قلت لها بنفاق: وأنا على العهد باق، خادم ومطيع.

كانت من الذكاء ما يجعلها تتحسس نفاقي، لكنها جاملتني بقولها: بعد إن علمتَ ما علمتَ، لك حق الاختيار في البقاء، أو الرحيل.

فرأيت الوقت مناسباً، لأبادر بالمساعدة بكل ما أمكن، وأهمها المساعدة المادية.

لكنها اثنت علي، وشكرتني، بل وأكبرت موقفي، بقولها: عندنا من الخير الكثير. كلمتك كافية، وموقفك نبيل، وبقاؤك كرم وشجاعة.

قلت في نفسي: (لو كان عملي لله، لأجارني الله من ناره، ولو كان للإنسانية لكنت من أهم نبلاءها؛ لكن هي رغبة لا تعدو نوبات الجنون).

❊ ❊

لا أثق بتوبتي

(٦١)

الصفر أفضل حالاً من اللاشيء، فهو رصيد من المحاولات وإنْ كانت خائبة.

الرغبة المجنونة، جرأة لا تستحكم العقل، ولا تنقاد لسلوكيات المجتمع السليم.. فعندما تكون الجنان التي لا يبلغها إلا المؤمن الورع الحصيف.. أكون أنا الكافر الجاهل بكل نواميس السلام، أمتلك (جنان النايف)، لا أبالغ عندما أقول هي امتداد للجنة الموعودة، أو هي فرع من سعادتها الأبدية، وهي تضفي عليك البهجة والحبور.

لم أعتد على ترويض فرساً جامحاً من أفراس الجنة من قبل، فرس ممشوق الساقين، ضامر البطن.. لا يلوي على فارس بعد، وهو يمتلك من المروج الخضراء مساحات غير محددة، يمكنه الجري أن شاء، أو الطيران بجناحيه المذهبتين.. كلّما أكبرتها أحسُّ بعظمة الخالق.. وكلما ارتبت بهيئتها المقدسة التي أظنها إنسية ملكوتية، أجدني كافراً بأنعم الغيب؛ كيف وكل نواياي هادفة لتدنيس هذه القداسة.

وأرجع من كفري لإيماني، فليس ثمة إنسية مقدسة، عندما تستجدي في ساعة الشهوة حناناً فارع القوام، ينتصب على جسدها الذليل، يبادلها دور البقاء، يشعرها بكيانها السليب، بانهزامية قراراتها المتفرعنة، بوجودها الحيواني.. ربما تكون ساعة تحول، أو أقل من ذلك، أو أكثر، المهم أن تفقد عنوان قدسيتها ورمز المحافظة؛ وأن حافظت على عنوان العفة والطهارة الشرعية.

كل المداخل إليها مجندة، بحراس مجندلين، كل حارس يعبث بالمخيلة، ويرجع بي قروناً إلى الوراء، فتاة ما كانت لتعطي، وان قوبلت بكنوز الأرض.. ربما الدين يعزز من كيان العفة، والأعراف، والبيت، كلها مقومات تحدي.. لكنني كنت مؤمناً، بأن العشوائية التي رمتني بينهم، كلفتني بالدعوة لها.. فإذا كانت الرسالات السماوية قد انقطعت، فأظن رسائل الطبيعة، ورسلها مازالتا للتو قد بدأت.

تحادثت معها للمرة الأولى، بشأن الدراسة ومستقبلها الدراسي، فلم تجب كما كنت أتوقع، كان الملل قد أخذ منها الكثير، قصة الأب والأخ، شكلت لها انعطافة كبيرة في حياتها، فهي لا تعلم كما قالت: لا أعرف كيف يكون المستقبل، وماذا ينوي المجهول ويخطط لنا.؟

قلت لها بداعي التحفيز: أنت أكبر من أن توقفك عوارض الحياة الطارئة.

للمرة الأولى أسمع لها ضحكة باهتة تشبه انقلاباتنا السوداء: هي مجرد بداية، اعتقال الأب والأخ، أخاف تتابع الأحداث. قالتها والأسى يملأ هذا الكيان الزاخر بالعطاء.

لا أظن إن إنسانة بثقافتك وجمالك، تكون ضحية سهلة للتشاؤم والإحباط، وترفع راية الاستسلام عند أول ضربة غاشمة.

هذا شيء خارج إرادتنا، وفوق طاقتنا. بالانكسار نفسه قالت.

ـ ألستِ مؤمنة بالقدر.؟! اخترت التوقيت المناسب للتشكيك.

قالت بامتعاض: كنت أو لم أكن، المشيئة اختارت طريقها بحتمية الأمر.

التفت عليها كالأرجواز، كحكاوتي الحي، قصصت لها كل ما مر بي، ووالدي الذي قُتل صبراً، لم تخطر ببالي حكاية، إلا وحكيتها، مع إضفاء ملامح البطولة والاستبسال.. أنا من تحدى السلطة صغيراً، موزّع المنشورات الحزبية، التي يثقف لثورة الأحرار.. الماركسي الذي حارب تجويع الشعوب، والذي ناهض فكرة الإقطاع، وفساد التجار، ومافيا الدولة العميقة. كذبت بغزارة حتى صدقتني المسكينة، واعتقدتني بطلاً من أبطالها المفضلين.. ربما أكون فارس أحلامها، إذا سمحت لي الظروف لقاءها لليلة ثانية.. عليّ أن أعدّ لها حكاية جديدة، وبشكل مقتضب، أو بإسهاب، فأنا أجيد هذه الصنعة.. سموها ما شئتم كذباً ابيض، أو كذباً رتيباً؛ لا يهم.. التسمية غير مهمة، المهم قوة الاستدراج، ما زال الكذب يحقق غاية من غايات النفس، لا تختلف كثيراً عن سياسة الفساد في العالم، مثل كذبة الحرية. وحتى الطبيعة أراها كاذبة، ككذبة إبريل، المهم أن للصفر طاقةً ورصيداً.

(٦٢)

الأبواب المقفلة لن تصمد طويلاً أمام مفاتيح الطمع.

بسبابة ناعمة ملساء، صكت شفتيّ، تمنعني اللغو واللغط.. الجمال يكمن في العناق، والإيمان بالنشوة يفتح الرغبة، ويحفز الاشتهاء -قالتها ببساطة مغمورة بالعافية.. وقلت في نفسي حُسِم الأمر.

تسألون ما هذا التغيير الفجائي، وما طرأ لتنقلب الموازين رأساً على عقب.. لا تتوقعوا أن الأمر استتب بعجالة.. الأمر كلفني جهداً مضن، وعملاً دؤوباً، لا يُخال لكم أني نلت ذلك بوثبة سحرية، بل بتخطيط مدروس، وتنفيذ محكم.. فأول ما أفسدت لها معتقد الالتزام العائق الرئيس؛ وضربت الأعراف عرض الحائط.

كنت أتلوّى على جسدها كالأفعى، لم أبقِ منطقة محرمة الا وطلتها، أن لم يكن بيدي، كان بلساني، مع انطواء جسدي الظامئ للحنان، أو بالأحرى للانتقام.. على جسدها المترع الفتي بلون الصباح المشمس الندي، كان قابلاً للطي، كنت وكانت تحت شبق الرغبة نتمرغ بحرارة الأحضان، لم نترك مساحة فارغة تلومنا أيام الذكرى؛ فقد شمل المسح كل بوصة فيها.. التقينا بإحساس مغرمين بالحياة، نشطين نشاط من يفرُّ من شِباك الموت، جبهتها الوضاءة تتفصد عرق الخجل؛ وأنا أؤدي طقوس نذري بكل عهر.

كم أدين لوفاء خاتون، التي علمتني نقاط الانطلاق، ونقاط الارتكاز، ونقاط السقوط، لولاها لكنت بتلك العبثية المستقبحة لدى النساء، وأنا أسلّم للعشوائية الفجة نصاب رجولتي، التي لا تقنع الحب، ولا تشبع الغليل.

قالت جنان براحة، وهي تنزع عن نفسها لباس قيود البكر، بعد أن هدمتُ عُذريتها بأول ضربةٍ مارقة: أرحتني من فكرة ما بعد الموت المقلقة، فلك الحق أنْ تأخذ ما بدا لك، من هذا الجسد البالي العائد للحطام.

تذكرت بعض ما قرأت مما قاله علماء الطبيعة والأحياء:" إنَّ العقل البشري خطيئة الطبيعة الكبرى".. كانت هذه مقدمة الإلحاد، أنا أؤمن بها ذاتياً.. حتى أن العقل هذا الحيوان المنوي، الذي لا يعمل منه سوى جزء يسير، فهو ينمو ويكبر باستمرار، حتى يصل إلى درجة الفتك بالكيان البشري برَّمته. فقد غيّر العالم وهو يكتشف الغرائب، التي لم تكن بحسبان الخيال؛ فكيف إذا عمل نصفه، أو أكثر، فقد يخترق الحُجب الغيبية الكبرى.

فعندما أدركتِ الديانات والرسل ـ العباقرة ـ ذلك أسلمت بالاعتقادات العقلية، للسيطرة على الجزء المظلم منه، المتذبذب الكسول، الذي ينشط بالتجريب والمنطق ـ الأدلة الكلامية ـ فساقت الجموع المتخوفة سوقاً شفيقاً. هكذا عكفتُ على إسقاط جنان في فخ الفوضوية، وسفّهت لها الوجود المُعاش، الخاضع كلياً لسيادة العشوائية الكبرى.

وعندما حاججتني بوقوع الظلم في الأرض، وسلامة الظالم؛ وهذا ما يخالف العقل.!

قلت: نواميس الطبيعة لا تعتمد الدقة بشكل كبير، وأن اعتمدته فربما تقتص من الظالم بمرض خبيث، أو أية جزاءات دنيوية.. وان دققتْ في ذلك فيكون الاقتصاص من الأبناء، أو اللجوء إلى استنساخ المظلوم بقالب آخر، لا ينفك عن عالمه الأول، حتى يحقق أهداف الطبيعة.. لكن يبقى الأمر ككل الأمور الأخرى، قائماً على المفاضلة العبثية؛ والتسليم بالوراثة مع التطور.

لم يرق لجمال هذا الحديث، المتهتك للأعراض، والقيم، والمعتقدات، فقال بحدة: إنها أفكار هندوسية على ما أظن، فهل تعتقد أن ما فعلته مع هذه الفتاة، ستسلم منه أختك، أو أياً كان من عِرضك.

حاول وسام المحافظة على كياسته واتزانه: بالبداية أنا لا اعتقد بمطلق الديانات، ولستُ ملزماً بأختي أو غيرها، فلكل منا كيان منعزل عن الآخر.

جمال يستغل نقطة التناقض: إذا كنت كما تقول، لِمَ تنتقم لأبيك.؟!

يحيى بجرأة: أن ما اسمعه انتقاماً للأخت، وليس للأب؛ لكنها على ما يبدو عشوائية الانتقام.

لم يصبر باسم على حبس صوته، قائلاً: أظن هذا ما يجرُّك للاعتراف.

(٦٣)

الذين ينكرون أنعم السماء هم ذاتهم السكارى بانعم الارض.

للتو عرفت أن الكثير من الالتزامات في حياتنا، بلا مغزى ومعنى.. هذا ما استنتجه جنان من كلامي.. وأنا وأن كنت اعتقد ذلك، ومن أسمى مبادئي،

أراني أشعر بالحرج أمام الحاجة للآخرين، خاصة أولئك الـذين يشـكلون معـي، كتلة الحياة المجتمعية.

للحظة شعرت بالخزي والتفاهة، عندما جندّت كل أفكاري لاغتصاب فتـاة بريئة، سلبتها أنوثتها، ونزعت عنها روح معتقدها، وفككت كل الروابط الجميلـة بينهـا وبـين الحيـاة.. ربمـا بلـغ الانتقـام شـأوه؛ لكـن مـاذا لـو أنـي قصـدت الإنسان الخطأ.؟!

ربما أنا في مشكلة، تجد العشوائية نفسها، أمامها خجولة ومنكسـرة.. فقلـت في نفسي: (كم من فادح من البلاء ارتكبت، وأية حماقة هوجاء ركبت).

بـدت الأم فزعـة مـذعورة، عنـدما طلعـت علينـا ابنتهـا، مـن دون حجـاب، وبحضوري أنا الشخص الغريب، وقـد زادت فـي تبرجهـا، وهـي مرتديـة لبـاس البيت، الذي لا يصلح فـي قُرانـا، إلا للنـوم، وربمـا يشـكل حرجـاً كبيـراً لـبعض الزوجات، التي لم تعتد على مثل هذه الملابس. فصاحت بها: أمجنونةٌ أنتِ.؟

أجابتها بكذبة خرقاء، ونزق طفـولي: نـذراً علـيّ، لا صـلاة، ولا صـيام، ولا حجاب، ولا دراسة، حتى يخرج أبي وأخي من السجن.

ومن باب دفع الحرج، والتظاهر بـاحترام حرمـة البيـت، انسـحبت وأنـا بـين نارين: نار الثأر الخطأ، ونار القتل العمد.. نعم قتلتها في شرفها، طعنتها في دينهـا.. وأخرجتها من نواميس الأديان الحقة إلى نواميس التسافل.. كم أنا حقيـر ونـذل، لا اسمح لأحد أن يقول غيـر ذلـك، أنـا أعـرف مـا أنـا عليـه، اشـعر بغصـة تكـاد تخنقني، بألم كألم الموت، لا يعرفه إلا من ولجه.

أقول الحقيقة لأجل الحقيقة، لا للتباهي والتفاخر، والعزة بالإثم.. متعرضاً للصفح والتكفير، لكني أشك إن كل مسعاي بلا جدوى؛ جريمتي كانت كبيرة بحجم القتل، إذا لم تكن أكبر.

جمال مستفهماً باستغراب: هل شعرت بهذا الشعور وقتها، أم اليوم.؟

بتذمر وتشاؤم كبيرين أجاب: لا يفرق كثيراً، ما أعرفه وأنا متأكد منه، أنك لم تسمع بعد، سوى الجزء اليسير من الحكاية.

تطاولت الأعناق بانشداه بالغ متسائلة في نفسها: أفي القصة بقية.؟

لسان حاله كان يقول: (وأكبر من ذلك، وأوسخ مما سمعتم). ثم صرح جهاراً: أنا الذي أتظاهر بالعلم والمفهومية، وبما عرفتم عني، من الحزم واللياقة، لم أكن سوى إنسان وضيع، ربما حتى أفسد من أبناء القادة؛ أو ربما أفسد من الحكومة ذاتها.. لو أني كنت أؤمن بمجريات السماء، لقلت إن السماء اقتصت مني لذنب أبي؛ إن وهبته ابناً ضالاً وعاقاً مثلي.

انتبه لنفسه وهو عائم في أفلاك من الويلات، يدور رحاها من ذنب لذنب؛ لا مبرر لكل هذه الذنوب إلا الحسد والكره.

كادت أم جلال تموت رعباً، إلى ما انتهت إليه ابنتها الوحيدة، التي تتصف بأرقى الصفات، عقل بارع، وفكر نير، وحسن أخاذ، ودين قويم.. فكانت كل ليلة تسحل بقدميها، خفيةً وبصمت، إلى غرفة ابنتها، فما أن تطرق الباب، حتى انسحب خلسة أما من الشباك، أو ألوذ تحت السرير، فتجلس معها دقائق، بينما

تتظاهر جنان بالنعاس، وعندما تسألها عن إقفال الباب بإحكام، تجيبها ببداهة عاهر: أني استخطر وجود الغريب في داري؛ لولا إننا بحاجة إليه.

(٦٤)

صراع مع الندم بدا يقتلني، أكره أن يكون صحوة الضمير.!

لم تفكر جنان حتى في مراجعة نفسها.. أقول أية عقيدة فاسدة زرعتها فيها، وأية متاهة ظلماء أولجتها بها.. واشد ما أكره أن أؤوب لرشدي، وأصحح خطأي؛ على الأقل اقطع أمامها الطريق.. لكنني تماديت أكثر فأكثر، فكل يوم ازرع بذرة سامة، في قلبها العاقل، وقلبها الجائع النابض في الفراش.

تماهت مع الرغبة، لا ترويها ضرامة القُبل، ولا يشبع قلبها نزوع العناق؛ بدأت أظن إن نهري العراق لا يطفأ لهيبها.. سكرنا معاً، تغرغرت في فيها، وغسلت بالخمر نهديها، فأحبس في السرة بعض أنفاسي، ولهاثي القاسي، على خصرها الماسي.

لم تأبه للمدرسة، ولم تعد تذاكر دروسها، وتسوّف في الدوام؛ كيف وهي تمضي الليل في حضن الخلود.. وأنا الجامعي بدأت أتغيب عن محاضراتي، والجأ غرة الصبح إلى شقتي القديمة، التي ما زلت محتفظاً بالمفتاح؛ على الرغم من انقطاعي عنهم، ما أزال أشاركهم دفع الإيجار، تحسباً للعودة المحتملة، التي أوشكت مؤكدة، خاصة عندما بدأت أتحسس من أعراض الحمل على جنان؛ التي لم تبدِ استياءً حيال ذلك، ولا خوفاً.

هذا اليوم تحديداً اعترضتني (منى) البكر العنيد، وصعدت معي الشقة، منى التي كانت أشبه بالحلم بالنسبة لي ـ بعد أن سبق وأعرضتْ عني بدون أسف ـ بينما كنت أهمّ للنوم، لجهدي طيلة الليلة الماضية، بالسهر والسكر ومقارعة الحب.. دلفتْ معي إلى الصالة، دون ان تبدأني بكلمة، جلست قبالي باسمة، وهي تضرب بكفيها الناعمين، على فخذيها الممرعين.. كان صمتي يوحي بالإعراض، وعدم الاهتمام، وداخلي يتقطع شوقاً لها، لكني أظن قوتي غير مؤهلة لتجربة أولى، مع فاتنة من نوع خاص.. قد لا تكون بجمال جنان وفتونها، لكنها صاحبة خبرة وبنت شارع، ما يجعلها أكثر خطورة من سواها.

إحساسي بالنعاس أسقطني في نظرها، رأتني شاباً متكاسلاً، أو متعمداً إهمالها، وعدم الاكتراث بها.. فاستلقيت على الأريكة استلقاءً كلياً، لم انهض من نومي حتى عاد زملائي، فأخبرتهم ما كان من منى معي.

ضحك زميلي (باهر) ببذاءة حلقه العفن، وهو يقول: سقطت منى، مع سقوط الحكومة السابقة، ودارت عليها الدوائر.

وأكمل نعيم، قائلاً: وطردها صاحب المطبعة، وبعد إلحاح شديد، قلّل من أجورها، وألزمها على تمضية أوقات مجانية معه.

تداخل باهر بنشوة: تجارة مباحة، وكنا أول الزبائن، وأنت على رأس القائمة؛ فلطالما سألتْ عنك.

فصممت أذنيّ، بعد أن كنت صاغٍ بروح، وقلت في نفسي: (من الخطأ أن أقول سبحان مغيّر الأحوال) وأنا مؤمن بسلطة العشوائية، ومراحل السقوط.

عدت والعود أحمد، إلى تلك الجنان المترعة، إلى الحب المليء بالدهشة، الأرض الخصيب، التي لم تُحرث بعد، ولم تُدنّس بشائك الزروع؛ وكأن حرثي مجرد وهم، تدنيسي لطهارة أرض عذراء مجرد حلم.. فعلاً عندما أنظر بجدٍّ لما ارتكبت؛ أشعر بأن اللعنة أقل ما يمكن من جزائي العادل.

وعندما أخبرتها بأني انشغلت بالدرس، ومراجعة المحاضرات مع أصدقائي، فلم أتمكن من جلب المشروب معي.. أرادت أن تبكي فأن المتعة الحقيقية، لم تكتمل من دونه، فهو من يُنسيك ألم الواقع، وملل الحياة، بكل ما بها من معتقدات زائفة، وقوانين جوفاء ـ هكذا عبّرت عن علاقتها بالمشروب.

وحضنتها وبكينا معاً كطفلين نغلين، لفظتهما النزوة الطائشة، في مزابل الحياة.

(٦٥)

الكفر ليس التطاول على الشرائع، بل الكفر هو الظلم بلا مبرر.

خضع أبي للمساومة القسرية، أما الاعتراف بذنب لم يرتكبه مقابل أطلاق سراحي، أو الإبقاء علينا نحن الاثنان، تحت طائلة التعذيب، وإلى أجل غير معلوم.. جُرّ أبي إلى حبل المشنقة، مع اعترافات مسجلة صوتاً وصورة.. وسحلت أنا بشوان مبلل، على أرصفة المحيط، في مقربة من الشعبة الخامسة، بمدينة الكاظمية ـ هكذا تحدث جلال بعد الإفراج المشروط عنه.

علا الانكسار الوجوه، بما فيهم أنا، الذي لا أحب رجال الأمن، وخاصة أبو جلال ثقيل الدم، بوجهه الذي يشعرك بلؤم السلطة، وسفالة محققيه، وخبث طويتهم.. بكيت، وأنا أذكر أبي، الذي كانت تعتصره نوبات من السعال حدّ الاختناق، لم يبقوا له على رئة سليمة، ولا قصبات وشُعُب هوائية صالحة للاستنشاق.. أعدموه بطريقة وحشية، موتاً بطيئاً، خاصةً وهو يعجز أن يقضي حاجته.. كلما أذكره وهو يزحف، أو يتكئ على الجدار، لينهض دون مساعدة أحد، مخافة إيذاء الآخرين، وهو يقول: أنا من أختار ذلك، فعليه أن يتحمل كل المشاق.

أذكر أبي، وأكفر بحلم الرب، كم كان طويلاً ومملاً؛ إلى متى هذا الحلم، على هذه الشرذمة الضالة.. أو كما قالت تلك التي دعت الله، وهي مغمومة: ((إلهي ما همني عاد، بل همني حلمك على عاد)).

قابله جمال بالاستغفار، وهو يقول: إستغفر ربك وإعلم أن باب التوبة مفتوح.

وسام بنشيج: أعلم ذلك، لكنني لم أثق بتوبتي.. صمت هنيهة، واستطرد قائلاً: قبل يومين تحديداً من خروج جلال، أخبرتني جنان بأنها تشعر بإعياء وغثيان كبيرين، وقيء متكرر.. فأجبتها بأن ذلك بسبب النبيذ؛ وفي داخلي بتٌّ متيقناً بأنه الحمل.

قالت: ما رأيك بأن نتزوج؛ ألا إذا كنت لا تؤمن بالرباط المقدس.

قلت: وهل يفعل المتزوج أكثر مما نفعل، وأي مقدس هذا؛ ونحن نبول على بعضنا.

رأيت الفرصة سانحة لخروج جلال، ولمَّة العائلة من جديد، وخصوصية الحزن الذي طال هذا البيت.. أجمعت أغراضي، وعدت لشقتي، على الرغم من ممانعتهم؛ كانت رغبتي بالخروج أكبر.

عدت لجولات محمودة الجانب، مع منى وتسديد رميات الجزاء بإصابات جيدة، وأشركنا كامل الفريق وفاء خاتون التي عادت منتصرة مع الانقلابين، ورشا التي كنت أكره الولوج بها، كونها متزوجة وأم ولد، وبدا التراشق بين فريق العهر والمجون، في مطبعة السلام التي صارت كالماخور؛ حيث لم تجد أمامها ما تطبعه، غير بطاقات الزواج و(كراتين) الأحذية.

غبت مدة شهر أو أكثر قليلاً، عن لقاء جلال، ولم أتحر أخبارهم.. حتى زارتني جنان في كافتريا الجامعة، بجسد ذاوٍ، ووجه منكسر، لتعلمني أنها حامل، بعد أن تأكدت من ذلك طبياً. فأشرتُ عليها بإسقاطه.

قالت: والمخاطر والفضيحة.

قلت لها بجبروت الحاكم المستبد: لا شأن لي بك.

تطورت الأحداث بسرعة، زارني جلال بعد يومين في الشقة، وأنا أتوجس الخوف منه.. أخبرني عن وضع أخته وحملها، وخيانتي للأمانة، محاولاً بذلك تسوية الأمر، من دون فضائح ولا شوشرة.

قلت لـه وكلـي عنـاد، كـأن الشـيطان قـد ركبنـي: نحـن نعاشـر الكثيـر مـن العاهرات، وأنت تعرف ذلك؛ فهل نتزوج كل عاهرة تدّعي الحمل.

قال بحنق: ولكنك أنت السبب.

قلت مستفزاً: بـل أنـت وأبـوك السـبب؛ منـذ تآمرتمـا علـى الـوطن. واليـوم تتآمران أنت وأختك علي. اذهب وأسالها مـن أفقـدها عـذريتها، أنـا أم صـديقها السلمان ـ وضعت الاسم للتمويه ـ فأولى به أن يتحمل خطأه.

خـرج وهـو ينكـث غضـباً.. وبقيـت أنـا أتحسـس عمـق الـذنب والافتـراء.. شعرت بعنفوان المجرم؛ وبصقت على وجهي القبيح في المرآة.

لـم يمض يـوم أو يومـان، حتـى أُشيع أنهـا ماتـت محروقـة.. كانـت أصـابع الاتهام تشير إلى تورط أخيهـا جـلال بمقتلهـا، بعـد أن تعـرّض إلـى نوبـات مـن الهستيريا، جراء التعذيب الذي لحقه على أيـدي رجـال الأمـن، بعـد إن اعتـدى عليها جسدياً، بسبب تعاطيه لحبوب الهلوسة والمهـدئات النفسـية.. بينمـا رجـح آخرون، إن لجهاز المخـابرات اليـد الطـولى فـي تصـفيتها، بعـد مداهمـة سـرية لبيتها، بحثاً عن مبـالغ ماديـة طائلـة، كانـت مرصـودة لتغطيـة مـؤامرة الانقـلاب، الممولة مـن سـوريا تحديـداً، مـا دعـاهم لإحـراق الأثـر. بعـد ان كشـفت جنـان سرقتهم ـ وهذا الرأي أرجح الآراء.

* *

اعترافات مكبوتة

(٦٦)

لم أكن يوماً ما مقتنعاً بك، ولا أظـن أنَّ قنـاعتي سـتُغيّر شـيئاً مـن الواقع، لذلك تبقى اعترافاتي مكبوتة بلجام من نار البوح.

سادت المجتمعات أفكـاراً إلحاديـة منحـت الطبيعـة منصـب إلـه بالمجـان؛ مقابل الحظوة بحرية التصرف، ولو على حساب الأخلاقيات.

تنحي جمال جانباً، حيثُ صخرة مـن القرميـد ثابتـة علـى ضفاف دجلـة ـ خلوته الدائمـة ـ وهـو يُطـالع الليـل المـنعكس علـى وجـه المـاء.. إنحـدار المـاء الاحمر الجارف للرّمل مسرعاً باتجاه الجنوب، كأنـه هـارب مـن معركـة. تمنـى وقتها لو أنه حرٌّ مثله، لركبَ تيار النهر المندفع بسرعة صوب مدينة البصرة.. منـذ شهر وبضعة أيام، لم يعش الحياة المدنية، لم يأكل ما يتمنى، ولـم يسـتيقظ كمـا يريد، لم ينل ما يتوق إليه بإجازته التي بدت في خبر كان.. عاكسـهُ الحـظ هـذه المرة، بالتأكيد أنها ليست المرة الأولى، ولا الأخيرة.. لكنهُ لم يسبق لـه أن تـأخر هذه الفترة الطويلة.. كان تواقاً للحياة المدنية، أفضل مـن رؤيـة أي قريـب إليـه، حتى أمه التي كانت تنتظره بحرارة، لـم يتشـوق لهـا بـذات الحـرارة؛ يحـس أنـه مظلوم الأهل قبل ظلم الآخرين.

كان يرمي بفُتات الخبز في النهر، كأنه يطعم الأسماك، التي تستشعر الأمان معهم.. الرجل الذي يطعم بلا مقابل، يطعم دون ان ينصب فخاً للصيد.. حتى تكاثر حوله صغار السمك من الحمري والخشني...

وقف عليه يحيى ممازحاً: يبدو أنك تدلل السمك.

رفع رأسه إليه، قائلاً: أقل ما يمكن تقديمه للنهر.

يحيى مترنماً: النهر.! لا كمالَ لمنظرٍ أو لوحة فنية، دون بسط النهر بضفتيه، مع بسمة الصباح، أو لمسات الغروب.

طالع جمال انسيابية يحيى، وعشقه العقائدي للنهر، ككلِّ الصابئة في العالم، قائلاً: ربما لأنك تعتقد أنه الحياة، أما أنا فاعتقد أنه الشفاعة.

يحيى مستغرباً: أتعني شفاعة النهر والسمك.؟!

طأطئ جمال رأسه؛ ولم يجب. ما دعا يحيى للانسحاب، شعوراً منه بالتطفل.

كان ثمة نثيث هادئ لرذاذ الموج، التي تضربه الرياح الشرقية العاصفة مرة، والساكنة مرات.. كل أحلامه الفتية ذهبت أدراج الرياح، الحب، الامل الكبير في مقاومة اليأس، وتحدّ الصعاب؛ أضحى مجرد ذكرى بائسة.

طموحاتي الكبيرة تماثلت للشفاء، فلم أعد ذلك الرجل الطموح، اقتنعت باليسير اليسير من الحياة.. هكذا كان يحدث نفسه في خلوة من الناس. وأضاف: كم كنت أتمنى أن أكون شيئاً ما في المستقبل، وأن لم أكن شيئاً فعسى أن

أكون ما.. قمة التواضع، أنْ لا أطلب ما لا أتحمل، وقمة الخذلان أن أُمنّي النفس ما لا اتمناه.

اليوم أنا مطلوب للاعتراف، أو في الغد كاقصى حد.. وأن كانت ذنوبي في تصنيف اللمم، إلا أنها محرجة. بناءً على اعتبارات عرفية فاشلة، افسدت حباً وحياة فتاة، ومستقبلي.. حتى مظهر الدين والالتزام الذي لا أنفّك أتظاهر به، واعتقده منجى وأملاً، فقد خالفت جوهره؛ أخجل أن أقول كم أنا محكوم بالأعراف.. لا أحب ان اذكر هذه الذنوب، استحي من الله.. ربما سأتعرض إلى حزمة من الانتقادات اللاذعة، كما انتقدت تصرفات الآخرين؛ فمثلي كمن ينهي عن خلق ويأتي بمثله.

وأن كانت حكايات ـ زملائي ـ كلها مجون وفسق، وذنوبهم أكبر من دعواهم، ولا اظن أن اعترافاتهم إلا جزء يسير من أصل ما ارتكبوه فعلاً.. بيد أن ذنبي كان الحنث بالوعد، والاخلال بالوفاء.. فقد كنت اشترك معهم بنفس الذنب، وأن تغيرت الأساليب؛ يظل الذنب ظلماً.. مثل يحيى الذي يعتقد بشفاعة النهر؛ في حين أرجو أنا شفاعة النعمة.

نظر ملياً بالشاطئ، حدّثه بجهر مسموع: كلنا خونة، لكن كلاً بطريقته الخاصة؛ رغباتنا جوفاء، قلوبنا متشابهة. وأن اختلفت الضحايا: باسم جبان وسفاح تركيبة غريبة، سامي لقيط وكاذب للأصل والعرق نتاجه، يحيى دجال ومحظوظ مزيج غير متجانس، ووسام الذي كنت اعتقده صاحب مبدأ، ورأي

ثاقب؛ كان حرّيف إجرام.. أما أنا.! ربما على الآخرين تقييمي. لكنني متأكد ومتيقن؛ بأنني غير معذور، مهما كانت مبرراتي.

بدا عقلي مشوشاً، إلى درجة سماع نداءات النهر، تهيب بي للنزول بالماء، للغوص بالعمق، شيء ما لم ينفك ينده عليّ بالاسم.. أغمض عيني، أعصر رأسي براحتي، ازداد توتراً.. أسمع طنين أجنحة مع حفيف الشجر المتهالك، أرفع بصري، أطالع السماء مرعوباً، أرى اشباحاً وارواحاً بيضاء كالأراجيز تتدلى بخيوط شفيفة تكاد لا تُرى، لو لم أمعن النظر.. أحسست أن الغيب بدا يعاتبني؛ فأصغيت.

(٦٧)

أظن أن ثمة اعتراف أمامي كبير، ربما يؤخذ عنوة.

اشتعلت السماء انواراً واشباحاً، وعلا أزيز الرصاص من كلا الطرفين، وعلى الأثر بدت دمدمة وقصف المدافع، مع كل المقاومات الأرضية، وتلتها جلبة واصطكاك العساكر في كل مكان.. صفير محركات العجلات والزوارق تعالت بأزيز وطرطقة بلا هوادة.. أنفاس جنازير الدبابات اللاهثة بالدخان الأسود الغليظ، وهي تتسلق على ظهر الساحبات، لتسريع عملية نقلها في عمق المعركة.. مع تعالي حسيس النار، والحرائق تهسهس القصب والادغال، في الجبهة الشرقية من النهر.

علت خرخشة صافرات الانذار البدائية، التي تعلن بدء المعركة، على القاطع.. نادى رئيس عرفاء الوحدة نائب ضابط (غلمة) على كل الاقسام التوجه لاستلام الأسلحة، واقنعة الوقاية، والتوجه للضفة الثانية المتاخمة مع بداية الهور، لصدٍّ أي هجوم محتمل.. النداء لا يستثني أحداً، فاستلمنا الأسلحة الخفيفة (كلاشنكوف) وتوزعنا على الساتر.. هناك من يحفز المقاتلين بنداءات متتابعة:" اليوم يومكم يا ابطال، عيونكم في الهور". شق عليّ معرفة الشطر الثاني، حتى سمعت ان الضفادع البشرية الإيرانية عنصر مباغتة هذا الهجوم، ومفاجئة الموسم.. فقد سقطت أولى القصبات بالعمق الحدودي مخفر (الترابة) ويتوقعون سقوط باقي المخافر والجُزر الموجودة في أرض الحرام -ولهذه الكلمة في نفسي صدى مضحك.

فعندما طلب رئيس عرفاء الوحدة من مسؤولي الأقسام، بالاستغناء عن جندي أو أكثر مؤقتاً، لتعزيز المقاتلين الموجودين في أرض الحرام.. كنت أولى ضحايا وسام، فقد وضعني في حلق المدفع؛ ومن ثم وقع الاختيار على سامي.

فتكلم سامي وهو كمن يشعر بحلاوة الموت: أبن حرام يدافع عن أرض حرام؛ أين العدل.؟!

ضحك وسام، ومن حوله، وببداهته المعهودة، قال: لما لك من صلة رحم بينك وبينها.

فعاد سامي، وهي المرة الأولى التي أشعر بتعاطفه معي: إذاً ما ذنب جمال، أن تزجَّ بهِ، في أرض كلها حرام بحرام.

علّل وسام ذلك بأن لا حاجة للنشر، في الوقت الحالي، فموعد الراتب ما زال بعيداً. والتفت إليّ قائلاً: إذا كنت تشعر بالخوف، أو متردداً من الذهاب، فأخبرني حتى استبدلك.. ومن ثم ربّت على كتفي، واستطرد قائلاً: واجب مؤقت لا أكثر، تختبر فيه قواك؛ وتزيد من إيمانك.

ربما أني بحاجة فعلية إلى هذا الواجب، فقد خبرت الكثير من المعارك من حولي إلا هذه، فهي المرة الأولى التي أكون وسطها، وفي أوج نيرانها.. لكني لم اعرف تحديداً ما يرمي إليه بزيادة الايمان، ربما يعني أن الخوف سبباً في زيادة الإيمان، وجاريت نفسي: (لأنني سأكون في منطقة من الرجاء، والتوحد بالقدر، سأعلق أظافري الناعمة بجلد الغيب، أتعمق بالدعاء، أتوسد أملاً، يخبو ساعة، ويتوهج ساعات).

للحظة أدرك أن كل الحسابات الرقمية، التي أُجيدها وأتعامل بها في سلاسة، كلها كانت حسابات غير دقيقة، مجرد أرقام تتكأ بعضها على بعض، محسومة النتائج.. أمّا الحسابات الدقيقة، فهي حسابات المرحلة البعيدة في المجهول، أو ما يسميه الفيزيائيون كما لخصه وسام: بالعدم المتحيز.

(٦٨)

كنت جاداً إلى درجة لم أذكر يوماً قط بأن الوجود فسحة جميلة، بحاجة الى كثير من المرح والنزق؛ تجمل بذنب رحيم وتسامح.

في عتمة الليل، وقبل انبلاج خيوط الفجر، سار بنا الزورق سيراً هادئاً بطيئاً الى مخفر (أبو ذكر).. جلس بمحاذاتي (سيد عيد) ذاك الوجه الذي زاد ظلام الليل ظلاماً، لم تبن حتى أسنانه الصفر المخمّرة بالتبغ.. كنت قد التقيته أيام التسويق في مركز تدريب الديوانية، وكانت علاقتي به عابرة وسطحية.. هو من أعداد مدفع الهاون، كان ضمن الأعداد الفائضة التي سيقت لتعزيز مواطن الارتكاز في العمق.. بدا لي أنه مستعد بشكل وآخر لمواجهة الواقع، فقد رمى سلاح الكلاشنكوف والاعتدة جانباً، غير مبالٍ.. وكشف عن رأسه بعد أن حاد الخوذة في الهور، وفتش في معطفه العسكري عن علبة سجائر السومر، أخرجها وأخرج علبة كبريت التي تبدو مبللة، أو رطبة على حدٍّ ما، وأنبت سيجارة بين برطمتين متدليتين، وهو يحاول أن يقدح الكبريت لإشعالها.

صاح به سائق الزورق: إياك أن تشعل النار فتكشفنا للعدو.

لكن سيد عيد لم يكترث له، ولم يعبأ بجميع من في الزورق، وأشعل سيجارته دون أن يلتفت إلى أحد.. بينما كنت أشعر بشعور مرير بالهزيمة، كأن السماء تهاتفني برسل الخوف، تنذرني بقرب النهاية؛ بدت تتشابه عليّ النداءات رحمانية كانت أو شيطانية.. سأصعق عند أول مفاجأة، ما أن يظهر

علينـا أي زورق بشـكل مباغـت، وأن كـان صـديقاً، فضـلاً عـن فكـرة الضـفادع البشرية، التي باتت تعشعش في دماغي.

زاد الخوف عسراً سيد عيد، الذي ما أنفـك مـن إمتصـاص سـيجارته بقـوة، وايقاد جذوتها وهجاً.. ولم أفرح طويلاً بنهايتها، حتى أشعل الثانيـة مـن الأولـى، وهو يكلمني بشيء من السخرية، أو يشجعني على مواجهـة مخـاوفي؛ فلـم أعـد أعرف شيئاً. قال: الموت واحد، والرب واحد؛ ولا يحدث إلا ما أراد الله.

ضقت ذرعاً بهذا التسليم، لا أحب سماع كلمة الموت، ما زال هناك شـطراً كبيراً من الحياة، لم أتمتع به، لم أفرح بشـبابي بعـد؛ تركـت كثيـراً مـن الـذنوب اللذيذة.. للحظة شعرت أنـي عبأ ثقيـل علـى الحيـاة، عنـدما يتسـاوى وجـودي وعدمي؛ وأنا لم أمارس يوماً أسرار البقاء.

قطع صمتي بأعطائي سيجارة سومر الطويلة.. نظرت إليه هنيهة، لم أجد بـداً من أخذها والتمتع بأنفاسها، بعدما كنت أسـميها موبقـة الشـباب، ولـم أعـتن بهـا كثيراً، سبق وأن دخنتها على مضض هنـا وهنـاك، لكنـي لا أحترمهـا، بـأن اقبّلهـا كل ساعة، فهناك الكثير ممن يستحق التقبيل غيرها؛ أو هو واجب التقبيل.

أظن أن كل من في الزورق، ونحن سبعة أنفـار، وثامننـا السـائق، الكـل بـدا يدخن، ويكسر الصمت بمزحة، أو حكاية مـا.. إلا رئـيس عرفـاء طالـب، الـذي أشار علينا بالتكـاتف والانتبـاه، وأخـذ أقصـى درجـات الحيطـة والحـذر، وقـال مؤكداً: يا شباب إنها الحرب، والحرب لا تفضي إلا إلى الموت، فالأسر مـوت، والاعاقة موت، وأقل الجروح أن لم تعرضك للموت، فهي تعرضك للإذلال.

تذكرت وقتها كلام وسام عن أبيه في علة مرضه، وصدقت رئيس عرفاء طالب فقد كان محقاً.

واستطرد قوله وهو ينعى نفوسنا: إذا ما نزل بنا الحتف الحتمي، فذاك نصيبا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.. لكن هناك موت مخروم من أن نودي بأنفسنا للتهلكة، كأن نبرز صدورنا للرصاص مثلاً، أو ندخن في زورق عائم في منطقة محرمة، وضوء النار مكشوف وعرضة للاستهداف وتمكين العدو.

تساقطت السجائر من اليد تباعاً، لتطفئ في الماء، حتى سيد عيد الذي لم يكن متجاوباً؛ أحس بإمكانية الضرر العام، الذي سيسببه في حال استمراره بالتمادي.

(٦٩)

أطالع الوجوه التي تكاد تتفجر براءة، بنشيجها الصامت، ودموعها حبيسة الأحداق، تتشبث بالحياة، عازفة عن كل الماديات، راضية بكل الأقدار؛ إلا الموت.

بدت ملامح الفجر بيّنة، وكشف النهار عن نفسه.. رسونا في مخفر (أبو ذكر) الحدودي، الذي تعرّض لهجوم مباغت، من ثمانية أفراد لقوات الضفادع البشرية الإيرانية.. ما تصدى له جنودنا البواسل، وقتلوا جميع أفراد العدو مقابل إحد عشرة جريحاً، وشهيداً واحداً. دقائق قليلة ورسى الزورق الثاني، الذي كان على فاصلة غير بعيدة عنا، كإجراء إحترازي وإسناد.. وكان سامي في قيادة

اللامباليين في المعركة، نزل وهو يضحك بسذاجة، ما أن رأى قتلى العدو، وأطلّع على جرحانا والشهيد قتيبة الذي أبلى بلاءاً حسناً في المعركة. خلس فجأة، وسارع بنقل الجرحى بالزورق، وهو يشحذ همم الواقفين؛ وقابلته أنا بنقل الشهيد المكفن بدثاره.

انطلق الزورقان للمرسى الخلفي، لإيصال الجرحى بأسرع ما يمكن، مع أن معظم الجرحى بدت جراحاتهم متوسطة إلى سطحيّة.

استقبلنا رئيس عرفاء السرية عريف خلدون.. قام بتسجيل اسمائنا وعناويننا، تحسباً لأي طارئ. وعندما سألني عن عنواني، استوقفته كلمة البصرة، فنظر في وجهي متفحصاً، من دون أن يعلق؛ فيما كنت أنا في حال لا أحسد عليه.

مخفر حدود دولي كجزيرة نائية، محاط بالماء من كل جانب، وتحت ساتره الترابي الواطئ، جثامين القتلى؛ أربكني الوضع جداً، وأنا أنظر إلى أحد الجنود، وهو يدفع بالجثة بيديه، ويغترف الماء ويشرب. استنهضت الشمس أماني الحياة، وبدأنا نتفحص المنطقة جيداً، المغطاة بالقصب العالي، ما عدا سبل ضيق أشبه ما يكون بممر مائي وحيد؛ لا يتسع إلا لزورق واحد.

دار الحديث بيننا وبين الجنود المتواجدين أبان الهجوم، وهم يتحدثون عن بطولاتهم بتفاخر، فقلت لنفسي:" فعلاً أبطال، حتى وأن كانوا كاذبين، فقد استطاعوا النفاذ بجلدهم، والنجاة من الموت؛ فهي بطولة بحدِّ ذاتها.

الكل بدا يشيد بحاج غزوان، الشخص الأكثر بطولة، إذ كان الاختراق من جهته، فكان أول من كسر شوكة العدو بقتل أول المتسللين على موضعه الدفاعي، ثم رمى الباقين بقنبرة هجومية، قتل الثاني، وأعاق الثالث.. فاستفاق كل نائم وغافل من جنودنا، واستماتوا في صدِّ الهجوم؛ الذي كان من المحتمل أن يتعرض الجميع فيه للأسر، أو الابادة بالكامل.

لا رحمة في الحرب. هكذا عبر طالب عن رأيه في حديثه أمس.. بينما كان خلدون يعبّر عن امتنانه للحاج غزوان ـ أكبر المقاتلين سناً ـ وهو يقبّله على رأسه، فسارعنا نحن القادمين الجُدد على معانقته، وتحمّد السلامة له، ولسائر المقاتلين.

قال خلدون: لا أحب أن أزعجكم بالأخبار السيئة، لكن بما أني آمر القوة، فأحب أن أبلغكم بأننا بعداد المحاصرين، ووفق ذلك أرتب الواجبات النهارية، أمّا الليلية فهي بكامل القوة، ما يعني لا نوم أبداً، فنحن معرون لهجمات ارتدادية، أو بالأحرى انتقامية، إذا صح التعبير؛ ولم يتوقفوا حتى يأخذوا جثامين قتلاهم.

بدا الخبر مسيء جداً، ومثبط للعزيمة، وينحو للانتكاسة.. فعلق رئيس عرفاء طالب، الذي بدا أعلى منه رتبة، وخبرة، وأكبر منه سناً: قم بترتيب الواجبات بصورة عادلة؛ وإكفنا شرّ خطاباتك.

انفرجت عن وجوه الحاضرين ابتسامة خاملة كسلى، كأبدان مُساقة إلى السلخ.

أيدّهُ حاج غزوان الرجل الاربعيني، الهزيل البنية مشيداً ومشجعاً: كلكم ابطال، وهذه أيام مجدكم؛ فأن عادوا عدنا غير خائفين ولا متأسفين.

(٧٠)

هل حقاً نحن أبطال، أم هذه كذبة بيضاء، تشجيع صفيق؛ لا يحفز العقل الباطن المنكسر معنوياً.

في أبعد منطقة من الأرض، وأقرب منطقة الى الآخرة (الأرض الحرام) كانت التفرقة والمناطقية متأصلة جذر بجذر.

قام بعض جنودنا يفتشون جيوب القتلى، وهم جثث هامدة في الماء.. في جولة البحث عن غنائم، ساعات ومسبحات خضر ميالة للصفرة من نوع (بازهر)، كتيبات أدعية ومصاحف صغيرة، وبعض الأحراز، وجزدنات بمبالغ زهيدة، وصور عائلية؛ كلها جُردت في أقل من ساعة. علق أحدهم على كتيب مفاتيح الجنان قائلاً: ما أغبى من يصدق بأن هذا مفتاحاً للجنة.

تمنيت لو أني اجيبه، وافضح غباوته، وأعريه أمام الخلق؛ لكني تحاشيت أن أخوض صراعاً، لا تحمد عقباه.

لكن سيد عيد كان له بالمرصاد، فقد كفّى ووفّى عندما ردَّ عليه: هذا واحد من أشهر كتب الادعية والزيارات، لكنك أغبى من أن تميّز بين البعرة والعذرة.

لم يسكت هذا الجندي للإهانة مكتوف الايدي، فوثب من مكانه صارخاً: أنت فارسي مجوسي.

فقام رئيس عرفاء طالب من مكانه، وقد أمسك بتلابيب معطفه، مهدداً: إذا ما سمعتك لفظت هذه الكلمة مرة ثانية؛ لألحقك بهم ـ وهو يشير إلى القتلى.

فسكت مأبوناً مخزياً، لم يحر بجواب.

وألتفت إلى سيد عيد وبنبرة غضب قال له: لا أسمع منك بعد اللحظة، أية كلمة، أو نقاش طائفي.

كانت بناية المخفر، بناية تعود للسبعينيات، شيدت بالطابوق على مساحة ٣٠٠ متر تقريباً، تتكون من ثلاث غرف منام، ومشتملات وصالة كبيرة، وكان يحيط المبنى بمساحة ترابية، وممرات اسمنتية، بعرض متر واحد باتجاهين، ما عدا الواجهة كانت معبدة بالإسمنت مساحة لا تتجاوز ثمانية إلى عشرة أمتار على شكل دائري مع سدة ترابية بارتفاع متر واحد، وزعت على شكل متساو كمواضع دفاعية.. وكانت مجهّزة بذخيرة حية تفوق المتوقع.. إلا إنها خالية من أي سلاح ثقيل، ماعدا رشاش (ديمتروف) ثنائية، من اسلحة الدفاعات الجوية المتوسطة، نصبت فوق البناية؛ توقفت أثناء الهجوم.

ما يزال عبد الله النجفي يفتش في جيوب القتلى، ويدقق النظر في الايادي، بحثاً عن أي خاتم كان، فهو من الاشخاص الذين يعرفون قيمة الحجر الفيروزي، المعروف بالحجر الرضوي، التي تشتهر به إيران.. وعندما يأس من ذلك أفرغ بضعة رصاصات في جسد أحد القتلى.

فذهب له سيد عيد ليوبخه، وهو منفعل، لكن رئيس عرفاء طالب اعترضه، ومنعه من ذلك.. بينما هبّ له خلدون، وتلّه من كمٍّ قميصه، وعنّفه وسخر منه: بالأمس كنت محتمياً في المراحيض، واليوم تظهر بطولاتك على القتلى.

وكان عبد القادر التركماني، ينظر للموقف باحتقار، وبكل جرأة متهكماً: شتان ما بين بسالة أبن الغربية، وسفالة أبن الجنوب.

لم يستح عبد الله النجفي، من هذا التقريع، وهو يمشي الهوينا، بغرور وتباهٍ.

بدوت أنظر لوجه طالب الذي بدا يتطاير الشرر منه، وهو يحاول أن يكتم انفعاله ويكظم غيظه، لكن من دون جدوى.. فحث الخطى وراءه، فشخصت بينهما، ذاك لاذ فراراً، ربما الى مخبأه السري المراحيض.. ورئيس عرفاء طالب احترم رغبتي، ورجع معي، وهو يتعوّذ بالله، ويسترجع، قائلاً: "إياكم والمُثلى، ولو بالكلب العقور".

ومن ثم وقف على القتلى وهو يفكر بطريقة إكرام الميت، لكن لا يابسة في هذه الانحاء.. قرأ الفاتحة بصمت، وهو ينعى نفسه.. وحملق في وجهي وقال: الحرب مروءة.. وفي السنة المطهرة ما يكفي للرشد «لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل».

* *

أيام الحزن

(٧١)

إنَّ أخشى ما أخشاه أن تطول أيـام حـزن الأحيـاء، والمـوتى فـي فرحٍ عارم.

لولا قسوة العقاب وصمت التحاشـي، لكانـت هنـاك ألـف حـرب وحـرب داخلية، تؤججها السجالات العقائدية، والمناكفات المناطقية.. وكل ما بُني على سبيل الانتقاص والسـخرية، لـيس إلا لتزجيـة وقـت أربـاب الضـحكة الغاشـمة، وأشباع نهم كروش البلادة، وديوثي السلطة.

ولا أجانب الصواب إذا ما قلت: متى ما كـان القـانون يحتـرم الانسـان كـان للوطن قدسية ـ هكذا استنتج جمال كتحصـيل حاصـل لنتيجـة اخـتلاف الـرؤى والظروف في حكايات زملائه.

كان الجيش يُشكّل مـزيج فسيفسـائي، متجـانس وغيـر متجـانس، مـن كـل أبناء العراق.. لم أسـمع أحـداً يـتكلم عـن هيبـة الـوطن، وعـزِّ الـوطن، مـن هـذا العسكر العريض. بعدما وجد الكلُّ نفسه مدافعاً عن حياته؛ القيمـة الأكبـر لديـه.. الكل متهكم ومحتقن بالغيظ، متذمر من كل شيء، لكنه في الوقـت نفسـه، غيـر

مستسلم، مقاوماً مستبسلاً، لكلِّ منغصات الحياة.. حتى الوطن الذي كان عديل الروح شرعاً وقانوناً، كان حكراً لفئة معينة دون غيرها، ما جعلت منه كلمة جوفاء، لا قيمة لها ولا اعتبار.. أمام شعب كامل أرتهن بجريرة قائد فاسد، ونظام أفسد، وشعب مطارد، ربما من أقرب الناس إليه؛ هكذا كان حال البلاد بطريقه للهلاك.

الوجوه شاخصة الابصار، على المياه والقصبات القريبة.. كل نصف ساعة أو أقل، تُمشط المنطقة بالذخيرة الحية، في أوقات متفاوتة، ومقسمّة بين حضيرة وأخرى.. الرصاص يعانق الماء، يفتح ثغرة، ينزل للعمق، بحثاً عن متسلل بشري.. بدا توزيع الأفراد على شكل حضائر وفق الحس المناطقي اختياراً، لاعتبارات أهمها: أنَّ كل شخص يعرف عنوان صاحبه بدقة، تحسباً لإيصال جثمانه إلى أهله، أو إيصال خبر منه، فيما إذا تعرض للأسر أو الاصابة.

كان على جانبي الأيمن سيد عيد، وعلى الجانب الأيسر سامي، الذي وجدني أقرب الناس إليه.. فتجاهلت حقيقة أفكاره لاستثنائية الظرف، ولا أعرف لماذا شعرت اتجاهه بالرحمة، أو الاشفاق عليه.. كنت أخشى أن أطيل النظر والتمعن به، فيحس بتعاطفي معه، وحناني عليه، ويبني تصوراته على هذا المنوال.. غير ما يعتصر قلبه من ريبة بالمقابل، وشعور يخضع لمقياس إزدواجية التفاضل لديه. كأن أكون أنا المحتاج إليه، والخائف الذي يلوذ بسده، وارجو التقرب إليه.

كانت عيناه لم تنفك تحملق بي بابتسامة مشوبة، سألني بهدوء غير معتاد: كم أنت محظوظ، قد فلتّ من الاعتراف. ثم ضحك واستطرد: لكني وراءك وراءك، حتى انتزع منك اعترافاً حصرياً.

أجبته بابتسامة فارغة كقلبي اليوم، الذي يتوسل النجاة، في هذه البقعة المخيفة من الارض، وأنا أحافظ على استعادة شرود ذهني، وتشتت افكاري، وأسعى جاهداً، لتمكين ثباتي، واظهاره بأحسن حلة؛ لم تكن ابتسامتي الباهتة شفيعة، إذا لم اصدح بإجابة بيّنة.

ما دعاه ليكرر السؤال بصيغة أخرى: لا جدوى من التملص؛ فأبدا من حيث انتهينا.

أتجد الظرف مناسبا. هكذا صددته.

لكنه كان أقوى من أن يستسلم بسهولة: ما زلنا أحياء، فكل الظروف مناسبة.

تداخل السيد عيد معرباً عن استغفاله: أما تشركونا بالحديث ونفهم، أو تسكتان لنسمع لصوص القدر.

لم يكن سامي مهذباً، وأن بدا محترماً، فطباع السوء لا يُسدل عليها ستار، ولا تخفى بدثار، فوثب متسائلاً: اعذرني سيد لهذه الفجاجة؛ هل أنت سيد أصلاً، أو إنَّ اسمك هكذا.؟!

سيد عيد برحابة: نعم أنا سيد أصلٌ وفصل.

سامي مختنقاً بالكلمات: لكن عذراً، كيف وأنت أسود.؟

سيد عيد ممتعضاً، لكن لم يجد بداً من الردِّ عليه وإقحامه: دول افريقيا مليئة بالسادة الهاشميين السود لوناً، البيض قلوباً وعملاً.

سامي بلجاجة: لكني أعرف...

قاطعه السيد بقوة: أنت لا تعرف شيئاً.

سامي بعناده وجلافة طباعه: لا. أنا اعرف، وأعرف جيداً، أن أحد أجدادك دنيء النفس أشتهى سوداء فواقعها.

(٧٢)

أظن أن كل الحماقات التي يرتكبها الانسان مبررة، إذا كانت بحكم الحاجة، دون التجاوز على حظوظ الآخرين.

للحظة السابقة التي دار بينهما الحديث، أصبحا صديقين لا يفترقان.. ضحك ُحد الاستعباط، ولغط ُحد الاسفاف، وتراشق بالنعوت الماجنة وتنابز بالألقاب.

قلت في نفسي: (عدّها على خير يا رب).

قام أحد الجنود المعنيين بتوزيع الارزاق، وبما أن لا أرزاق طرية، ولا أرزاق جافة، ولا طعام احتياطي.. قام بتوزيع الشاي في ترمس كبير. عليه الشاي، وعليك أن تحضر كوباً، أياً كان زجاجياً، أو بلاستيكياً.. حتى أن بعضهم أستأثر علب العتاد البلاستيكية لقنابر الهاون، وقصها على شكل أكواب، وتم استخدامها بشغف ومحبة؛ فالشاي عديل الحياة، كابح السهر، مُذل الاحلام.

جاء عبد القادر التركماني يهمز ويلمز، ويسب ويلعن حاج غزوان وجماعته، ويذم بأخلاق المدن الغربية، ويتهمهم بالعنصرية؛ بعد أن طردوه بسبب سوء خلقه.. لم يسكت سامي كعادته: أنت ملون كالحرباء، بالأمس تمدحهم وتثني عليهم، واليوم تثلبهم وتلعن خيرهم؛ والكل يعرف حسن خلقهم، وسوء خلقك.

فتحامل عبد القادر على سامي ليضربه، فما كان من السيد عيد إلا أن حال بينهما. فلم يجد عبد القادر بداً من الانسحاب مذموماً مخذولاً.

فظهر له عريف خلدون الذي يمقته لأكثر من سبب، حتى كاد ينطحه، وهو يهدده إذا لم يغيّر أسلوبه، ويحسن خلقه، فأنه سيلاقي مصير من في الشط.

أحسست بالتقصير بحق سامي، لأني لم أواجه عبد القادر معه، مثلما فعل السيد عيد. لكنني وأن لم أكن محباً للشجار، واستبشع الصراعات؛ لكن تبقى للمواقف الطيبة مجالس وألسنٌ تتناقل.

سأل السيد عيد: ما قصة الاعتراف.؟ أراها فكرة غبية، خاصة إذا كانت بشكل علني.

قلت: إذا تراها كذلك، فما جدوى معرفة المغزى منها.

قال: مجرد فضول لأعرف القصد منها؛ ولأي هدف تتوخى.

لكن الهدف كان أكبر من ان يُشرح ويُفصل بإسهاب ممل، قد يبعدك عن الهدف المرسوم له.. كنت أُبرر ذلك بصمت، وإذا بسقوط قذائف هاون، تلاه

صوت انفجار وارتجاج مهول.. فصاح طالب: انبطحوا جميعاً، لا أحد يرفع رأسه.. لم يكمل كلامه بعد، وإذا بصوت انفجار ثان؛ كان على مقربة من المخفر.. وكان صدر الماء يمتص هذه القذائف دون أن يفلتها، فلم نحس بتشظٍّ لها، غير صوت ورجة، وكتلة من الطين الاسود، التي علت الماء؛ لتسد حيّز الدخيل القاتل.

ثلاثة انفجارات دلالة على تمكن العدو من رصد المخفر، ووقعه تحت احداثية المدفع.. وهذا الأمر المتعثر مجابهته، وهو ما يُسرّع بعملية الابادة لو تغير توجيه المدفع إلى سنتيمترات قليلة؛ لكانت دقة الاصابة مائة بالمائة.. وكأن رئيس عرفاء طالب يقرأ افكاري، إذ قال لي: بين تقدير الانسان، ولطف الرب؛ بون شاسع.

وأخذ يتجوّل على باقي الحضائر، ويوجه نصائحه لكل الجنود.

لكن لفت انتباهي سيد عيد، الذي بدا متخوفاً، من احتمال سقوط قذيفة هاون، فوق إحدى المواضع المليئة بالذخيرة الحية، بما فيها قذائف الهاون ٦٠ ملم، وقذائف آر بي جي ٧ وسائر الاعتدة الخفيفة؛ فهي تعلن عن كارثة حقيقية، جهر سامي بذلك إلى عريف خلدون.. وكان الأخير أن تشاور مع طالب الرتبة الأعلى.. فقررا العمل في الصباح الباكر، على نقل وتقليل اعداد الذخيرة، من المواضع المتقدمة إلى داخل البناية.

لكن سيد عيد أجاب الحاضرين بضحكة استعباط تشبه وجهه: إذا اصبحتم وأصبحنا.

(٧٣)

سلبية الحياة هي الطاقــة المكملــة، التــي تجعــل مــن التنــافر قــوة لتدوير الحياة.

لم أشأ لاعترف لأحد ما، أياً كان، فأن بيني وبين الرب ما يكفيني، عن مسألة البشر.. ربما كان الحاح وسام بالاعتراف، عائدا لهول حجم ذنبه، أو البحث عن طريقة مثلى في التكفير عن ذنبه.. خاصة وهو ممن صحح الخطأ بالخطأ، اعتداء على شرف فتاة بريئة، وتركها حاملاً وقذفها ببهتان، ولم يكتف بذلك، فارتداده عن الدين، واعتناق أفكار الحادية، والترويج لها.. كلها ذنوب كبرى وآثام خطيرة لا يمكن غفرانها بأي شكل من الاشكال إذا ما قرنت بالتوبة النصوح. رجعت إلى نفسي عن تفكير سوداوي، لا يدل إلا على النقمة من شخص وسام، لربما بسبب زجي في رحى المعركة، وتفضيل غيري عليّ.. ولا اجانف الحق إذا ما قلت أنَّ هذا واحد من أشد ذنوبه؛ خاصة إذا ما تعرضت إلى أي مكروه.

قلت لسامي وقتها: هل ثمة خلاف بينك وبين وسام.

غاص سامي في داخل السؤال: إذا كنت تعني ارسالنا لهذا الواجب فلا أظن غير العشوائية التي يقتتل من أجلها.

فأدركت عندها إنَّ وساماً فاقدٌ للأهلية، فهو مركوب من الشياطين وممسوس بضر جرائمه.

كانت الليلة الثالثة، التي تمر علينا في هذه العزلة المخيفة، ونحن تحت رصد العدو، وامكانيته بالفتك، شئنا أم أبينا؛ مصيرنا لا يختلف كثيراً عن هذه الجثامين التي مازالت عائمة.

في نهار اليوم الفائت، كان نقص الطعام واضحاً بشكل كبير، ناهيك عن انعدام الماء الصالح للشرب، الذي تعرض خزانه لعدة اطلاقات نارية وقت الهجوم، ما أدى الى تسرب الماء بشكل كلي، وان كان ماء الهور يفي بالغرض؛ لكنه يظل ملوثاً بشكل كبير.

قام بعض الجنود بجولة لجمع الصمون ـ الخبز العسكري ـ المرمي في الماء، ما كان منه بمحاذاة الساتر، وقاموا بتجفيفه بالشمس التي بدت خجلى من أسراب الغيوم الحائمة في فضائنا القريب.. لم يصبروا طويلاً، فقد فُتت الخبز اليابس، ووضع بقدر كبير، مع معجون الطماطم، والقليل من البهارات، وهرس جيداً، لتجانس الخلطة، لتكون وجبة، تعبر بنا تضور الجوع لهذا اليوم.. يُقال إنّ الجندي لا يمرض، فإما يأخذه الرب، أو يأخذه العدو أسيراً.

فأكل من أكل، وهناك من تذوقها بنفور، وآخر كسيد عيد وهو يتمطق بشفتيه العريضتين؛ وكأنها أحلى وجبة.. وكان سامي بموازاته، وهو يتجاوب معه، وتمنى وقتها العرق المسيح؛ كما أعرب.

لكن رئيس عرفاء طالب لم يسكت له فرّده على سجيته: أنت صبيٌ نجس؛ لا تحترم النعمة، ولا تحترم الحضور.

سامي بحقارته المعهودة، بالرغم من خوفه من أن يتعرض للضرب، قال: الصبّي يحيى، يتنعم بما لذّ وطاب في الخلفيات؛ وأنت وسط الموت.

فأنتبه إليه طالب مستغرباً: ألست أنت الصابئي.

فهزَّ سامي برأسه، مستبيناً: لو كنت كذلك لوجدتني في الخلفيات.

فلم يكن من رئيس عرفاء طالب إلا الاعتذار، وأنه أساء الظن، فهناك خلط بالأوراق، بعدما اعتقده صابئياً، لكونه يعلم بأن أحد افراد القلم منهم.

لكن سامي ضحك بنشاز، وهو يقول: لا تعتذر فليس ثمة فرق بيني وبينه، فإذا كان يحيى يحتسي كأساً واحداً من المشروب، فأنا أحتسي زجاجة كاملة؛ وأطمح بالثانية.. وإذا كنت تعني النجاسة، فربما هو أطهر مني، لا، بل أطهر مني كثيراً.. ثم سكت قليلاً، وهو مغمض العينين، واستطرد بعد برهة من الصمت: لا يغرنك الموروث العقائدي، فانا كلب بن كلب.. ورجع بخطى وئيدة اتجاهي، وبصوت أشبه بالهمس، ردد: وأحمق إلى درجة أن أصدق جنيين كاذبين؛ وأكذّب نفسي وواقعي.

(٧٤)

قد يكون نصيبك من الحب، كنصيب قيس من ليلى، مجرد أحاسيس لهفى، واشعار مجنونة.

كم تمنيت أن أحكي قصة حبي، التي ما تزال تؤرقني ذكراها، أحس بغصة شجون، ولوعة التباريح، ولواعج الشوق والحنين، الذي يصعد بي حيناً وينزل بي أغلب الأحيان.

أتفادى الذكرى، وأتفادى البوح، واستحي أن أغمط حق قلبي بالحب، وأنا لا املك مقومات الروح، من التضحية والايثار، دين المحبين، إذا ما كان دين المخلصين.

ابتهجت كثيراً بقدوم أول زورق يكسر الحصار، لينزل بقدرين كبيرين من الأرز والمرق، وكيس من الخيش مليء بالخبز العسكري، وصندوق طماطم وبطاطس وبصل، وكيس للشاي وآخر للسكر.. وأنزل أحد الجنود نضائد لأجهزة الاتصالات، وخزانين معبأين: أحداهما بالبنزين، والآخر بالنفط الابيض.

جرت الأمور على خير، فرحتُ بعد وصول كامل الامداد، والأجمل أن يعود الاتصال بيننا ومقر الوحدة، نزل السائق وهو مغموراً بابتسامة عريضة، وتوّجه إليّ قائلاً: هيأ أغراضك، لترجع للفوج؛ ملازم خالد يطلبك بالاسم.

تلكأت كثيراً، بدأت أتأتئ في نفسي، كالمختنق بالكلمات، التي لم تكد تنطلق: سأعود للقلم، بعيداً عن خط النار، وأرض الحرام.

فلم أشعر إلا بيد تهزني بقوة: أصح.

فتحت عيني من حلم جميل، بشارة من عالم الغيب توشك أن تتحقق، وتزول عني هذه الغمة، وأهجر هذه الارض المعزولة القبيحة؛ بلا رجعة.

قال لي سيد عيد مبتسماً: عسى أن يكون حلم خير.

نظرت بوجهه دون أن أنبس ببنت شفة، ثم استطرد كلامه: تركناك تنام لإحساسنا بتعبك.. لكن الحلم خرج من رأسك، وأنت تصيح ملازم خالد.

كنت أول ما صحوت من حلمي الجميل، وأن كان خادعاً.. كانت المنطقة الشمالية من الهور، مشتعلة بالرصاص الخفيف والمتوسط ما زاد من تأهبنا واستعدادنا.. وكان لخلدون وطالب مسؤولي القاطع جولات وصولات، تحث على الانتباه واليقظة، وكذلك تمشيط المنطقة رمياً بكثافة.. قام جنديان بتوزيع العتاد بشكل اضافي، وقام الطباخ بإعداد الشاي الاسود (السنكين).

السيد عيد غير مبال، قال: ربما هناك تعرض على قاطع ما، أو مشاغلة.

بيد أن سامي أجابه على الفور: نحن على أُهبّة الاستعداد.

إلا أنا جالت بعقلي أفكار شتى.. بنات افكاري العاهرات تستغاث بهذا المسؤول وذاك، رجاء الافراج عني من سجن الموت، حتى أن الأماني باتت تحاكي الاحلام، تصرخ بإذن النفس الصماء ـ هكذا تدور في خاطري ألف أُمنية، وكل هذا الكم الهائل تسيّره رغبة واحدة، أُمنية الخلاص من هذه الأرض المنحوسة.

فلا طعام جاء، ولا إمدادات أُخر، ولا تعزيزات، ولا اتصالات، ولا أمل؛ إلا رحمة الله.

لكني استبشرت خيراً، فعملي مهم جداً، ولا أحد يقوم به غيري، وربما ملازم خالد يستدعيني للضرورة؛ بعد أن فرَّط بي وسام.

في العاشرة صباحاً، ونحن غارقون في النوم، تعالت الاصوات دون انقطاع: جاء الدعم، جاء الخير، جاءت الارزاق.

فوثبت من مكاني قافزاً، لأنظر للحلم الحقيقي، نفس السائق وأفراد القوة نفسهم معه.. تسارعت الأيادي لإنزال الأرزاق الجافة والطرية، أرى نفس قدور الطعام؛ وكل ما رأيته في الحلم أصبح حقيقة.. الوجوه البشوشة، كأنها افراح النجاة؛ وبالفعل فأن الجوع موتاً بطيئاً. هبّ كل النائمين لمساعدة بعضهم الآخر، في إيصال الأرزاق للمطبخ وإعداد القصع وغسلها جيداً، حتى أنَّ بعضهم غير عابئ بنظافة القصعة، بعدما كانت البطون غرثى متضورة؛ لو أمكنها ان تأكل الحجر لفعلت.

وأنا أُطالع بين كل هذا الجمع وجه السائق، الذي بدا أصفر اللون لشدة الخوف، وهو يكسر الحصار، في الوصول إلينا.. لكنه لم ينظر لي، ولا أحد آخر يناديني ويبشرني. إلا أحد جنود الآليات الذي صعد من ضمن القوة، نادى على سامي، وهمس بإذنه.. فطالعت وجه سامي، وقد بدا مخطوفاً ومنكسراً.

(٧٥)

ما أقبح الأحلام التي تبشر البطون والفروج، وتمنع الروح بُشراها.

ليس من اللائق أن أركض وراء سامي، متوسلاً سماع ما أسرّه السائق إليه، وأنا متأكد أن الاعراض عنه، خير من معرفته.. الخبر الذي غيّر وجه سامي، الذي ما كان ليتغير إلا بالشديد القوي.. فصرت انظر، وكلي أمل سماع ما هو أحسن وأفضل، وأن لم يكن أفضل من سماع خبر عودتي لمقر الفوج، والابتعاد عن هذا المكان النائي، بأحلامه الكاذبة، وبشائره المستقبحة.

رجعت لأكمل نومتي، وأشد ما أخافه هذه المرة، أحلام تخالف الرغبة، وتجدف بي بعيداً عن واقع المنى.. وإذا بلغط وجلبة في كل مكان، مع السائق الجديد الذي رابط بزورقه معنا، وحزن، واسف يغمر الوجوه، مات فلان، وأُصيب علان؛ كنت أعرف معظم الأسماء.. إلى أن تناهى إلى مسامعي استشهاد ملازم أول خالد الضابط الإداري، وإصابة باسم الذي رافقه ليلة أمس، في شن هجوم معاكس؛ لاستعادة منطقة الترابة.

فبكيت بكاءاً شديداً، أسفاً عليهما، وربما على نفسي بشكل أولى، وتدثرت بدثار العتمة، الذي إذا ما حماني من برد، فهولا يحميني من هاجس صارخ.

طبطب سامي على كتفي، وهو يعزيني في نفسي؛ إلا أنه بدا لي غير مكترث.. وكأن ملازم خالد كان عبئاً عليه، وأُزيّل عن صدره.. أما باسم وإن كان مصاباً، ويشخب بدمه، وربما تكون إصابته بالغة الخطورة؛ فلم أجد في نفسي ما يهتم اليه. ربما لأعماله الدونية، وعقدة الكره، ولتعاليه الزائف، وعقليته المنحطة؛ لا شيء فيه يستحق التعاطف مني، أو الاشفاق عليه.

رجعت لنفسي بعد صراع جريء، وتعوذت بالله من الظلم، فليس من حقي أن أحكم على إنسان ما؛ أراد له الله ما يعلم من الخير والثواب، أو البلاء والعقاب.

الخبر المؤسف أن اثنين من جنودنا الجرحى، التابعين لمخفر (ابو ذكر) قد ماتا، قبل وصولهما للمشفى.. وهناك اعداد غير معروفة من الأسرى في قصبة الترابة؛ والحرب جارفة، والأيام دول.

عاد عليّ سامي القول: اقترب موعد الرواتب، احتمال ستعود قريباً، خاصة بعد فك الحصار.. حتى وأن وقع الاختيار بانسحابي، فسأرفض لأجلك.

فعلاً إن من المضحك المبكي، أن يتعاطف معك، ما لا تحمل له إلا الانتقاص والمقت.. فكم أنت تافه أمام المرآة، وانت تحدّث نفسك بالدين واليقين، وفي قلبك غلالة سوداء من الكره والاقصاء ـ عقدة المؤمن ـ رجعت لنفسي بذات الصلافة وذات العهارة، بعد أن اعتبرت كلامه مجرد هيلمانة نفاق.

وأن كان الوقت حقاً يوشك على إتمام النشر، لأطلاق الرواتب، وأنا الشخص المعنّي بذلك، إلا اللهم إذا كان هذا الشهر مستثنياً من الراتب؛ ولا أظن.!

لكن سرعان ما أبتُ إلى خوف حقيقي، ربما يفعلها وسام هذه المرة عمداُ، ويطالب بإرجاع سامي؛ وتركي هنا.

لكني ما فكرت بين كل هذا وذاك، من يضمن لنا الغد، الذي بدا بعيداً، وبعيداً جداً؛ استطالته الروح، وأمّله الجسد عبثاً.

ما أن يدخل الليل يتشبث الكلُّ بالفجر، كان جميلاً أن نرى الاصباح مشرقة، إلا أنا كان الليل والنهار عندي يوماً عسيراً، متساوياً بالهواجس المريبة، والأماني الذليلة؛ التي تستجدي الحياة من ميت قلب واحساس.

سيد عيد يمصُّ بسيجارة متهالكة بين أصبعيه الاسودين، وهو مكفهر حزين، على ما سمع من قتل وجرح وأسر لأصدقاء وزملاء؛ وهي المرة الأولى،

التي أراه بهذا الحال، فقال لـي، بعـدما لمحنـي أنظـر إليـه: أخشـى مـا أخشـاه أن تطول أيام الحزن ...

وإذا بانفجار مهول وسط المخفر، شعرت كأن القذيفة، سـقطت بأحضـاننا، أو بين أيدينا..

❊ ❊

ظلال وأصداء الماضي

(٧٦)

إنَّ الوجود بحاجة مُلحة لكرمِ الحياة.

ليس خطأي أنْ أعتنق حمم القذائف، وأعاضد رُسُل الآخرة المجنحين.. وأعبر للضفة الأُخرى معززاً:

لا موت..

إنَّما عومٌ مرهق..

للضِّفة الأُخرى من الكون.

تحت أجنحة الظلام، رفيف لطالما سمعته، وكذبت حدسي، وأقول إنه ترجمان الخوف.. أما اليوم فللوهلة الأولى أرى الانفجار الكبير، ذلك الذي أصكٍّ وسام به مسامعنا.. أنظر للسُدم المهولة، للغبار الذري، للدخان الذي ما يزال يتسع أكثر فأكثر، ويشكل لوحات زيتية باهتة ومروعة: صور اشباح سديمية، وجبال تتساقط على جبال، وما بين كل كتلة وكتلة بحر من ظلام متشابك بخيوط سوداء، لا ترى شيئاً، ماعدا صوت تمدد ومط، يُجر بقوة غير

مسبوقة ومجهولـة المصـدر.. الظـلال بـدا يـنكمش متعثـراً بالمسـافات الشـاهقة، منكسر الحس، مهما بدتِ الاصداء عنيفة ومدوية.

أول استقبال كبير لي واحتفاء بي، كان أبي بثـوب ناصـع البيـاض، وعمامـة خضراء ذات ذؤابة، شُمّرت على جيبه الأيمن، وهـو متهلـل فرحـاً.. ويلـوّح إلـيّ بيدين تتلألأ نوراً، وبوجهٍ مشرق بشٍّ كفلق الاصباح.

وكأني أتساءل:" هل هذا هو لبـاس المـوتى؛ فقـد تركـت أبـي حيـاً، حتـى الأمس القريب".

وأطلتُ النظر فيه ممعناً بكل التفاصيل التي أعرفهـا فيـه؛ هـو ذا. إلا تفصـيلة واحدة، فما كان أبي يحمل هذا الوجه المبتسم النضر، الذي لا يضحك إلا بشـقِّ الأنفس؛ بعدما كانت أمي تناكفه في كل صغيرة وكبيرة.. إلا إذا كـان الخـلاص من زوجة نكدية، أو الصبر عليها يُدخل الجنة.

وأنـا أحـدق بـأبي الـذي بـدت صـورته تختفـي تـدريجياً، وإذا بأشـباح اجدادي، واثنين من أعمامي وأخوالي، وأنا متأكد بأنهم أحياء يرزقون؛ أو علـى الأقل هذا ما تركتهم عليه قبل شهر تقريباً.. فاعتقدت وأنا كلـي خـوف، بـأن مـا رأيته من انفجار، لم يكن بالانفجار الكبير (big bang) النظرية السـائدة فـي علـم الفيزياء.. بل هو ناتج عن قنبلة ذرية، فلتت من السـماء.. ربمـا دعـاء عبـد صـالح مظلوم، خسـف بنـا الارض؛ وإلا مـا الـداعي لأرى كـل الـذين خلفـتهم أحيـاء، موتى في وقت واحد.

وحالما بدت الصور بالتراجع، طلعت عليّ صورة أمي متهللة بشرة، بلباس أبيض فضفاض، كلما أمعنت النظر بها خفت وتراجعت؛ وإن كانت هناك قوى خفية تدفعني إلى الأمام.. بدوت عاجزاً عن الصراخ؛ لكن لسان حالي يقول: أنه لباس الموتى.. ما الذي يحدث بالضبط.؟! ماذا أصاب القوم، كلهم بزيّ واحد، يشي بالعالم الآخر.! وجوه مستبشرة نضرة، فرح خالٍ من الطقوس التي نعرفها، من الاهازيج التي ألفناها، من قرع الطبول والمراويس، وناي (تومان البصري)، وفرق (الخشابة) التي اعتدنا على سماعها؛ إلا إذا كان هذا زفاف في الآخرة.

أُمي اقتربت كثيراً، كأنها تحاول أن تحضنني، رغم خوفي من هيئة لباسها، إلا أني عدوت صوبها بخطى حثيثة، لأستلقي على كتفها، لشعوري بالوحدة، بخواء قواي؛ ارتميت بحضنها.. سرعان ما رفعت يدها عني، وهي تتقطر دماً عبيطاً؛ فثوبها الأبيض سرعان ما امتقع لونه، وعلته حمرة؛ بدت تتسع شيئاً فشيئاً.. فصرختُ وهي تحاول الإمساك بي؛ لكن تحاول عبثاً؛ ففي كل مرة تدور يداها حول جسد اثيري، سريع التلاشي.

(٧٧)

توّحد بي الصمت، استفرغ كل قواي الصارخة، الواثبة بالحياة؛ إلى طريق مسدود.. استسلام هادر، واسترخاء غادر.. ران على الحواس، وبدا يجلي صدى الماضي، وينزع جلد الذكرى؛ ويقلب ما أخفيت من دفاتر.

مُرر شريط الحياة أمام عيني، واستوقفني في أكثر من محطة.. حتى المحطات المشوشة، بدت لي واضحة كرابعة النهار.. رأيت الذكرى، كأني أعيشها للتو.. الاجندة كانت حاضرة في كل موقف.. تهويمة التاريخ رجعت بي مجدداً؛ لماضٍ نسيانه رحمة.

وأسمع صوت يناغم المجهول:

رحى الزمن..

عقاربها وحوشْ

تعصف بالأنا..

وتهدُّ المنى

ولم تبقِ سوى ملامحٍ ورتوشْ

إذا كانت هناك باقية..

من طيور الأماني لها ريشْ.

كان الصوت جميلاً، على الرغم من حزنه وتشاؤمه.. فتح كوة الباب على ماض عتيق، وأخذ بيدي التي أشبه ما تكون بالمشلولة، وأرى ثمة بقعة دم متخثرة، في كل ما يمكن أن تراه عيني وأنا مستلقياً.. وتبعت الصوت راجعاً بالزمن، إلى الزمن الجميل ـ كما يقولون ـ فما عدت أثق بأحد، ولا حتى بنفسي؛ التي ما عادت تشبهها بالمرة.

(٧٨)

عصرية تموز ١٩٧٣.. يوم لاهب بالحرارة، رخو في الاندفاع، تكاسل في نوم عميق.. أيقظوني من سبات حلم طويل، حلم لم أجرؤ فيه إلا أن أكون مفردة يحركها الإخراج الغيبي للتمظهر بأشكال لا تفارق البؤس مرة، والتمشكل تارة أخرى..

نظرتُ من حولي في عالم كل مقوماته كانت بدائية، في مسرحة البساطة كثوب مرتق يغطي وراءه جسداً شفيفاً، ينشد العافية، وبطريقة تجاذبية نتمعشق بالحياة، نغازل في خفاياها الهوى، ونتنفس النكبات.. وهكذا نفسلج القلق على أنه ألم عضوي، وضرب من ضروب البحث عن الذات، وأي ذات...؟!

حيث كان (سوباط) القصب يظللني، قعدتُ منعفساً، بعدما سحلت نفسي من نومة عميقة.. كانت (دشداشتي) خشنة لشدة ملح العرق، الذي بدا يرشح من كل جسمي.. كانت المراوح اليدوية (المهاف) قد انتكست هي الأخرى، بعد أن عجزت الأيادي عن رفعها، والتلويح بها، تحريكاً للهواء الذي أسكنه القيظ.. وبدت الأرض لاسعة الحماوة.. بينما كانت والدتي منهمكة برش (الحوش) بالماء، الساخن هو الآخر، لغرض إخماد حرارتها، ما زادت من تصاعد الرطوبة، وارتفاع حرارة التبخر، وطغى التعرق على أجسامنا؛ وما أزال أتثاءب بثقل.

نظرت من حولي، والدي، وإخوتي الصغار، وجدتي القعيدة، وبالقرب منهم بضعة زجاجات (السينالكو) البرتقالي اللون، بعضها فارغة، وبعضها ما

تزال مليئة وهي متعرقة كـذلك، مثلهـا مثـل أي جسـم آخـر، فـرَّ مـن الانجمـاد، ليصطدم بجو شديد الحرارة.. وكانت بالقرب من والدي آلة دائرية الشـكل، لـم أشهدها من قبل، ومجموعة أدوات ميكانيكية.

ناولوني زجاجة السينالكو، ارتشفتها بجرعة واحدة تقريبـاً دون توقـف، لـم أحس بطعمها، بقدر ما كان يهمني من حاجتي لبرودة، تتخلل جـوفي السـاخن.. نهضت من مكاني، بدأت أتفحص هـذه الآلات الغريبـة، التـي لـم أعهـدها مـن قبل، إلى أن وقف والدي بجانبي، وأخذ يربت على كتفـي بقولـه: إنهـا مشـحمة لتشحيم السيارات، ستكون مصدر رزقنا، عملنا الذي سـنأكل منـه الشـهد.. ومـن ثم لوّح إليّ بيده بالضاغط، قائلاً: هـذا الضـاغط اليـدوي.. وأخـذ مـن بعـد، يعـد إليّ: أنواع المفكات، والمزَّيت، والرافع اليدوي المسنن؛ مع شرحٍ وجيز.

إلى أن دفع علينا باب البيت خالي الكبير، ودلف إلـى الـداخل، وهـو يجـرُّ بعربة جديدة، أدخلها بشكل عمودي لضيق الباب الرئيس.. كانت العربـة سـوداء اللون، جديدة الإطارات، واللحام، والدهان الذي ما زال برائحة البتـرول القويـة؛ وهي معمولة خصيصاً لهذا الغرض بشكل مسبق.

بدا البعض يطـالع وجـه الآخـر، وانطلقـت ابتسـامات هادئـة مثيـرة للشـفقة، يعلوها دعاء جدة قعيـدة، بالنجـاح والتوفيـق، وأم مـا تـزال ترسـم خارطـة أسـرة جديدة، لم تنتعش مادياً بعد، وخـال يتوسـم الخيـر، بـأن يكـون الرديـف الأول، والساعد الأيمن في العمل، وأبن لا يدري بعد، ما ينتظره من عمل شـاق ومضـن في حياة أيسر ما فيها الشقاء.

إلى أن نده عليّ والدي، وهو يرفع بعتلة المشحمة مرة وينزلها تارة أخرى، وبذاك يكون هو طريقة عملي، كما قال لي: كلما أناديك أن تدق، فعليك أن تفعل هكذا، وهو يحرك عتلة المشحمة للأعلى والأسفل، ذات الخرطوم الطويل نسبياً، حيث يتدفق منه الشحوم بشكل مضغوط، لم أفطن إلى ما خرج منها. إلى ان صاحت به جدتي: ما هذا كأنه براز طفل.!

لكن أبي سرعان ما صاح بها، بصوته المدوي، وبصرخة عالية، قائلاً: هذا خير؛ وليس نجاسة.

حتى كنت أراها، وقد تيّبس الدم في عروقها.

(٧٩)

في اليوم التالي.. خالي يدفع بالعربة.. وأنا أتنطط عليه، فمرة أركب، وتارة أدفع، بينما وقف أبي يفتل بشاربيه فهو (الاسطى) والأستاذ، وليس من العادة أن يتنازل الاسطى ليصبح حوذياً، ويدفع بعربة، لكن مطبّات الشارع والسواقي، كانت كثيرة وكبيرة في الوقت ذاته، لم يقو خالي على اجتيازها وحده، ما دعا والدي للتنازل عن أستاذيته، ليدفع العربة برحابة، إلى أن وصلنا الشارع الرئيسي المعبد، ومن ثم اندفع خالي يهرول بالعربة، وما إن يتعب قليلاً حتى يدفعها أبي.

بينما كنت أنا فرح، وأنا راكب بعربة، يفوق جمالها عندي كل سيارات العالم.. وصلنا حيث موقف السيارات، ارتكنا جانب الشارع، بالقرب من

المـرآب، وكـان الموقـف يضـم أكثـر مـن جهـة، فمنهـا: عتبـة، والـدعيجي، والجامعة، وما إن توجهت صوب السيارات، إذا بي مطلٌ على شط العرب، ذلك الشاطئ الجميل الهـادئ، التـي تمخـر بمياهـه الهادئـة البـواخر الكبيـرة، المزينـة بالنشرات الضوئية والأعلام، ابتهاجاً بأعياد تموز، التي كانـت تفـرض علـى كـل داخل وخارج من البلاد.

لم أحس إلا بقبضة يد قوية أمسكت بيدي، وسحلتني من المناظر الخلابـة، التي يتمتع بهـا الشـاطئ، مـن معـابر حكوميـة، أشـبه بالطوافـات العائمـة، وابـلام عشارية، وحركة حثيثة لزوارق مختلفة تجوب الشاطئ ذهاباً وإياباً.

سحبني أبي إليه، وأخذ يهددني ويتوعدني، إذا ما اقتربت من الشـاطئ مـرة ثانية.. وعاد بي حيث العربة وخالي، الذي بدا مستعداً لتشـحيم أول سـيارة.. نـزل أبي تحتها، ورفعها من الوسط، بواسطة الرافع اليدوي المسنن، وأمتد تحتها، بعـد أن فرش قطعة حصيرة صغيرة، وبدا يثبت رأس الخرطـوم عنـد (اللقـم) مفاصـل الحركة الميكانيكية، ويصـيح بـي: دق (جمـولي)، فاسـتجيب علـى الفـور، وأنـا كلي عزيمة، خاصة وهو يدللني بتصغير اسمي، الذي قلما سمعته، يكلمني بهذه اللهجة الرقيقة على قلبي، وأحسست وقتها بالزهو والفخـار، كونـه يعـاملني برقـة واحترام؛ حيث طالما كان يناديني باسم: (جميّل).

وانتهت السيارة الأولى، وجاءت الثانية، والثالثة، وكـان جيـب والـدي، بـدا بالتدلي والانتعاش.. شـعرنا بـالجوع، حتـى عنـدما أشـرنا عليـه بـذلك، رفـض أن

يجيبنا إلى طلبنا، مبرراً ذلك بإفساد الغداء، إذا ما أكلنا ضحى.. لكني لم أصبر عليه، وبتحفيز ماكر من خالي، اضطررناه لجلب سندويش الفلافل؛ وما كان ليقتنع، إلا بالتي هي أحسن.

واستمرينا حتى وقت الزوال، بعدما بدت السيارات بالتلاشي، لتحاشي حمارة القيظ، ولهيب شمس تموز المحرقة.

بدت أجسامنا لا تميز، من رواسب العرق، وشحوم التزييت، إلى أن نظّفنا جميع أدواتنا، ومسحنا أيدينا بقطعة قماش، كنا قد جلبناها معنا، وسحبنا العربة بالقرب من الشاطئ الفرعي، شط (الشعيبي)، ونزلنا إلى الماء، وأخذنا نستحم، ونغسل أيدينا وأقدامنا بالطين الحري، إلى أن زال معظم الشحوم، ومن ثم استخدمنا مسحوق غسيل الملابس (التايد) لأجسامنا، بقطعة من قماش الخيش.. كانت سباحتنا تحت الجسر تقريباً، ليظللنا من الشمس، وأنا واقف عند الجرف؛ ممنوع عليّ التحرك، ولو بمقدار خطوة واحدة.. بينما كان خالي يعوم غير بعيد، ويرجع ليمسك بي، مخافة أن أنزلق في العمق.. وكان أبي يعوم كلما دلّك جسمه بالصابون؛ ومن ثم أخذ بعد ذلك، يعلمني طريقة العوم.. كان الشاطئ في حالة المد، فما أجمل تلك اللحظة، التي بدأت أعوم بها تدريجياً، لكن أبي حذرني أكثر من مرة، أن أنزل الشاطئ وحدي، دون أن أكون بصحبته، أو صحبة خالي على الأقل.

لم يكن مقدّر لي أن أعبر للضفة الأخرى؛ لعلها أقل بؤساً مما أنا فيه.

(٨٠)

ورجعنا بالعربة يتناوبها الأب ثم الخال، وعند المطبات التي تملأ الشارع، يشترك الاثنان معاً، وأنا ممسكٌ بها يميناً وشمالاً، أتأرجح بمقبضها، وأصعد برجل واحدة، وأرفع أخرى، وتارة أقعد في الوسط غير مبالٍ باتساخ ملابسي؛ المتسخة أصلاً.. علماً أنَّ وزني حينذاك، لم يكن بالمشكلة التي تعرقل مسيرهم، أصفق فرحاً، لا لأني عملت بجهد، بالعكس، فقد كان العمل كثيراً ما يسوؤني، فقد حرمني من اللعب مع أترابي، لكن أكثر ما أفرحني هو تعلمي للسباحة، حيث سبقت كل صحابي، وتوقعت أنَّ بإمكاني أن أعبر وأجوب البحار، بيد أني لا أفارق الجرف، وإنْ ضربت يدي بالماء بغية الاندفاع، كانت يدا أبي ملصقة بي، وأحياناً تكون تحت بطني، تحملني فوق الماء المنعش، باندفاع وتصاعد المد البحري.

ما أزال في العربة، أترنم بأغانٍ لم أحفظها بالضبط، سوى العناية بالدبكة والتصفيق.

ومن بين المشاهد التي لم تغب عن عيني، صورة الحاج مجيد الخياط، الذي كان يرمقني بعين اشفاق وعطف، على عكس نظرته لوالدي، التي كانت تعبر عن نظرة حسد، خاصة وهو يردد قوله بوجه أبي: تهالكوا يا بيت (الزاير) على الفلوس.. كدوا واكدحوا وموتوا وأنتم مفلسين؛ وكان أبي وقتذاك يجابهه بقراءة المعوذتين.

وأخيراً وصلنا بالقرب من شارعنا، وكان يشكل عقبة كبيرة أمامنا، بسبب المجرى الكبيرة والمتعرجة، حيث إنَّ الشارع لم يعبَّد بعد.. لكن أستاذ (غالي) مدرس اللغة الإنكليزية، وصاحب أكبر خان لبيع المواد الإنشائية، من الرمل والجص والاسمنت بلونيه الأخضر والأبيض، لديه أكثر من شاحنة قلاب خاصة به؛ والذي كان خانه برأس الشارع.. اعترض والدي، وبدا يحدثه بكلام طويل عريض، كان فحواه الحاجة المستمرة في إدامة وتشحيم الشاحنات العائدة إليه، وكانت هذه المماطلة الطويلة العريضة، تدور كلها بفلك الأسعار ونسب التخفيض، مقابل إيداع العربة وما بها من العدد داخل الخان؛ وبدون أجور إيداع وما شابه.. وبالفعل وافق الوالد مرحباً، على الرغم من قلة الأجور، لتشحيم القلابين الخاصين به، وما يكلفنا من وقت.. كما أنه وعدني خيراً، فيما إذا وصلت إلى دروس الانكليزي، فهو سيساعدني كثيراً في اجتياز هذه المرحلة، وبالفعل برَّ الرجل بوعده، وساعدني كثيراً، حتى ما كدت أهتم لهذا الدرس، بسبب معرفة النتيجة سلفاً.. فثمة شغف بعالم منفتح لكل جوانب الحياة، زاد رغبتي في التمسك بتلابيب الحياة. إلا درس الانكليزي كان سبب فشلي، وتدمير تقدمي، فهو المادة الأساسية التي أجدني أنعى نفسي في خوضها، ما جعلتني دائم الرسوب؛ إلى أنْ قادني الرسوب، تلو الرسوب، الى عالم العسكر.

* *

نزولٌ إرتقائي

(٨١)

عندما أجد مكاني من الحبِّ خالياً، ومن الذكرى لا محل لي من الإعراب؛ أثملُ بالعدم.

الاجنحة البيضاء النقية كالثلج، كانت حثيثة الحركة، تلج بي في نفق بلوري بلواذ من المرايا سداسية الشكل، أرى في كل قطعة منها آلاف الصور.. العمق الكوني الذي بدأت أسبح فيه، وهو يتلاشى شيئاً فشيئاً، فكل الكواكب الجميلة، التي نرصدها لم تكن سوى أرواح جميلة هادئة ومستقرة.. وإنْ كانت تتحرك وهي تعزف سمفونية الكون الخصيب، مع تشكيل لوحات سريالية بأبهى المشاهد والمظاهر.. وأرى من مرايا أخرى، بحور أمواجها تدغدغ بعضها بعضاً برقة وحياء.. المجرات سفن مسلسلة تجر بعضها الأخرى مرة تنتصب وتارة تتمدد؛ لتعانق بعضها الآخر.

وفي درب التبانة نجم كبير، يكنس القش الناعم، ويعزل حبات القمح، التي بدت أشبه بكويكبات صغار، تُحمل في غلال، لتزرع في مكان سحيق.. كل الكون كان متسارعاً حتى السكوت.

الأجنحة المسكينة تتابع السير، بينها وبين الاجنحة الأُخرى أجيال وأجيال، حتى الصعود بدا لي كنزولٍ إرتقائي؛ كأننا نمرُّ في الثقب الدودي. هكذا كان يسميه وسام ـ لا بارك الله فيه.

وعاد بي شريط الحياة مجدداً، يُقلّب ذكرى الماضي، وكأنه يقول لي: (قد استوفيت حقك من الحياة).

وأقسم عليه لا وحقك، ما أزال يافعاً بعد على المنى.. وأغوص في الذكرى جدلاً؛ فحياةُ ابن العدم عدم.

(٨٢)

١٩٧٩ / ١٩٨٠

فترة الصبا والطيش، والنضوج المبكر، الآم المراهقة، ومواجع الارق.

دعاني أحد أقرب الأصدقاء إلى العمل في مطعم الجامعة، بعد أن انتهيت من الامتحانات للتو، كان المطعم في جامعة البصرة/ شط العرب، قسم البنات الداخلي.. هذا القسم يحرم على جميع الطلبة، بل وعلى جميع الرجال من مختلف الاعمار، باستثنائنا نحن عمال المطعم، ورجال الأمن وحتى الأخير فهم في غرفة خارج القسم، مع الاستعلامات؛ حيث يفصلهم BRC عن القسم الداخلي.

كنت وصديقي (أحمد) نعمل من الساعة السادسة صباحاً، حتى العاشرة مساءً، نبدأ بتنظيف المطعم، وإعداد الفطور الصباحي، المتكون من عدة

أكلات سريعة، كثيراً ما كنا نصنعها بأيدينا، كالبطاطس المقلي، والباذنجان، والبيض المسلوق، والمخلمة، وإعداد الحليب الساخن، حتى يأتي الطباخ (الشيف) في التاسعة صباحاً؛ تجهيزات ما قبل وجبة الغداء الرئيسة.. ليعدّ بدوره الارز والمرق، فكل يوم يخصص وجبة معينة، بالإضافة الى السمك البحري، وكان يعمد لنا بتوجيهاته الدائمة، وفرض النظام، وبسط استاذيته في فنون الطبخ.. ونحن نرغب بتنفيذها على وجه السرعة، آملين باحتراف هذه المهنة الأشد دسماً، في حين كنا نتقاضى ثلاثة دنانير، إلى ما يقارب خمسة عشر ساعة، بينما كان يتقاضى ثمان دنانير، لأربع ساعات فقط.

أذكر يومها أنَّ حاج (مجيد) الخياط، الرجل الأكثر فضولاً في الحي، أعترض صاحب المطعم بقوله: العالم تشتغل وتتعب لتجني المال، وانت تضّيعها على (حنافيش الجامعة السامات) لن تجعل لشيبتك قيمة؛ مع ذلك لا تبخل على الشباب ـ وكان يومئ عليّ بالتعيين ـ لا أعرف بالضبط نواياه، خاصة وهو دائماً ما ينعتني بالبطل، والأبن البار، والكادح.. وحينها ربّت على كتفي قائلاً: هالله هالله ببنات الجامعة؛ كن قوياً.

فصحت بصاحب المطعم، الذي بدا كالمخلوس: حجي ـ ولم انته من إكمال الكلمة ـ حتى أجابني حاج مجيد بسخرية مقيتة: حجي (ربل).

كنا نعمل على إعداد وتهيئة وجبات العشاء، مضيفين عليها بعض الألوان الأُخرى، مثل (الجلفراي، والبتيتة جاب، والبورك، والفلافل، والسمبوسة)،

ومعظم هذه الألوان تكون من صنع أيدينا، وأخذنا نتفنن بالنكهات المناسبة، والصلصات المختلفة.. حتى وقفت علينا طالبة اسمها (منال) من أهالي بغداد متسائلة:

ـ أيكم أكثر مهارة بالطبخ.؟ أريده زوجاً.

كان سؤالها أشد من عصف الثريا على القلب، ولو بحثت في كل أركان وزوايا الذهن، لم أجد جواباً سريعاً يستوفي شروط الايقاع بها؛ أو ابعادها عني مؤقتاً.. فانسحبت متلعثماً، أجرُّ أذيال الحياء المخيّب للأمل، وأنا أردد بداخلي: (ما أجرأها من امرأة لعينة، تريد أن تقتلني هماً وانشغالاً بها).. بل وعلا صدى الصراع مع الغيظ، وعناقيد الأمل المعلقة في سماء الوهم.. كنت ممسكاً ببعض الصحون الصيني فتساقطت مني دون شعور، وانكسر معظمها، دون أن أُبالي بما يؤول إليه الأمر من عواقب وخيمة قد يذهب بأجر يوم من العمل؛ لكن التوقيت خدمني بغياب صاحب المطعم.

بقيت منال واقفة على (الريسبشن)، وكأنها متأكدة بأن هناك ثمة رد فعل، وبالفعل صدق حدسي، فقد كانت الصحون هن الضحية الأبرياء؛ ثمن المباغتة.

فنادت بي مجدداً: جمولي.. فداك الصحون يا أجمل (شيف) وأصغر عاشق.

فدلفت إلى داخل مستوعب المخزن، أكثر فأكثر لتحاشي سماع صوتها، ونغمتها البربرية، التي بدت تتنزل بي حدّ العظم، ولم يكن شيئاً بودي في تلك

اللحظة سوى الاختلاء بها، وإن كنت متأكداً، بأني أعجز من أن أطولها بسوء.. لكن بادر إلى ذهني التقبيل الذي لا يخدش الحياء، بمقدار ما يمنحها من حب.. وازدادت بي فيض الرغبة، وتمنيت وقتها أن تمنحني قبلة واحدة، سأختار رسمها على لسانها الجريء، ذلك الذي يقطر شهداً؛ أو قُلْ وقاحة لذيذة.. حتى عندما حكيت لصاحبي بعد الاستراحة، عما انتابني من هواجس منكرة.

ضحك صاحبي قائلاً: إنها القبلة الأشهى والأعذب. أمّا رأيت الأفلام المصرية...؟

وبدا يعدُّ لي أسماء ممثلات مصريات، لم أكن أعرف منهن إلا القليل، بسبب أن أكثر الأفلام كانت تعرض عصر يوم الجمعة، بينما كنت اقضي هذا الوقت، مع والدي في تشحيم السيارات، لذلك لم أكن محظوظاً في تمتيع ناظري، وتشنيف مسامعي، بمثل هذه الوجوه والاجساد الناطقة، التي تنمي روح المغامرة، وتغلب نزعة الطيش عند الشباب.

وبينما نحن نعدُّ وجبة العشاء، وننظر للصالة الممتدة في العمق، والتي أشبه ما تكون بقاعة المسرح، فنستشرفها من حيث موقعنا المطل على القاعة بالكامل.. وبينما أعمل على قلي الاطعمة، إذ أسترق السمع لهذه وتلك، واتلصص من الفجوات هنا وهناك، حيث كانت معظم الطالبات ممن يرتدين ملابس النوم ـ شبه الداخلية ـ ومنها أشاهد مناظر السيقان المصقولة والممشوقة،

والأفخاذ الممتلئة المكتنزة، والزنود المترعة، وكذلك النهود اليانعة، المدورة كاستدارة كوكب مجهول، ومختلف المكياج وقصات الشعر، كما أشم أنواعاً من عبق العطور وأريجها الفواح؛ وكأني مترام في عالم من الإغراء المذهل.. فلا حرج إن تكلمت بما لا أعي، أو مشيت نائماً، أو شردت ذهنياً إلى حيث.!

وعيني تختطف النظر صوب (منال) مع زميلتها (هيفاء) الاردنية، التي تشاطرها الطاولة.

وهن يضحكن بصلافة ونزق، إلى أن أمسكت هيفاء بمعصمها، واتجهت بها صوب بوفية المطعم.. عرفت أني المقصود، لذا حاولت الانصراف بعيداً، لكني خفت أن تحترق المقلاة بما فيها من البطاطس، فتسمرت مكاني، مرّكزاً نظري في غليان الزيت، وأحمرار البطاطس.. وأنا أشعر بغليان في داخلي، يفوق غليان الزيت؛ بما فيَّ من رجفة خجل جعلتني اتفصد عرقاً.. تغمرني في ولوج المستحيل، وتدلف بي في مساحات من ذلك الغي الجهول، إلى ان نادتني هيفاء، وهي تلوّح بأصبعيها السبابة والوسطى: (هلو جمال.. يقبرني كم أنت حلو، أسمر لذيذ.. ما أشهى ولد الملحة؛ تجوزني).

بمقدار ما اثارني وحفزني كلامها، أساءني في الوقت نفسه، بل فجّر في نفسي عصبية الجاهلية، ونعرة البادية؛ صدق من قال إنَّ العرق دساس.

فلم أفهم من كلمة الأسمر غير معنى العبد. والمشكلة أنها أردفتها بأولاد الملحة، لتقوية المعنى، ففهمتها بغير ما تقصده، وحملتها على ما فهمته أنا،

خاصة أن صاحبي لم يكن بأقل مني غباوة، فقد وثب عند سماع هذه الكلمة، وأخذ يطرب لها، ويضحك ضحك السفيه المبتذل؛ ما زاد غيظي وحنقي عليه وعليها.

ولم أجد وقتها مفردة توبيخ، سوى السباب اللاذع، خاصة وأنها كانت عارية الزندين، مكشوفة الصدر، منفرجة عن نهدين خنقهما النضوج والارتواء.

فسرعان ما صاحت بي:

ـ رويدك.. رويدك.. ما بالك لا أقصد إلا المدح، فأولاد الملحة، هم النشامى وذوو النخوة.

كان كلامها رداً على كثرة ما كررته أنا، من كلمة أولاد الملحة، حيث فهمت مني، فهمي المغاير لهذه الكلمة، وبالتالي أشفقت عليّ بكلمات ودٍّ هادئة، بقولها:

ـ لو لم نكن نحبك، لما تلاطفنا معك، أنت مثل أخينا الصغير، أنت فتىً كادح؛ وهذا وحده أسمى عناوين الرجولة والاباء.

كنت بأمس الحاجة لسماع مثل هذه الكلمات، بحاجة لمن يبرر لي جنايتي، وجناية الصغار امثالي، الذين كدحوا وشقوا لخطيئة لم يقترفونها، ولم يكونوا طرفاً بها، سوى أنهم أبناء عوائل فقيرة، وأباء لا يهمها سوى كثرة النسل كالدواب، وأمهات لا تعرف أسماء أبنائها بمقدار ما تعرفهم بالشكل، وهنّ أشد حرصاً، على أن لا تترك حولاً يمر، إلا وهي حبلي تتدلى بطنها، بجنين، سرعان ما ستجنّ منه؛ أو يجننه حكم القوي عليه...!

فقضيت يومي كله خجلاً بخجل، خاصة وأنا قد رشقتها بأنواع الشتائم السوقية، ووصمتها بالعهارة والقذارة ـ ماذا أصنع وهذا المتاح لدي ـ لكنها عاملتني بكل لطف وأدب، وراعت صغر سنِّي؛ فماذا تتوقع من تمازح من لا يفهم من عمره غير الكدِّ والنكد.

وعدتُ تائه اللبِّ، غارقاً في يم حبٍّ بعيد المنال، وفكرتُ ملياً إذا ما كبرت وأردت الزواج؛ فأنا لا أرضى إلا بمثل (منال) أو (هيفاء) زوجة وعشيقة.

(٨٣)

الكل مهووس، حتى صاحب المطعم، الذي بدا يغني بلا شعور، ذكّرني بنفسي، وبدا يخيفني أن أكون مثله تائهاً أو مهووساً بسراب، وراجعت نفسي متفحصاً ما قد يعلق بي من مسٍّ أو جنون.

شببت وفي ناظري جمال بنات الجامعة، تغطرفهن في المشي، وشعورهن المتطاير المنساب حد الورك، وهن يرتدين تنورات قصيرة، وقمصان شفافة تلوح منها صدريات مزركشة، يفلت منهن نهود متمردات.. ما زلت أرى بنات الديرة، وبنات المحافظات الأُخرى وباقي الأقطار العربية، وأنا أسبح بالشحوم، ورائحتي كلها بترول وزيوت.. ورغم جهدي في العمل المتواصل وتعبي المستمر، لم ينفك تفكيري من ذكراهن بمناسبة ومن غير مناسبة، جيئة وذهابا، وهن يملأن المعابر، والشوارع، وضفاف الشاطئ، والحدائق. حتى كان أحد

أهم المعابر، يسمى بمعبر الجامعة.. وكنت إذا حدقت بواحدة منهن، نسيت نفسي من أكون، وكأني ملك يتربع عرش الأماسي الحافلة بالسمر، إلى أن استفزني والدي بصراخه المعهود:" دق (جميّل) طاح حظك".

- ومن اين يأتي الحظ.؟! فمن يراني بلباسي المتهرئ مغطىً بالزيوت؛ يستبشع منظري.

وأحياناً تمر علينا ساعة من دون عمل أو في وقت استراحة، تنصبُّ أُعيننا على كل جائية ورائحة، ولم نحصد سوى الحسرات، والسباب الذي كثيراً ما يكون زادنا الدائم، تنفيساً لجوع مرير، ونهم لا ينقطع.. حتى والدي الذي كان يداري خبزته، ويخبئ رأسه بالرمل، دون أن أراه، أو أحس به، مخافة أن أفشي بسره، لأمي المسكينة القابعة وراء النور، كان هو الآخر يتحّرق حسرة على ذاك الساق المصقول كالعاج، وذاك النهد المدجن في حقول التربية والتدليل، والشفاه البراقة بظاهر الاصباغ، ووهج التقبيل والترطيب.. لكنني كنت أذكى من أن أفشي سراً لوالدتي، ما يحرمني بذلك نعمة الدراهم الفضية؛ التي أنسى بها جلّ تعبي، والآمي، وحرماني من اللعب.

وعدتُ أراقب صاحب المطعم، وهو يجمجم بكلمات لا أفهمها، محرّكاً بذلك يديه بشكل عبطي، ومن ثم يومئ بالملاعق والشوكات، ويرجع للتلويح بالسكاكين، وهو يغني لـ (عفيفة اسكندر):" يا يمة انطيني الدربين، انظر حبي واشوفه". وسرعان ما يقلب الموجة ليتحول الى الفنانة نجاح سلام: "الشاب الاسمر جنني يا عيوني سرق لي عقلي مني".

إلا أن ضحكي بصوت عالٍ، قطع عليه أهازيجه وترانيمه، وعومه في اليابسة، ولكثرما أخبروني عنه بأنه فاحش الثراء، وله عدة مطاعم و.. و..

ويقولون إنها السبب في تيهه وهوسه وهيامه، لكنني للحظة استنكرت ذلك عليهم، وقلت إنه جنون المرأة.

التفت إليَّ وعلى وجهه ابتسامة ذائبة، ولوّح إليّ بالسكين قائلاً:

ـ لا تتعجل، ستدرك ذلك ولو بعد حين؛ وتجن...!

لكن الحق أني أدركته مبكراً، ولا أخاف ممَ قد يفاجئني على حين غرة ـ ولو أنني مطمئن الجانب ـ أن لا أحد يعترضني، أو بالأحرى تعترضني، ما دام وضعي هو هو لا يتغير، بين زيوت التشحيم، وزيوت القلي؛ وبين حجي مجيد الفضولي، وحجي ربل.!

(٨٤)

لم أكد لأذكر شيئاً، وأنتِ اهم اشيائي، فكيف أنساك؛ وموتي يحتفي شوقاً بذكراكِ.

خريف ١٩٨٠/ هي..

مثله مثل كل أيام العمر، ذبول وانكسار، عواصف وتقلبات طقس، مليء بالمتغيرات والمفاجئات غير السارة، حتى العصافير راحت تتخذ أوطانا نائية، بعيدة عن شجرة (الكريسمس)، بعد ما عرتها الأعاصير من الثمر والنضارة.

أيقظها أخوها من نومة العصرية، صائحاً بها: صبرية.. صبرية.

نهضت كمن دعستها الكوابيس، تفرك بجفنيها المثقلين، لم تشأ ان تجيبه رغم حبها العميق إليه.. فهو لم يعد الأخ الأكبر حسب، بل هو الأب والأخ والحبيب، فوجوده وحده أمامها، يصرف الضجر، من حياتها الرتيبة المملة، ويطيب لها النفس، ويشعرها بالأنس والمتعة، وينسيها مواجع اليتم، ويعوّض عليها نعمة الأب، التي لم تجد الفتاة نعمة مثلها، صغيرة كانت أو كبيرة؛ ودونه تتقطع أسباب الوجود كلياً.

وراح يهزُّ كتفها بهدوء ورقة.

ـ هيا، انهضي، سآخذك للسينما، مثلما وعدتك.

ما إن سمعت بالسينما، وثبت من مكانها على الفور، وأخذت تفتش في خزانة ملابسها عن أفضل ثيابها لترتديه، لكن دون جدوى، فكل ثيابها متواضعة وعادية؛ لا جديد فيها.

كان أخوها جندياً، وراتبه لا يكفي لنفقات العائلة، بما فيه مصروفه الشهري وتنقله من مكان لآخر، بحكم أنه جندي وبحاجة إلى مصروف خاص.. فكيف إذا ما اشترى الملابس الجيدة، مع أن الأم ربة بيت، عليها أن تدبر جهد إمكانها مصروف البيت، غير أن صبرية للتو تخطت الدراسة الابتدائية ـ أي أنها من مواليد الثورة ١٩٦٨ كما يقولون؛ وما أكثر الثورات ـ ولإحساسها الكبير بما تمرَّ به العائلة من ضيق مادي، فهي تفكر جادة في ترك

الدراسة، كونها لا تحب أن تكلّف أخاها خسائر مادية أخرى؛ فوق ما يتكلفه من عناء وشقاء في الجيش.. وما يتحتم عليه من العمل في إجازاته، وواجبه عليه في تسهيل لقمة العيش، وتيسيرها قدر الممكن؛ وإن اضطره العمل فوق المستطاع.. لكن عذرها أوهن من أن يكون حجة مقبولة، لكونها تمقت الدراسة، التي لا طائل منها لمثيلاتها، اللاتي ما أن تنضج قليلاً، حتى تُقطَف سريعاً، وتتلفع بثوب أول طارق يطرق بابها خاطباً، وتنثوي معه في عش من قش، دائماً ما يكون عرضة لأول اعصار، يعترض البناء الأُسري، غير المتفهم والقسري غالباً؛ على الرغم من تفوقها بالدراسة بشكل ملفت، وذكاؤها المبهر.

ارتدت ما راق لها من ملابس، رغم تململها وعدم اقتناعها، لكنها آثرت السكوت أمام أخيها بذلك، مخافة أن تشعره بالنقص والتقصير، وثبّت إلى والدتها لترتيب شعرها وتظفيره، وعبثت في حاجيات والدتها، لعلها تجد أحمر الشفاه، لتطلي به شفتيها المتقرحتين، لكن عبثاً تحاول؛ بعدما عكفت الأم على حياة الجفاء.

تجهزت للخروج، بعد أن كانت الأم مصرة على منعها من هذه الطلعة، خاصة أن السينما لا تليق بسنها؛ وإن كانت بالأحرى لا تليق إطلاقاً بالعوائل المحافظة.. إلا أنَّ (هاشماً) كان يرى العكس، فالمحافظة لم تكن بالتقوقع والانزواء على الذات، وإنما بالبحث عن الذات.

كانت سينما (الرشيد) مكتظة بـالمتفرجين الـذين يتفرجـون علـى لوحـات الإعـلان، وهـم يحملقـون بإعلانـات فـيلم السـاعة المثيـر (فـيلم اليتـيم) ومـا ان يشاهدوا صوره البائسة، يعزفوا عن مشاهدته، كونه يمثل علامة فارقـة فـي حيـاة المواطن العراقي، الذي عاش اليتم؛ وإنْ كان في كنف والديه...!

دخل هاشـم وبيـده أختـه، وجلـس بـين جنـديين، أنهكهمـا السـكر، وكانـا يثرثران بلا رشد.. انزعج هاشـم كثيـراً، وقـام مـن مكانـه ليغيّـره، إلا أن أحـدهم اعترضه معتذراً، مما بدر من تصرفات غبية، وتوسل إليه أن يبقى مكانه؛ فجلـس هاشم مكانه، وأومئ إلى أخته أن تلزم مكانها.

وأطفأ الضياء، وبدا شريط الفيلم يدور بأحداثه الساخنة إيلاماً ومرارة.

وكان هاشم مشدوداً مع الفيلم متـأثرا بـه أيّمـا تـأثير، حتـى انهمـرت عيونـه بالدمع، الذي ما كان لينقطع، طالما المصائب تترا على الصبي اليتيم.

على خلاف أخته (صبرية) التي بدت غير مكترثة بأحداث الفـيلم، بمقـدار ما تحسه من تمادي الجندي الجالس بمحاذاتها، الذي بدت يـده تـدعك بحلمـة نهدها المتنهد للتو، وأخذت اليد بالدبيب لتعصر الفخذ بقوة ومن ثم تتوغل حـد العمق، متجاوزاً صلاحيات الملاحة المحدودة.. حاولت جاهدة إبعاد يده، لكـن محاولاتها باءت بالفشـل، وكـان مـن جرأتـه ان هـدّدها بإشـارة بسـبابته الغليظـة، مخوفاً إذا ما ابدت كلمة أو ممانعة.

ظل الأخ سابحاً بدموعه.. بينما ظلت الأخت غارقة في فخ صياد مؤلم محكم القبضة.. وراح متمادياً أكثر فأكثر إلى سحب يدها ليضعها على قضيبه الذي أطلق عنانه للفضاء الخارجي.. فأحست أنها أمام جزار امتهن الذبح لا يهمه صغر الضحية أو كبرها، نضوجها أو براءتها، فصرخت وهي تكاد أن تلطمه على وجهه:

ـ كفاك سخافة يا حقير.

فاستنهضتْ كلماتها أخيها على الفور، ومن دون أن يفهم المشكلة، وتفاصيل ما حدث.. أنهال عليه ضرباً بكلتا يديه، فهو أحد جنود القوات الخاصة، متدرباً بشكل فائق لحرب الشوارع، وخوض مثل هذه المعارك، إلى أن تدخل البعض في فض هذه الخصومة، ووبخوا هذا المتمادي بالاعتداء على طفلة بريئة، بعد أن كان سكراناً طينة ـ كما يقال ـ وكان رجال الأمن بالمرصاد، فتهاوشوه من كل جانب ومكان، وسحب من ياقته إلى حيث.. بينما ذهب البعض الآخر باللوم على هاشم، الذي اصطحب أخته إلى السينما، مثل سينما الرشيد التي تشتهر بتجمع اللوطية والسكارى.

ووبّخ نفسه كثيراً، وهو يستذكر مقولة جده لأبيه، الذي طالما قال له: أبوك صاحب دين، وانت صاحب طين.

ورجع هاشم وأخته، بخفي حنين، مهموماً مغموماً، فضّل لو أنه شاهد حاله، وحال أخته؛ لاكتفى من مشاهدة كل أفلام البؤس والحرمان في العالم.

(٨٥)

١٩٨٣/ هي:

في مستهل الثمانينات، والمصائب تتقاذف من كل حدب وصوب.. وفي هذا العام تحديداً.. قررت أمي الزواج من شخص لا أعرف كيف التقته.. وكيف اقتنعت به...؟ وان كان بسبب تدخل بعض الجارات، التي يهمها مثل هذه الوساطات الحميدة.. لكن ما أذهلني أكثر أن أمي لم تطلب مهلة للتفكير، أو حتى مجرد السؤال عن الخاطب الجديد.. قد يكون لأنه أول المتقدمين إليها بعد مضي وقت غير قصير على وفاة والدي، أو لأنني لا اعرف الكثير عن تفاصيل هذا الموضوع.. المهم أن الأجواء التي طغت على البيت، هي أجواء كئيبة، مليئة بالوحدة والفراغ؛ خاصة بعدما استشهد أخي في معركة شرق البصرة ١٩٨٢.. كان قد سدّ الطريق الوحيد علينا بالإحساس بالأمل، ولم يعد بصيص نور، سوى بصيص خافت، لا تكاد تميز معالمه.. فقد كان أخي الموّجه الرئيس لنظام بيتنا، ودونه يختل البيت، وتتأرجح الموازين.. لم يكن موجهاً وأباً لنا، بل كان راسم الخطوات الجديدة بمواصلة الحياة بكل مآسيها وقساوتها.. ففي مماته، فقدت من يوجهني، ويرسم لي طريق النور، كان أمله كبيراً بأن أكمل دراستي، لكن هذا الأمل سرعان ما خبا وفتر.. رحل، وذهب معه السند الوثيق، الذي أركن إليه، وألوذ بقربه، وأسكن بجواره، في حال إضرام الواقع العصيب، وتفجر ينابيع الخوف والوحدة.. نعم إنَّ دخلنا المادي جيداً خلاف ما

كنا عليه في حياته، كوننا نتقاضى راتب شهري، راتب الشهيد هاشم، الذي آثر ألا يتركنا، حتى في مماته.. لكن المادة وحدها، لا تسد إلا الحاجة المادية، فمن يملئ الفراغ ويكسر براثن الوحشة، وخوف الليل المشتعل بنيران الحرب، التي كلما خبت أوارها، أضرموا جذوتها من جديد، في معركة تحرق الأخضر واليابس.

توقعت أن قرار والدتي بالزواج سيحلّ جزءاً من المشكلة، إذا لم يحلها بالكامل.. فلربما يعوضني ووالدتي عن الحرمان، ويرسم لي البسمة، وتمتد يديه بالعطاء والحنان، الذي ننشده طيلة العامين الأخيرين، بعد انسحاب هاشم عنا؛ ليتركنا عرضة لوحش الواقع المرير.. اسميه انسحاباً، لأنه لم يناضل من اجلنا، فالكثيرون الذين رابطوا في جبهات القتال، يقاتلون باستماتة، من اجل البقاء والعودة لأهاليهم سالمين. لكن أخي قد أثقله اليأس؛ أصبحنا عبئاً وكلاً عليه.. كان بود أمي ان تزوجه، لكنه رفض هذه الفكرة من الأساس، وكان دائماً ما يسميها بالنكتة البائخة ـ فلا أحد يرى تدفق أشباح الموت من حوله، ويفكر بهذا التفكير العبيط.. كما كنت أعلم ما في قرارة نفس أمي، من رفض لهذا المشروع، وان كانت تتظاهر به، كون إنَّ القادمة الجديدة لم تأت محملة بالورود، بمقدار ما تحمل من بواعث كره وتفرقة.. على اختلاف صلتهن بالزوج، وما هنّ عليه من التدين والخلق، فهن لا يرغبن ان يشاركهن أحد ما ـ مهما كان ـ بأزواجهن.

كان الزوج الجديد، شاباً قوياً البنية، ضخم الجثة، إلا أن الحرب أفقدته قدمه اليسرى، الذي بتر بأحد الألغام، في معركة شاخ عمران ـ شمال العراق ـ إحدى المواقع الملتهبة هناك.. فسرّح من الخدمة العسكرية لأسباب صحية.. كان يصغر أمي بعشر سنين تقريباً، إذا لم يكن أكثر.. كان لطيف المعاملة، هادئ ميّال للتصنع.. راقي الأسلوب، طيلة الأشهر الأولى من زواجه، وأن بدا على أمي علامات المقت إليه، والإعراض عنه، بسبب إلحاحه المتواصل على الانفراد بها، كونه ما يزال يتمتع بالقوة والنشاط والحيوية، على العكس منها تماماً.. فهي أشبه ما تكون باليمامة المنكسرة، المتململة التي تلوذ بزوايا القن المظلمة؛ بعيداً عن الأيدي الطائشة.. لكنه كان أذكى من ان يفّوت لها رغبتها المتذبذبة، ورفض مسايرتها، والمشي وراء مزاجها المتعكر.. وهددها جاداً، ما أن تفوّت عليه رغبته، إذ يتناوشني (أنا الشابة ذات الخمسة عشر ربيعاً) البديل الأسمى، لشاب لم تكبح جماحه امرأة بدا عليها التكاسل والنفور.. كان التهديد مخيفاً بالنسبة لأُم تضمُّ تحت جنحيها فتاة في مقتبل العمر، آخذة للتو بالنضوج، لتكون ضحية زوج أم مجرم لا يهمه سوى إشباع رغبته، بكل الطرائق المتاحة حلالاً كان أو حراماً؛ المهم ان لا خطر يهدده من قبلنا، ولا عائق يحجبه عنا.. خاصة ونحن منقطعون عن أغلب أقاربنا، حتى جدي (مزعل) الذي ما يزال على قيد الحياة، قد زعل من أبي أيام حياته، ولم يلتفت لنا بعد وفاته، قال بصريح العبارة: اخرجوا من وطني، فكنفي لا يسع ابنائي المتمردين، على

اختلاف مشاربهم؛ وهم يتبعون نساءهم في كل صغيرة وكبيرة.. في حين أن أعمامي اتخذوا الليل جملاً، وفرّوا كلاً في محافظة.. لا اظنهم ولو للحظة يودون مواصلة بعضهم بعضاً، لقساوة جدي وجلافته؛ وقساوة بعضهم على بعض.

حاولت أمي بكل ما تملك من قوة، أن تدرأ الخطر عني، لتتيح له الفراش مفتوحاً أنى شاء.. والحق أنه كان كالحيوان، لا يهمه الزمان والمكان؛ بمقدار ما يريده من افراغ شهوة جامحة العنان.

وعلى الرغم من تضحيات أمي، التي كثيراً ما حاولت إبعادي عنه، والتي لم تسمح لي مجرد مجاملته، أو الخوض معه في أي حديث.. كانت كثيراً ما تسمعني كلمتها المقززة:

ـ أنه كلبٌ قذر.!

وإنْ كنت لم أفهم ما ترمي إليه بالضبط، لكني فهمت منها أنه إنسان غير سوي، كما أدركت ذلك من تصرفاته، وعلامات المراهقة؛ وحكايته التي لم تنم إلا عن الاستسخاف والضحالة.

أيام وهو يتحايل عليّ، بحكاياه الماجنة، ويغمرني بعطاياه السخيفة.. إلا أني كنت أكرهه بشدة لتطفله، وكونه زائغ العين متبجحاً بالفساد.. فقد كان جليس التلفاز، وخاصة الأفلام العربية، وكأني به ينظر لما وراء الفيلم، من تداع وهيجان، لرغبات مدروسة الإثارة النصية، والعلاقات الخارجة عن سلطة

الرقابـة.. كنـت أنظـره بـازورار العـين، وطـرف الأنـف، وهـو متهـيّج، منجـذب بأحداث الفيلم، التي تزداد شدة وحرارة، وهو يتقلب علـى جمـر، يحـث بعصـاه النار الشفيفة؛ وهو يضرب خيالاً بعيد المنال.. فأترك له التلفاز، وأركـن غرفتـي، بعيداً عن صخب رجل جامح.. وكانـت أمـي هـي الأخـرى لـم يـرق لهـا الأمـر، فتتركه وشانه، لكنه يصرخ بها:

ـ اجلسي، وتعلمي بعض فنون الحب، يا عجوز الشؤم.

لم أنس أنه راودني في أكثر من مرة عـن نفسـي، وأحيانـاً يـدفع علـيّ بـاب الحمام، لـولا أنـه كـان محكمـاً بـالمزلاج والقفـل، لـتمكن منـي، حتـى عطايـاه السخيفة، لم تكن تتجاوز الملابـس الداخليـة، التـي طالمـا تمنـى ان يرانـي بهـا، وكذلك بعض مساحيق التجميل، التي كثيراً ما كنت أتجمل بها، لا لحسـابه؛ بـل لرغبة مني في قتله وإذلاله.

❊ ❊

قرابين النزوات

(٨٦)

من الغباء ان نقف عند منظار عالم الفلك، ليحدد لنا ماهية الكون، دون النظر للعلوم الروحية والماورائية، التي بإمكانها ان تخترق حجب العزلة.

نقل وسام عن أبيه مقولته التي دائماً ما رددها على مسامعنا: متى ما كان العلم حراً، بعيداً عن سوق التجارة، كان علماً مأموناً، وبات العلماء أمناء الامة.. وأطرب شدواً: كل شيء موجود في السوق، ما دام السوق سوق الدولة، فالخبز والبيض موجدان، ويظل البائع ابن الدولة؛ إلا المشتري، فهو أبن الأُم الحولاء التي تطعمه للحرب.. فلا ترى غير المخبر السري على باب السوق، وباب السور، وباب البيت؛ فأن طاب له أن يرجع بالخبز فعل. فأنت في نظر الدولة لا تعدو إلا تكون دابة منقاداً بالسوق والاعناق.

لطالما قلت له أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة؛ كاتماً في قلبي: أنت أبن كلب.

كم كنت معجباً بآرائه، أو بالأحرى آراء أبيه، لكن نواياه كانت أكثر من سيئة؛ أو سيئة بشكل فظيع.

ربمـا كـل علمـاء الفلـك والارصـاد، يوجهـون بـالنظر الـى الأعلـى.. فظلـوا محملقين بالسماء، ولم يلتفتوا لليوم ما تحت اقـدامهم.. تركـوا ثـرواتهم الطائلـة المدفونة في المحيطات، ونثروا المليـارات، فـي فضـاء تتـوه بـه الملائكـة.. فـي ملكوت لا حدود له، قالوا نظام شمسـي، ومجـرات، وعناقيـد، و..و..و.. وأكثـروا اللغـط، والتبحـر فـي الخـيلاء.. وعـادوا مـن جديـد يفتشـون فـي كتـب التـأريخ والاساطير والعقائد، عن مفيد صحيح الأسانيد؛ لتأكيد نظرياتهم، بعد أن كلفهـم البحث بلايين الدولارات.

ما أزال أعرجُ في النفق البلوري، الذي بدا لـي أشـبه بالحبـل السـرّي لـربط الأكوان فيما بينها مع مصدر غـدائي واحـد.. وأنـا أشـاهد مرايـا العـوالم الخفيـة، المبهرة الجمال، هندسة في غاية الابداع بالنشأة والبناء.. كويكبات تقبّـل بعضـها البعض بعناق حار، كلقاء بعد طول فراق، لأُم رؤوم تلـمُّ بـين أجنحتهـا، صـغارها المنتشين بالسباحة، في بحر من الألماس الذائب.. بحر تكمن في مراسيه أشـجار من الحيد المرجاني المتضام، ولأمواجه رذاذٌ كالدرر البيضاء، في بقع ملساء منـه منبسطة للاسترخاء.. مـا زلـت أطيـل النظـر فـي المرايـا، وأنظـر مـن كـل الزوايـا المتاحة.. أخرج من بحر لبحر، وإذا بـي بغابـة النجـوم، عـالم نجومـه كالأزهـار، كلما فتحت واحدة، تبعتها التالية بتوازٍ وتـوالٍ بديناميكيـة حسـابية غيـر معقـدة.. وكل زهرة كانت أشبه بشابة فتية نضجت للتو.. تكاد المرايـا تعكـس كـل أبعـاد الصورة، بما في ذلك عبقها اللدني الكريم.. كأن كل الوجوه كانت مألوفة، وإنْ لم أرَ نظيراً لها في حياتي، فقد بدت شهية بكل ما تحمله معاني الاشـتهاء، حتـى

شعرت بلذة ما تحت لساني، لذة معتقة بالحنين.. اعترضتني زهرة من بين آلاف الزهور، أظنها زهرة النشوة. هكذا سميتها تيمناً بإحساسي.. كل ما فيها مثار للجدل والجذب، انحنت من طولها الفارع، وقبلتني على جبيني؛ كأني أعرفها ولا أعرفها، قالت: أتعرفني.؟!

قلت عساني بالعمى، كيف لعيني التي عبثت، تفتش في كل تفاصيل بنات الجامعة، دون أن تفتش عنكِ وتراك.

قالت بصوت يناغم موسيقى بحر الكون الهائج الهادئ: أنا جنان.! أنا بنت حلم الرب.! انا جنان النايف.

لم أقل سوى كلمات تكررت بشكل غير إرادي: جنان.. جنان. حتى بدوت أشعر بخفقان قلبي، الذي تركته مسجى في زورق الموت.. وكأنني قذفت من عنان السماء، لألقي نظرة على جسدي، الذي بدا يأنف ممن يحمله، متحسساً من ألم الموت، معتبراً للحظة؛ وناسياً للعمر كله.

وُضِعت بين مجموعة من قرابين نزوات البقاء، في سيارة (الايفا)على شكل تكديس عشوائي.

كم أكره كلمة العشوائية، تلك التي أصخَّ بها وسام مسامعنا.. كم تمنيت أن أراه لأبصق بوجهه، أو أحلّ عليه لعنتي.. لكني استحييت من الموت الذي أعانقه؛ وحلم الرب الذي يعانقني.. وعدت أدراجي إلى عالم لا أوسع فيه من الحب ولا أضيق من الكره، أتفحص فيه ذنوب الماضي؛ للوقوف على اعتذار مناسب.

(٨٧)

خريف /١٩٨٠

ككل صباحات الطفولة الخصبة بالحب، اليافعة بالنشوة والاندفاع.

يحركنا حماس نهايات العطلة المدرسية ونحن نشارف على الالتحاق بصفوفنا الدراسية، هي الأيام التي تضجُّ بالحركة الصاخبة باللعب، كوننا مقبلون على وقت الجدِّ والاهتمام بالدراسة.

هو يوم خلاف كل الأيام المعتادة، بعد أن علا الضحى وارتفعت الشمس في مدارها البعيد، لاح لنا طابع السوء وانبعثت منه علامات الخطر وأرواح الظلام.

دويٌّ لأصوات قصف المدافع شديدة الانفجار، على الرغم من بعدها النسبي، وسقوطها في ضواحي المدينة، إلا أنك تحسبها وكأنها بجوارك، تدكدك الارض تطيح ببيوت الطين والقصب.. علا الصراخ هنا وهناك وانهمرت الانفجارات تباعاً، علت غبرة الدخان الأسود، شظايا تحمل الموت لكل من يروم التصدي لها، بيوتات هشة دمرها العصف والحرق، وأخرى لم تقو على مواجهة هذا المد العاتي من القتل الهامشي، صراع بلا هوادة على أشياء لم تستحق أن تموت عليها جرادة.

تزعق صافرات سيارات الإسعاف، وعجلات الإطفاء تولول على مدينة أصابها الخريف مبكراً، وهي في عزِّ الشباب.. لا أفهم من هذه الضجة، سوى

أنها ضجة موت.. الكل يصرخ، شيوخ، ونساء، صغار وكبار: إنها الحرب، إنها الحرب.

وقفتُ على مقربةٍ من إحدى الحرائق المشتعلة، أطالع أشلاء الضحايا، قتلى، موت، إصابات بتر، وجروح غائرة ونزف.. كان (سلمان) زميلي في الدراسة المتوسطة، فقد يده اليسرى، في هذا القصف العشوائي الذي لا ينجو منه أحد.. موقف بقدر ما آلمني أضحكني فقد كنا ناديه بالأعسر لاستخدامه اليد اليسرى بدل اليمنى بكل اعماله؛ فقلت في نفسي كم سيء الحظ هذا.

ومع ألسنة النار الملتهبة، تعلو زغاريد نساء مفجوعة، عادات سيئة تعتقد بأن الزغاريد تخمد النيران، وبالكاد خبتت النيران؛ إلا أن الصراخ بدا يعلو هنا وهناك.. لم تمض سوى فترة قصيرة، وإذا بصوت انفجار آخر يصم الآذان، فأقفلت راجعاً إلى بيتي فلم أجد أحداً، أبي في العمل، أمي ذهبت للتسوق في سوق العشار، حيث كان يفصلنا الشط عنه؛ وما أكبره من فاصل. حتى إخواني وأخواتي الصغار، قد تسربوا من البيت.. توجهت صوب بيت جدي، فوجدتهم جميعاً، لائذين تحت سقف واحد؛ ضممتهم اليّ كدجاجة تحنو على فراخها.

ازداد تجمع أقاربنا في بيت الجدِّ، على الرغم من إننا نفتقد الأمان، فكل منطقتنا تحت إحداثية المدافع المعادية، إلا إننا نشعر بالراحة والاطمئنان، كوننا مجتمعين في بيت واحد، وإن كان البيت لا يقوى التصدي لمجاملة أخفّ زوبعة، فكيف به وهو يتصدى لقذائف المدافع الثقيلة، التي انهالت علينا بشكل مهول، وهي ترسل حمم الموت والدمار لعالمنا الهادئ.

خرجنا جميعاً بعدما شعرنا بثمة فترة هدوء، وجدنا أن المنطقة بقضها وقضيضها قد سبقتنا للخروج، كونها منطقة محصورة بالشط؛ فلا بد من الفرار منها قبل فوات الأوان.. المدينة ترتحل عن محل سكناها، باتجاه الضفة الأخرى، أذكر أن رجلاً عجوزاً كان يصيح: ليس ثمة نجاة وصدام في الوجود.. بينما يلوح في ناظري حاج مجيد الخياط وهو يجيبه بغصة ومرارة: وما خُفي أعظم.!

وعلى الرغم من الضجيج والجلبة العالية، ونحن نعبر الجسر مرتحلين، فلا مكان لعبور السيارات بعد أن كان المعبر مكتظاً بالنازحين.. كنت أستمع بشغف للأصوات المتمردة.. تستهويني حروب الكلام.. تباينت الآراء كلٌّ يسبُّ على هواه، لم ينج من ذلك أحد، الصديق قبل العدو.. أدركت حينها اننا مقبلون على حرب دامية تطيح بالرؤوس والاقدام.. وكلما حاولت جاهداً أن أعرف السبب، وأن تعددت الأقوال؛ إلا أنَّ سبباً واحداً معقولاً ما كان آنذاك.

كانت الحرب بإسم الدين، وقد تنتهي الحرب وكلا الطرفان ملتزم بدينه ومعتقده.. وإن قال الاعلام غير ذلك، وبرر وحرر، فلا أجد ما أراه معقولاً ومنطقياً، ومن قال بمعقولية ذلك فأجده إما غير عاقل، أو أُصيب بمسٍّ من الشيطان.

وتمضي السنون، ورحى الحرب طاحنة، تحت يافطة: الموت نقداً لشعبين؛ لم يعرفا لما اقتتلا ولما ماتا.

ومن يزعم أنه انتصر، فلا أظن إلا أنه مخبول رسمي؛ قد ترفض أبواب المصحات العقلية استقباله.!

وصلنا للضفة الأخرى، كورنيش العشار.. السياب كان منتصباً ينادي: الشمس أجمل في بلادي من سواها.. قلت: ((أحثوا في وجوه المداحين التراب)).. متى طلعت في بلادي شمس، أو حتى بصيص نور.!

وفي مركبة نوع (داينا) حمل، ركبنا معاً توجهنا الى قضاء القرنة، حيث أقاربنا وأهالينا هناك.. وما أزال أبحث عبثاً عن والديّ، اللذين لم أدر اين حلّ الدهر بهما.

نيف وسبعون كيلو متراً قطعناها وصولاً إلى قضاء القرنة، أنا وأثنان من اخواني، وثلاثة اخوال، وكذا نفر من أقاربنا.. حططنا الرحال في هذه المنطقة التي لم نصل لها من قبل اطلاقاً، ونحن حفاة دون أن نشعر بذلك؛ ولم يكن في جيبنا فلس واحد.. حتى بقيت أبواب بيوتنا مفتوحة على مصراعيها، وكيف نخاف والديرة كلها رحلت، وهل نخاف ان تُسرق أموالنا أو أثاثنا؛ وسارق الاعمار، يقطف الحياة من جذورها.!

(٨٨)

في أولى سنِّي الحرب، اشتعلت مدينة قضاء شط العرب ناراً بوجه خاص بعد أن أصبحت هذه المدينة، ساحة تجحفل القوات ومركز تموين الحرب، ونزلت الجرارات والشفلات، لردمٍ الجزرة الوسطية، الخضراء التي كانت غناءة،

بأشجار الصفصاف والياس، وورود الياسمين والجوري، وسويّ النجيل الدائم الخضرة والبريق.

كانت أماسي الشباب حافلة بالغناء والمرح، ولعب الورق، وشرب الخمور، الذين يتربعون هذه الجزرة فتتسخ ملابسهم بالخضار والوحل، الأرض المعشوشبة بالغضار الممتلئ نضرة، إلى أن أزفت ساعة الحرب، وبدا التطاحن بسبب قوانين بائدة، وحماقات سائدة، ومصالح قذرة ومزاجية أُمم.. أبُيدت الشعوب، وأُهلِكا الحرث والنسل، فسويت الجزرة، ووسع الطريق ليستوعب أكبر عدد من المجنزرات والعربات العسكرية المندفعة بلا هوادة، المتجهة الى شرق الدمار، كأنها على موعد مع القدر؛ بلا سابق إنذار.

وبعدما تطور وضعنا، وأصبحنا نستأجر دكاناً، والزبائن بتكاثر، كوننا نعمل بجد ولم نفكر بمخادعة أحد، خاصة أن عملنا قابل للخداع المبطن، الذي لم يستطع أن يطلّع عليه السائق ما لم ينزل تحت السيارة، ويراقب العمل عن كثب، وكلما زادت إيرادات العمل.. زادت الضغوطات علينا من قبل المنظمة الحزبية المنتصبة قبالنا، التي كثيراً ما تستدعي والدي للسين والجيم، والأخذ والعطاء معه، كونه لم يرغب بالانضمام لصفوف الحزب، معتذراً بالعمل المضني، وثقل العائلة، إلا أنه دائماً ما يوعدهم بالولاء لهم والنصرة، وإنّ أي عمل يخالف توجهات الحزب، فهو بالتأكيد باطل، ومنافٍ للمبادئ والقيم الإنسانية النبيلة.

وكان في كل مرة تستدعيه الفرقة الحزبية، يذهب مصفر الوجه خائفاً، ويرجع كمن عاد من الموت للتو.

وعندما اضطرمت نار الحرب، حتى كان الاستدعاء رسمياً هذه المرة، ووجهوا إليه الإنذار الأول والأخير بإخلاء الدكان، كونه أصبح يشكل هاجس الخوف لديهم من تجمع السيارات بالقرب من المنظمة.. فهذا التجمع منافٍ للتحضيرات الأمنية، بل صار من أكثر الأمور المروعة لهم، تحسباً من حدوث أي تفجير؛ أو عملية غدر جبانة. كما اسموها.

ولأن أبي مثله، مثل الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب المغلوب على أمره، سرعان ما أغلق الدكان، وأخذ يوماً بعد يوم بإفراغ محتوياته، وعدنا من جديد للعربة والشط.. أنظر فها هي ذات العربة والشط نفسه، إلا أن بنات الجامعة بدت تتقوض شيئاً فشيئاً.. كانت عيون أبي ترمقهن رمقة وداع، كأننا على شفا هجرة بلا إياب.. بينما كانت أفكاري لا تعدو إلا أن تنزل عند تلك الأجساد الرشيقة الساحرة.. إلى أن انتشلني أبي من هواجسي الضالة بقوله: حاول أن تجهد نفسك لتصبح طبيباً مرموقاً، لك عيادتك الخاصة، يرتادها مرضى المنطقة.

وبالفعل تحقق ما كان يصبو له والدي، حيث أصبحت مريضاً؛ لا أنفك من مراجعة الأطباء من أترابي.

(٨٩)

أقفلنا راجعين بالعربة، إنه الزمن اللاهث، الذي لم يكترث في تجديد نفسه.. واقتنعت كثيراً بما حدث، لأنني ما أزال أرى ان هناك زمناً أشد فتكاً؛ سنخوض غماره إذا كتبت لنا الحياة.

لا أخفيكم القول إنني تعشمت الخير بأستاذ (غالي) مدرس الانجليزي، لعله يفتح لنا مكاناً في خانه الكبير، لكنه خيّب الظن، فلم يأبه لنا ولم يكترث بنا، بسبب تخلف أبي عن تشحيم سياراته المتزايدة باضطراد ملحوظ، مع إصرار الاول على تخفيض اجور العمل.

فنزلنا بالعربة إلى المنزل، كانت أغلب المطبات قد سويت تماماً، بعد أن تم تبليط الشارع على غرار الشوارع الرئيسة، إلا ان أكثر ما كان يعترضنا في الشارع هو بقع المياه الآسنة، لعدم تسليك المجاري، بما في ذلك من أسباب فنية أخرى؛ تبدو أنها بسبب التقصير الملحوظ سهواً كان أو عمداً.

كلما وصلنا إلى البيت، ترحب بنا الوالدة، وتهيأ لنا السفرة الطويلة، الغاصة بمرق السمك البني والرز والأطايب من الفواكه والمقبلات.

إلا أن أبي كان مهموماً مغموماً، لم يجب أمي بكلمة واحدة، ذهب للاستحمام ومن ثم عرج على غرفته، ولم يسمح لأحد بفتح الغرفة عليه.. توجهت إليّ مستغربة، انهالت علي بالأسئلة، لكني لم أستطع إجابتها عن كل هذه الأسئلة، سوى قولي: أن المنظمة الحزبية قد منعتنا من العودة للدكان.

وعلى فطرتها المعهودة، رفعت اعلام حزنها وهاجت بالسب والشتم للسلطة والحزب: حزب الكفار.. حزب الكفرة، اللهم انتقم لنا منهم واقطع دابرهم، وأرنا بهم قوتك.

فخرج أبي من غرفته، وهمَّ بصربها، لولا أن رأى الانكسار عليها، وجذبها إلى داخل الغرفة ومن دون أن يغلق الباب وراءه، استرقت السمع، وهو يوبخها

بهدوء ولطف، ويمنعها من أن تكرر مثل هـذه الفعلـة المخلـة بـالوجود والحيـاة بقوله: مجنونة أنتِ، تريدين إعدامنا، إياكِ أن تكرري فعلتكِ هذه، أمـام الأولاد؛ فأني.. وتراجع منكسراً، كاد أن يغشى عليه من الهم والخوف.. فهو لم يقـو علـى مقارعة من كان السبب في قطع خبزته، وهل بإمكانه أن يقارع حكومة لها الأمر النافذ على الكل بلا استثناء؛ بوصايا إجبارية لم تفرضها حتى الآلهة.

مشت أمي الهوينا، منسحبة تجر بخطى مثقلة بالهزيمـة والانكسـار.. وكـأني بها وأنا أطالعها عن كثب، وهي تجمجم وتدمدم بكلمات قـذعٍ وسـب، وشـتائم وهجاء مقيت، لكن هذه المرة كانت قد عفت وغفرت للسلطة، وتوجهت لذاك الرجل الذي نشّف الدم في عروق وجهها، لـولا أنـه زوجهـا وأبـن عمهـا وفـاتح سدود نهرها العظيم، ومغطس فيضها بالخلف الغزير، لكانت قد أعلنت عن كـل أخطائه وخلجاته، بصوت جهوري، وعلى مرأى ومسـمع العـالم، لكـن أكـره مـا سمعت منها، قولها كلمة جبان.!

تلك الكلمة التي استنهضت العزم فيَّ، وجعلتني أصارع الجبال، على الرغم من أني بقيت عمري كله صريع الأماني والآمال.؟

(٩٠)

وفـي عصـر هـذا اليـوم، عنـدما هـدأت النفـوس، وكُظِـم الغـيظ.. لا أدرى تحديداً كيف استطاع أبي أن يقنع أمي ويسترضيها بعد الكلمات القاسية، لكنـي آمنت بانها سنة الحياة، ما من غـيظ مخلـد، وروح التسـامح والمـودة تـدب بهـذا

المخلوق الهجين، من الحب والكره، والغضب والهدوء.. وما أن تريد العيش مع من تحب، فلا عليك إلا مسايرته والتودد إليه، ومعايشة الواقع، لا أن تتقوقع وتنكمش عند حدود الألم، عليك أن تفجر الطاقات والمواهب.. وأفضل تلك المواهب السنية، روح الأُلفة والتسامح، لتعيش آمناً سليماً رغم الأوبئة الخطيرة، في زمن مشتعل بوباء الخراب.

بدا النقاش وقتها عن استئجار دكان آخر، مع إعداد يافطة جديدة، تشير لنا نحن اصحاب (المصلحة) الذين يشار لنا بالبنان..

لكن وضعنا لم يكن مستقراً، فنحن كل يوم في مكان، مثل: (ام القطط) بعدما كانت تطولنا حمم المدافع ـ خاصة مدينتنا ـ لذلك رجحت والدتي أن نبقي عربتنا، وجميع موادنا الأخرى في البيت، ونعمل بالقرب منه، في إحدى السوح الفارغة القريبة من شارعنا.. وإن كان لخالي رأي آخر مغاير لما نفكر به، وهو فتح مرآب للغسل والتشحيم، فالماء موجود، والسوح الفارغة كثيرة لكن أبي جابهه بعنف: الكل موجود؛ ما عدا الوطن مسلوب.!

فأجابه خالي ساخراً: ها هو حاج مجيد الخياط الرجل الوطني.

وكان حاج مجيد (الرجل المتذمر والممتعض من كل شيءٍ ما عدا الحزب) على مقربة منه فقال: لا خير بأمة تفضّل المال على الوطن.

بينما جابهه أبي بهدوء مخافة أن يسمعه أحد: ولا خير بوطن بلا مال، لا تعذرك به زوجة ولا طفل.

ما أسكت حاج مجيد؛ بل وأفحمه.. لكنه ظل متمسكاً برأيه ما دعاه ليلوي بوزه ويبتعد.

باشرنا عملنا بإحدى الساحات القريبة منا، وبالفعل بدت الإشارة إلينا، وزحفت السيارات صوب عربتنا السوداء.. وكنت كلما أنظر لدهان العربة الأسود، أرى أيامنا مكللة بالسواد.. ولَكَم كان في ودي أن تنقضي هذه الأيام، أيام السواد، أيام الحرب؛ والكدح بلا طائل.

حتى اعتقدت أن هذه العربة سترافقني إلى ما لا نهاية، لربما العمر كله، خاصة بعد أن تلكأت بالدراسة النهارية، وتحولت للمسائية، وأجواء من النزق والطيش، فترة لا تُعد ولا تُفتقد.. بعدما كان لا مناص من رفقة العربة والمشحمة والتمدد تحت السيارات.. ولم نكتفِ بذلك فقد تعلمنا مهنة لا تقل إيذاءً من أختها، وهي تصليح الغسالات، التي اصبحت اختصاص الوالد فيما بعد.. وكلها كانت حروب شرف وبناء؛ إلا حربنا الأخيرة، كانت دماراً.!

لطالما كنت أمُنّي النفس بأن العمل شرف، ومن لا يعمل لا شرف له.. لكنني سرعان ما عزفت عن تكهناتي التافهة، عندما عشت البطالة واسترحت لها، قلت: هيهات أن نكون بلا شرف، ونحن من عمل قبل أوَان العمل؛ حتى إننا نطلب الدهر جيلاً كاملاً من اللعب والمرح.

وحينما أسمع ما يردده العسكريون المتذمرون، عن الشرف العسكري المحصور بين (البيرية والنطاق) لعنت أبا الشرف، وتمنيت لو أعيش مع الغجر، إلا أنَّ أحد الاصدقاء نبهني إلى ان الغجر مشمولون بالخدمة العسكرية؛ فأسفت على وطن حماته غجر.!

* *

فضول العقل

(٩١)

كأن يداً تهزُّ هذا الكون بلطف العجيب..

لم أزل في تهويمات الموت، وعروج الروح، معراجي في الثقب الدودي، بدا يتسع كحلقات الماء، حين تُضرب بالحصى، كل حلقة أكبر من الأخرى، وكأنها ألوان تتفتح كأزهار الربيع على موسيقى فارهة.. وبدت نظراتي تتسع أكثر، وتتكشف أمامي حقائق في دقائق هذا الملكوت المتماسك بكرم الإله.. خيوط البرق العاصف تومض من مكان قصي المسافات، تتنزل بين حقول ظمآى، تنعش بعضاً بالحياة، وتشحن بعضاً بالقوة.. وسفن نجمية تواصل الاتصال، وتوثق المسار السابح في حلم الرب.

كان بصري شاخصاً في مجاهل الكون الازلي.. تلك العوالم الفضفاضة، التي يعجز العلم عن عدها، حتى ولو على سبيل الافتراض، لا مكان للافتراض.. فضول العقل البشري يظل عاجزاً، حتى وهو يكذب.. المسافات التي تشيخ قد تضمر وتتكاسل، إلا تلك المسافات الأكثر عتمة من أن تسبر غورها النفس البشرية النزَّاعة للمدرك. مهما كان الخيال فرساً جامحاً، كان الواقع النابض

بالحياة جريئاً ومتجدداً، وهو يطلع بحلّة جديدة، ويرجع بموضة مختلفة، ولبوس زاهٍ.

دوائر الماء المحدثة أخذت تواصل طريقها بالانتشار غير المتلاشي، تماهياً مع تلك الفسحة التي تبدو أكبر من الأمل ذاته.. مع هزة خفيفة كطنين بعيد، يرفع الأكوان رفعاً وئيداً متناهٍ لعطف أم، وهي تؤرجح وليدها بيدين حانيتين.

كلّما رقيتُ حلقة، على خلاف نظام السلالم، زاد عجبي، وزاد سخطي على وسام، الذي صوّر الكون لي على أنه متاهة.. وأحكم العشوائية في ذهني، لولا أن الله حملني بين كفيه ليريني هذا النظام الدقيق المتماسك والمتآخي. قال أبو وسام، من بين شطحات أبنه التي ما كان يعرب عنها لولا حكمة الله الغالبة: "لو أن القرآن فُسر بالشكل الذي نزل عليه، لما احتجنا لدليل على وجود الله".

وفي موضع آخر قال:" إن المفسرين أكثروا الكلام بالعلوم الطبيعية استناداً إلى دليل كلامي، فكانت أدلتهم أضعف من أن تصمد أمام العلوم الحديثة".

لكن وسام الذي لم يجد تبريراً منطقياً لذنوبه، فاستعصم بربوبية الكون، نجاة من القصاص العادل.

أما أنا الذي أرى سُبُحَات مفاصل الكون، وتعظيمه لخالق أوحد.. لم أجد إلا أن أضع شتات ذنوبي بين رحمته، التي وسعت كل شيء.

ظل سؤالنا العائم: لماذا هذا الكون، وآلامَ ينتهي هذا.؟! هكذا خرت روحي منفلتة من قبضة الموت، لتعانق عالمي الدني، وهي تعبث في اوراق الماضي؛ التي دونت في الذاكرة.

(٩٢)

البداية / اللقاء

كانت تسير أمامي متبخترة، أخفت العباءة تقاسيم جسمها، إلا أن قوامها كان منتصباً، شعرت بها شعوراً غرسه الشيطان في داخلي.. إنها جميلة حد الفتون، وكان ظني في محله.. وبينما كانت تسير بمحاذاة البيوت، بسبب فيض الشارع بالمياه الآسنة، وإذا بها تزحلقت وسقطت متألمة.. فسرعت إليها ونظرت وجهها، إذا به من الملاحة والسِّحر الذي قلما شهدته في بنات الحي؛ لا شك أنها غريبة.. مددت لها يدي، استنهضتها فتوكأتْ عليّ ونهضت، شعرت بلذة لمسة كفها المرصع بالترف والنعومة، لم تشكرني بلسانها بمقدار ما قدمته نظراتها من الامتنان وعرفان الجميل.

لأول مرة أشعر برجفة غريبة، ربما هي رجفة الحب، إذا لم تكن رجفة الموت عشقاً.. تمالكني نزاع خطير مع كل قراراتي الموسومة بالرزانة والثبات، ليرمي بي لسؤالها والتكلم معها تودداً وملاطفة، وإن كان قد غابت مني كل الكلمات، وشردت من مخيلتي كل عبارات الحب، التي اقرأ بعضها في روايات عبد القدوس وكتابات السمان، وكاد أن يكون النزاع بيني وبين نفسي إلى نزيف من الحزن إذا ما فاتتني مثل هذه الفرصة، وبلطف كبير تصنّعته على حيلة ومراء سألتها:

ـ هل أُوذِيتِ...؟!

فأجابتني بصوت كالهمس:

ـ لا.. أشكرك.

ونزعت يدها من يدي بسرعة، لكن حرارة كفها كانت كجهاز النسخ، فقد نسخت كل العقود والروابط في داخلي؛ ما زادت في ذلك جرأتي، فسألتها: أراك غريبة.

ـ نعم جئت لزيارة بيت عمتي. وأومأت الى بيت (أُم نجاوي) ـ جارتنا المرأة الأرملة المسكينة، التي تتقوت على بسطة تفترشها عند باب المدرسة ـ

فأوصلتها إلى الباب بيتهم، باللحظة استقبلتها (نجاوي) بنت عمتها، وكأنها على موعد معها، فوفرت علينا طرق الباب، فعندما انتهت من تقبيلها والترحاب بها التفتت إليّ بالتحية، وأوعزت لنا بالدخول، فوجدت نفسي متطفلاً يطرق أبواب الناس بلا حاجة، وخفت أن اترك هذه الدعوة وأفلس من لقيا من أبهرتني بمحياها الجميل للتو.. وبقيت حائراً، بينما همت (صبرية) بالدخول، وما أن أصبحت بالداخل، حتى رمقتني بجانب وجهها، نظرة عطف أكثر منه شكر، غمزتني بالدخول، أنه الولوج لعالم آخر، عالم طالما كنت أتمناه وأحلم به في النوم واليقظة.

فدفعت قدمي التي لا تحب أن تفارق هذا المحيا الباسم.. وأجلستني (نجاوي) إلى جانبها، وهي تحوك بلؤم مؤامرات الإطاحة بقلبينا المكابرين، فلكثرما بدر منها ما بدر من غرس علاقات مختلفة، مرة للحب وتارة للزواج بين

بنات المنطقة وشبابها، مقابل أجور زهيدة، كونها محط أنظار من يروم العشق أو غيره، وإن كانت لا تتبنى غير علاقات سوية، تتوق منها الخير والعطاء، وأن كان عملها هذا بشكل خاص، لأولئك الذين تشعر وراءهم بالاطمئنان، والمنفعة في الوقت نفسه.

عرفتني باسمها، وسنها، ومحل سكناها، ودرجة القربى منها والأهم في ذلك حالتها الاجتماعية، وما يرافقها من تفاصيل، كونها ملتزمة، وبلا علاقات، ووحيدة أهلها ويتيمة.. مواصفات قلما تجتمع بفتاة فاتنة الجمال والأنوثة، لمست من نبرة صوتها الحزينة، وتعريفها الكامل بهويتها، أنها تبحث عن مأوى عشق دافئ، عن حضن يشعرها بالأمن، وقلب تستلقي في ثناياه، مطمئنة الجانب.

بدأت أشك في أن مجيئها هذا لم يكن مجرد زيارة، بمقدار ما هو تجارة، من نوع خاص.. رحلة بحث عمن ينتشلها من ضياع الوحدة، وبدأت أتعشم الخير، وأتصنع العذر وألوّح بيد: إنها تقصدني بالذات، جاءت إليَّ، كأنها على موعد سابق معي؛ وبالمحصلة النهائية وصلت الرسالة...!

بينما اكتفت (صبرية) ببضع كلمات، كان فحواها علاقة شريفة تفضي إلى الزواج، كان من الصعب عليّ، أن أضرب لها موعداً، وكيف ذاك، وأنا لم أعرفها بعد، إلا أني وعدتها في حال معرفتي لها أكثر فأكثر، سأحقق لها ذلك.. وأن كان في قرارة نفسي، بضعة شروط، لكنني أرجأتها لوقت آخر، فليس من

الصحيح أن نبدأ أول المشوار بالمشارطة، وأن كان الأهم في ذلك هو الوقت، فنحن بحاجة إلى وقت كافٍ للتعارف.. رجعت بعد ذلك التمسها الموافقة على الخروج معها إلى منطقة أكثر أماناً وشعوراً بالحب، لعلنا نتبادل أحاديث الهوى، وبين التردد والقبول وافقت على مضضٍ، كبداية للتعبير عن سلوكيات مثقلة بالالتزام والرزانة، وانطلقت في سموٍ وتعالٍ، والشيطان يرمقني عن كثب، ويتربص بي الدوائر، ويعد لي المكائد والفخاخ.. بعد أن ضربت لي موعداً لا يزيد عن الساعة من وقتها، ما سمح لي أن اهيئ نفسي، واستعد لهذا اللقاء المرتقب.

وما أن خرجتُ من بيت عمتها (أُم نجاوي) مسرعاً، إذ شخص الحاج مجيد الخياط محدقاً بي، هي ليس المرة الأولى التي يعترض طريقي، وهو يقول لي:" بالتأني السلامة".

فنحن جيران، ونعرف بعضنا منذ زمن طويل، وقد نشأنا وترعرعنا معاً.. في حين أن كل علاقاتنا مع الجيران كانت لها اعتباراتها الخاصة.. وكالعادة لا يشبع فضوله إلا بالتحري والتقصي عن كل شاردة وواردة، فسألني: ماذا تصنع هنا.؟!

لا أدري ما اقول بالضبط، ولأول مرة اجدني متلعثماً.. فأردف قائلاً: ومن هذه الفتاة الجميلة التي كانت معك؟

زاد الأمر تعقيداً، وهو يمتهن دور المخبر السري في المنطقة، وسيكشف عما قريب كل ما رآه لوالدي، حبة بحبة.. والحقيقة أنه قد صعّب الموقف

عليّ، فلم تسعفني البديهة بأي عذر للتملص منه، ولو مؤقتا، فقلت له متصنعاً: إنها ضيفة كما ترى تسأل عن عنوان أُم نجاوي، وقد دللتها على البيت.

فأجابني وهو غير مقتنع: ها.. أحسنت؛ أتمنى أنْ لا تخيّب نظرتي بك.

وسرعان ما عطف عليّ، وكشّر عن ابتسامة هادئة كعادته معي على خلاف سائر الجيران والاصدقاء.. فسرعت بالانصراف دون ان أبدي أية كلمة، فأنا في حال لا أحسد عليه.. لا اكتمكم السر، فعلى الرغم مما يقال عنه، وعن فضوله وتطفله على الآخرين، فأنا أشفق عليه، وأعدّه في قائمة المساكين التي تطول حصرها؛ إن لم أكن أنا على رأسهم.!

(٩٣)

استأجرت سيارة تاكسي إلى متنزه (السراجي) استغلينا المقعد الخلفي.. حاولت أن أتكلم معها، لكني عجزت عن إيجاد بداية مناسبة، بالتالي نظرت بالمرآة إلى وجه السائق المثخن بالغم والعبوس، وكأنه يوحي إليَّ بعدم الاقتراب منها، بعدما حاولت أن أمدَّ ذراعي وراءها وأكلمها بلغة اليد والمماسة، لأحتضن جسدها.. الذي كانت تبعده عني مخافة مماستها، وتنزوي إلى باب السيارة، بمقدار ما أعجبني موقفها وامتناعها لاقترابي منها، بمقدار ما كرهت ومقتُّ ذلك السائق الذي بدا يطالعنا بازورار عينيه، فلم أجد غير أن أتحاشى الموقف، وأصمد قليلاً؛ حتى الوصول إلى المتنزه.

وعندما نزلت من السيارة، دفعت له أجرته، لكنه لم يفوّت الفرصة عليَّ إلى أنْ شنعني بقوله:

ـ إنها آلة لأكل العيش، وليست حانة للمواعيد الفاسدة.

فكظمت غيظي، وسرت إلى عمق المتنزه، وكلما حاولت أن آخذ كفها وأضعها في كفي، كانت تمتنع، وتلف يدها بعباءتها.. للحظة تحوّل إعجابي إلى نبذ وشعور بالضيق، فإذا كانت تتوقع بطريقتها هذه أنها ستحظى بقلبي، فأنها بالتأكيد واهمة، كوني بحاجة إلى من يأخذ ويعطي معي، إذا لم يأخذ بيدي ويبادلني الشعور والإحساس والحركة.

لا أستطيع أن أوسمها بالعشيقة ما لم أحظ منها بقبلة حب وترحاب.. كانت هذه اللغة مخبأة في جوفي، صرخة مكبوتة، متألمة لا تقوى على تجاوز الحدود وصلاحيات اللياقة، وبالتالي فأن مثل هذه الكلمات الطائشة، الجامحة، الظامئة؛ لم تفسد بشكل من الاشكال شواهق العمران.!

أرتكنا مصطبة كانت على خلاء من الناس، لا أدري إذا كنت قد أجلستها إلى جنبي، أو هي من أجلستني.. لكن بُعد وجهينا عن الآخر بحدٍّ ذاته مشكلة.. لذلك استدرت لها بعدما جلست قبالها القرفصاء، ولا أدري ماذا أقول غير أن في خاطري الكثير من اللوعة والشجن.. أنا أحب امرأة تتلفع بالسكوت وبين أهدابها سؤال افتقار، وعاطفة تستنجد بمن ينقذها من هواجس التلاشي والاندثار، فبدأتها متوسلاً أن تنزع وشاح الصمت، وتكلمني بلغة تُجاري

رغبتي، بالصياح حدّ العياط.. وأن كانت لغة عينيها قد ذللت المسافات، واردمت هوّة السكوت والخواء.. فقالت بهدوء مشوب بالخجل: إن نجاوي تمدحك كثيراً.

قلت في نفسي: (لو تعلمين كم هي محتالة، وبم اشترطت عليّ للخروج معك).. ثم قلت لها: لكنها اخافتني منك كثيراً، وقالت ستواجه امرأة تقتلك بحسنها طوراً وطوراً بصمتها.

استشعرتُ فدح المقال، واعرضتُ عن القول، وقلتُ في نفسي: (حق الرد مكفول).

لكنها على ما يبدو استأثرتْ ان تشتري مني دون أن تبيع.. فاعتنقتُ الصمت مذهباً للمناورة، علّها تكشف عن أوراقها.. إلى أن صاحت بي: ما بك إلى أين ذهبت.؟

ـ لا أظن أنّ بي شيئاً، أشدّ منكِ علي.

وحكينا كل ما جال في الصدر، والتقينا لأيام طوال مبحرين في ماض عتيد، تكاشفنا كيوم العرض المبين.. كان كلامها أجمل وأعبق ما شنّف مسامعي، بعدما انهالت عليٍّ بحكاياتها الشخصية، وكانت أذكى من أن تكون خطيبة وحسب، بل راقها انصاتي المرغم شغفاً للاستماع، وأخذت تسهب وتطنب بحكاياتها، وبذلك حافظنا على درجة كبيرة من التوازن.. وإذا صدق من قال: (كلنا في الهوى سوى).. أرى أصدق القول: كلنّا في البؤس سوى.!

ولم يفوتني أن اسألها بإلحاح عن أكثر تجاربها مرارة، فأني لا أشك البتة بأن ما كلمتني به هو النزر اليسير، عما تخفيه في عالمها الموحش، الذي لا يسبر غوره، غير موجوع بحبّ، أو مقتول بهجر.. وذا ما صرحت به عن علاقتها بالدكتور.

(٩٤)

هي..

بعد المضايقات الكثيرة التي تعرضت لها من قبل زوج أمها، لم يكن أمامها سوى خيار العمل، للتخلص من سلطته، وضغوطاته، التي باتت تشكل عقبة كؤود أمامها بمواصلة الحياة بطبيعية.. فعرض عليها العمل كخادمة في إحدى البيوتات الميسورة، لم توافق على هذا العمل إلا بعنوان حاضنة أطفال، أو مدبرة منزل، الاسم الملتوي، أو الثانوي للخادم، على الرغم من أنها لم تتمتع بأية خبرة سابقة، وخاصة مع الأطفال.. عائلة من زوجين طبيبين: الزوج اختصاصي جراحة عامة، والزوجة اختصاص أمراض نسائية وتوليد، على درجة عالية من الوفاق والانسجام واليسر، لديهما طفلان (احمد) خمس سنين و (هدى) ثلاثا.

لم تكن صبرية متأكدة من أنها ستقوم بالعمل المناسب، أو أنها ستكون موضع ترحاب.

بعدما كانت متوقعة من أن عملها لا يتعدى الاعتناء بالطفلين وحسب.. لكن ما إن بدا الاتفاق، إذ شمل التنظيف والطبخ وما إلى ذلك من أعمال بيتية أخرى.. فمانعت بشدة، وعادت أدراجها للانسحاب.. لكن الدكتور عرض عليها مبلغاً إضافيا، فاستوقفها هذا الأغراء المادي، مع ما تخافه من مطامع زوج أمها ونواياه الخبيثة، فوافقت مرغمة.. سألتها الدكتورة أكثر من سؤال، فيما إذا كانت تجيد الطبخ. فأجابت بالنفي، لكن أشد ما استوقفها من الأسئلة، فيما إذا كانت ترغب بالمبيت عندهم...؟

لم تجد(صبرية) إجابة سريعة، فبمقدار ما لهذا المبيت من مآثر كذلك له من مخاطر، فأرجأت الجواب لوقت تكون به قد درست الموضوع من كل جوانبه.. وهي تعصر بعروق صدغيها المتوترين، وتهمس بداخلها:

(بنت السادسة عشر، تتحمل كل أعباء هذه الحياة، وما تزال تقاوم بقوة، أنها قمة البطولة).

بدا الدكتور مندفعاً بشكل عجيب، حتى أني بدأت المس أشعة نظراته تلاحقني وتجوب في داخلي أثارُ الخوف، وأحياناً تُحرك بي مشاعر الطيش، كأني فتاة ضائعة بين عالم الغاب ووحوش الظلام، وتارة تدغدغ بي مفردات النشوة والطلاقة والارتياح.. تجاذب عجيب، عبر نظرات غريبة، تشكك بسلامة نفسي وحسي ومدخرات عفتي وحيائي.. وتعدت هذه النظرات لتتحول إلى نزوات آخذة بالتطور إلى غزوات، لكني لم أكن بالصيد السهل، فقد أخبرني أكثر من مرة وفي مواطن مختلفة:

ـ رغم هدوئك فأنت عصبية، وماكرة.

كانت كلماته تشعرني بالفخر والغلبة.. وتذكرني بأني بنت أبي، والعرق دساس، فأني استمد قوتي من رفضه الكبير، على الرغم من شدة افتقاره لكل مقومات الحياة الكريمة، حتى بعد أن نَكَرهُ واستجهله أقرب الناس إليه ظل متحدٍّ للكل، محارباً بلا هوادة. وإن كنت أُشكك فيما إذا كان على حق في كل مواقفه، أو مجرد عناد لا يمكن الرجوع عنه.. خفت ألا أقع في نفس هذا التناقض، بعدما قررت أنْ لا أحيد عن نهج انتهجته وسرت به رغم المخاطر.

قلت في نفسي:(يا ليت أصحاب الحق لا يحيدون عن نهجهم).. وبشيء من الفضول عززت قراري بأن أكمل المشوار.. رغم نوازع نفسي المتوانية والمتخاذلة التي بدت تشكك باستمرارية هذا الانتصار إلى أمد بعيد؛ كون أن الخصم كان مغرياً في كل شيء.. إلا أنه في ذات الوقت كان خسيساً ونذلاً؛ إذ يفرط بزوجة كالحور، ربما أفوقها حسناً وصغراً، لكن فيها من المواصفات ما تجعلني لا أصلح إلا أن أكون خادمة تحت قدميها، خاصة أنها مورد مالي كبير، مرتب وعيادة وحوافز وساعات إضافية ليلية ـ وهذه الطامة الكبرى ـ فأشد ما أخافه الخفارات الليلية، التي تترك له الحبل على الغارب، للاختلاء بي.. على الرغم من الأفكار السيئة التي تراودني في ابتزازه إلا أني كنت خائفة جداً منه، بل وحانقة عليه لأنه خائن لزوجته. وارتابني أمر فجائي، ماذا لو كانت زوجته هي من تخونه كذلك، محاولاً بأن يثأر لنفسه، وإن كان على حساب الآخرين وعلى حسابي بالذات؛ هنا

تكمن المشكلة.. عدلت عن سوء ظني بها، مبررة ذلك بانتفاء الأسباب والدواعي، التي تجعل مثلها تنزل إلى مستوى الانحطاط والرذيلة، بيد أن أكثر من تمارس مثل هذه الأعمال، تمارسها بحكم الحاجة والعوز، وبعضهن بسب غياب الزوج، أو التناهي عن واجباته ومسؤولياته، وإن كان القليل منهن متذوقات للباطل، عاشقات للرذيلة، لسبب أو آخر.

وعندما قررت المبيت عندهم، بعدما أعلمت أمي بذلك، كان هناك تباين بالآراء بين أمي وزوجها بالموافقة وعدمها، على خلاف رأي الدكتور وزوجته اللذين رحبا بهذا القرار، فالدكتور صائد غنائم، ومتربص عشق، بينما زوجته (المسكينة الغافلة) كان بودها أن تحصل على من تساعدها في إعداد كل متطلبات البيت، أو بالأحرى توفير المناخ المناسب للخلوة بزوجها؛ بعيداً عن ضجيج الأطفال.

(٩٥)

بين فكي الفقر والطمع، تهرب من وادٍ إلى واد..

في أولى ليالي المبيت عندهم، أكرموني بترحابهم الحار.. هكذا افصحت صبرية، واستطردتْ قائلة: وكأني واحدة منهم، وقد قامت الدكتورة متفضلة بإعداد وجبة عشاء سريعة وشهية على نحو ما، خلاف إمكانياتي المحدودة في إعداد الوجبات الروتينية التي لم تتجاوز بيوت الفقراء.

وعند الانتهاء من العشاء، سارعت في تحضير الشاي، وادخلته عليهم، وجدتها ملتصقة بزوجها على أريكة واحدة، بينما كان الطفلان يلعبان بالمكعبات البلاستيكية، لم أجد باقترابها منه الشيء المشين.. حتى أنها ما أن لمحتني داخلة، تزحزحت من مكانها مسافة يسيرة، فقدمت لهما قدحي الشاي، وعزمت الخروج، إلا أن الدكتور صاح بي:

ـ الى أين.؟ اجلسي.

فحاولت أن أكون فتاة فهيمة ونبيهة، واتركهما دون أن أكون سبباً في مضايقتهما، ففضلت الانسحاب معللة ذلك بغسل الصحون وبعض الأعمال المنزلية الأخرى.

لكنه أبى إجابتي، وعاد عليّ أمره بالجلوس.. فجلست على استحياء، ولم يلبث اللعين طويلاً حتى قام بتشغيل جهاز الفيديو، حيث عرض فيلم عربي من بطولة نادية الجندي، إحدى ملكات الأغراء، يا للمصيبة أنه وقت الاغراء؛ يا للعنة.!

كنت اختلس النظر إليهما، وهو يلامس قدميها بقدميه، بينما كانت الزوجة صامتة لا تحرك ساكناً، ولم تنبس بكلمة، حتى عندما كان يهمس معها بكلمة ما، كانت تجيبه بإيماءة خجلى؛ لكن على ما يبدو أن وضع الصمت هذا لا يروقه، فتحول إليّ بقوله:

ـ ها.. صبرية ما رأيك بهذا الفيلم.؟

لم أستطع ان أجيبه بالسلب أو الإيجاب، أو حتى ان أنبس بكلمة واحدة، فالأمر بدا عصيباً جداً، أن اتدخل فيما لا يعنيني بحضور زوجته.

لكن صمتي هذا أدخلني في أكثر من مأزق، وبدت علامات الضيق والاحتقان في وجهه، فصرخ بي متذمراً: أكلم الحائط. زوجتي نائمة ـ كناية عن الصمت، والخادمة مشفقة من الجواب.. فبالكاد كلمته زوجته بهدوء:

ـ انظر للفيلم، واستمتع به.

قال باستياء:

ـ الرجل يستمتع بزوجته.

طالتني نظرات زوجته السريعة.. حيث رمقتني برجاء. وتلقائياً دنت نحوه، وكأنها تقول له:(أننا لسنا وحدنا).

لكن اندفاعه بغّيهِ، أخذهُ إلى أبعد من ذلك، عندما كلمني بلا خجل ودون مقدمات:

ـ هل تجيدين الرقص.؟

أوه.. ما أشد وقع هذه الكلمة.. كان بودي أن أضربه بكل ما أملك من قوة؛ إلا أن ضربة زوجته كانت أشد قوة ومراساً، عندما تركته وحيداً وأخذت الطفلين، وذهبت إلى غرفة النوم.

جمعت أنا الأكواب، محاولة اخراجها للمغسلة، إلا أنه أمسك بمعصمي، وهمسني بهدوء شابه الاستجداء والتوسل.. فأنكرت في نفسي أن يكون هذا طبيباً.! ولم يزل يداعب لطفي بقوله:

ـ كـل مـا فيـك طفـولي وعفـوي.. أنـتِ أكثـر اغـراء مـن ناديـة الجنـدي لا تحرميني متعة الرقص.

تركتـه وأنـا متوقعـة أن ينشـب بينهمـا خـلاف قـوي، إلا أنهمـا سـرعان مـا تجاوزا خلافاتهما، وخرجا صباحاً يتمطيان كأن لـم يحـدث شـيئاً.. فهـل يمكـن لخادمة يتيمة جاهلة ووضيعة، أن تفرق بين عشيقين؛ اشتركت في عشقهما أكثر من مصلحة.

وقبل خروجه ببضعة ياردات، غمزني بعين ماكرة، ما زادنـي صـداً وامتناعـاً عنه، بل وكرها له، خاصة أنه يمتلك زوجة أكاد أن أجزم: أنهـا عـديل القمـر، لا ينقصها شيءٌ بالكامل؛ وإن مثلها لا تستحق الخيانة.!

أحسست بالاقتراب منها والتعصب لها ضد مـا يسـمونهم بالرجـال الخونـة ـ كـل الرجـال ـ وأن كانـت لهـم الأسـباب المقنعـة، والمبـررات المنطقيـة، فأنـا أحرص على الوقوف بجانب جنسي، جانب المرأة التي طلقـت الـدنيا، وباعـت كـل زينتهـا، مقابـل الوفـاء لرجـل واحـد، قـد يخونهـا مـع العشـرات مـن اللواتي....حرصت على تنظيف البيت، وافطار الطفلين، وأخـذت العـب معهمـا، أحسست كأني بعمرهما إذا لم أكن أصغر منهما.. كان الطفـلان ودوديـن يقتربـا مني، وكأنهما من يرعاني، ويحرصان على مساعدتي، حتـى أن (احمـد) الطفـل الأكبر، كان كثيراً ما يدنو مني، ويقبلني بسـبب ومـن دون سـبب، حتـى ارتبـت من كثر قبلاته، ما إذا كانت تنم عن فساد أو عفوية.. وماذا أن كـان الطفـل علـى

غرار ابيه؛ أفسد من البيضة.. إلا أني سرعان ما تراجعت عن قراراتـي، وتملصت من شكوكي، رغم ذلك بدأت أصرف نفسي عنه واتثاقل عليه بعدما أخبرته:" بأنها طريقة غير مؤدبة، لا تصدر إلا من أولئك المنحطين، مثل أبيك ـ مع اخفاء المقطع الأخير. فانسحب منزعجاً، لا أدري إذا كان بسبب كلماتي الجارحة، أو أني منعته رغبة أو لعبة استلذ بها، واستطابت لها نفسه.!

وما أن ارتفع الضحى وإذا بالدكتور يدخل عليّ المطبخ، كان بين يديه أكياس من الخضار والفاكهة واللحوم.. أسرعت إليه، أخذت منه الاكياس، وما أن أفرغت يديه من الحمل، حتى واجهني بصوت مريب:

ـ اراحك الله، ازحتِ عني حملاً، حبذا لو تزيحي عني هماً، أرّقني ليلاً، وشغلني نهاراً.

لم يسعني سوى الصراخ به، والافلات منه إلى باحة البيت.. تبعني وقد علا الهدوء ملامحه الودودة، قائلاً: لا تخافي، أنا لست مجرماً، أو أبن شارع، ولا آخذ شيئاً إلا برضاكِ.

ازددت غيظاً وعصبية: أخذك الموت.

وفي هدوئه المعهود، مصحوباً بتذلل: لا تغلطي بي، سأعطيك اضعاف ما آخذ.

نظرت يميناً وشمالاً، لم أجد ما أستطيع أن ارميه به، وصرت على درجة كبيرة من الحنق والغضب، وأنا انتف بشعر رأسي.. كلما أقترب مني، أزداد

حنقـي وانتقـامي، فبـادرني أن أفلـت يـدي مـن شـعري فزعقـت بـه: سـأخبر زوجتك.علت على وجهه ضحكة صفراء، كدت أميّزها بين الهدوء والهزء لطفل وديع، بقوله:إذاً تتسببين بقطع رزقك، والعودة لزوج أُم فاسد...قاطعته: وليكن.فصدّ عني، وكأنه يتحدث مع عصفورة ضالة، هدّ المطر عشها وتهدم. وهو يقول: بإمكاني ان أحظى بأجمل الجميلات، والتي على مستوى، ولكني مغرم بك.. صدقيني أنا أعشقك.وألتفت إليّ وعلى وجهه رجاء ذليل وتوسل معوز، قائلاً: هل تصدقيني لو خيروني بينكِ وبين زوجتي، لاخترتك عليها.

اخترقتني هذه الكلمات النابضة، شكّلت دواراً جارفاً في دماغي، واعصاراً في مخيلتي، لا أشك ابداً بخداعه، فمثله مثل غيره الذي يقول:" إنها امرأة شرقية من السهولة الضحك عليها بكلمتين تتلخص بـ (أحبكِ) أو (أعطيكِ).. كان خداعه مُغرياً.. وما يحصل لو سايرته في لعبته.. لا.. لا.. أنه سيأخذ الكثير، وقد يعطي اليسير، أو لا يعطي شيئاً البتة، لكن ماذا لو صدقت مشاعره نحوي.؟! ورجعت لنفسي مغمضة العينين براحتيّ، فسكوتي يعني له الرضا، ويشعل فيه جذوة الطمع.. لا أدري ما أصنع، بعدما نشبت معركة ضارية في داخل النفس.. فترك ُالعمل مسألة بغاية الخطورة، خاصة وأن زوج أُمي يترصدني خطوة بخطوة، وتنبهت للحظة متسائلة (ما الذي أدراه بزوج أمي ومضايقته لي)، لا بد أن يكون مطلعاً على كل اخباري.. لكن من هي، أو هو ذلك الواشي الذي وشى بي عنده.. هل هو زوج أمي.؟! لا أظن أن يصل به الحال، إلى هذه

الدرجة الكبيرة من الخسّة، أن يحكي عن نفسه بهذه الصورة المجنونة؛ وإن كان كل شيء جائز.

ربما أُمي أخبرت الدكتورة بذلك، لا.. فأمي لم تلتق بها مطلقاً.. هي، هي تلك الوسيطة التي أتت بي عندهم.. لكن ماذا تنفع الولولة.؟! وهو شاحذ سيفه ليذبح أنوثتي، وإن لم يكن هو فغيره؛ هي كل أنثى مذبوحة يوماً ما، لكن بوقتها.. الله ما أجمل الآلام التي تذكرنا أن نكون رحماء.. نزلت دموعي بغزارة، وأنفي بدا يتمخط.. لا أدري وأنا ازفر بزعيق العبرات والنشيج، وأنا بين الاذعان والرفض، على الرغم من العجز، واحساسي بالشلل في المقاومة، وعزيت نفسي بأنها فريسة سهلة تجرُّ بخطاها إلى الجزار.. للحظة تحرك رتاج قفل الباب ودخول زوجته، وانشداهها بشخوص زوجها حيث ظلت متسمرة عند الباب.. فسار بخطى حثيثة نحوها، صائحاً بها: هه ما بكِ.؟ جلبت الاغراض؛ وها أنا خارج.

في نفسي، قلتُ له: إلى الجحيم.

بعدما لمست ما يدور في خلد زوجته، من فورة غضب، ونار غيرة واحتراق.. وإنّ كل ما دار في بالها ووهج اشتعالها، من اسئلة نارية.. فهو أخف وأبرد بكثير من ناري المستعرة، وقواي المنهارة التي أوشكت أن تُصير حطاماً.

يظل السؤال ككل أسئلة الرغبة المتوحشة، لماذا هذا الزحف الكبير وراء لذَّة، سرعان ما تتبدد، غير أن أثرها تلازم الذات إلى الرجع البعيد.

* *

الحلم الأخضر

(٩٦)

نحن شعوب الحلم الأخضر والقات..

يسكننا الموت احياءً

وإشباع الذات على الذات..

كالعسكر.

ثبت لي بالدليل ما يسعى وسام على تأكيده، من أفكار ديكارتية: أنا فاسد، إذاً انا موجود.. صراع مع حلم أخضر يؤنس بالبقاء، بالزهو واللغو المستمد للبروز والتمظهر.. لم أسمعه يوماً، قال:" أنا أفكر". ولم أره او اسمعه قال: إن نعل رجل مكافح شريف تاج على رأسه، ورأس أفكاره الفاسدة.

للحظة التي وضعوا جثماني في سيارة الايفا، العجلة الالمانية الصنع، التي صاخر حديدها من كل جانب ومكان، على أرضية حديدية صلبة، مع جثامين أخرى وأعضاء مقطعة لا تعرف هذه القدم لمن، ولا تلك اليد.. أطلُّ بنظر شفيف على تلك الجنود البائسين، الباكين منهم والمتباكين، وهم يسترجعون ويتأسفون على شباب أخفق في مواجهة القدر.. ملامح وجوهنا بدت كالحة،

وغيرها ممزقة، حتى لا تعرف هذا من ذاك.. وما زلت اتأمل بلهفة أن أرى واحداً من زملائي، معارفي وأن كانوا قلائل.. حتى جاء يحيى مسرعاً، وهو يفتش بين الجثامين، قصد جثماني، وقف متأملاً، تحسس ملامح وجهي، وبكى وفي قلبه عتاب: ″ أين الوجوه التي كانت منعمة″.

كان إذ ذاك أحد ضباط المغاوير، الذي لم أتعرف به مسبقاً، ميّزته ببذلة المغاوير.. ضرب على كتف يحيى ـ إشارة بالابتعاد عن العجلة ـ فعاتبه يحيى بهدوئه المعتاد: لماذا لم تنقلهم بعجلة الاسعاف.؟

قال متزمتاً ـ هكذا هو حال الضابط حتى مع الموتى: سيارة الاسعاف للجرحى، ليس للقتلى؛ وأنت ترى كم عددهم.

ربما كان كلامه صحيحاً.. لكني تساءلت أين إكرام الشهيد، أمْ أنه بات منتهي الصلاحية.؟!

وكم كنت أملاً أن أرى وساماً.. سألت عنه كل الوجوه البكاءة الأسيفة؛ لكن من يقوى على اجابة ميت.

انطلقت السيارة بنا إلى مستشفى ميسان العسكري، كان الطريق غير معبّد، مغطى بالوحل والبرك والحفر.. العجلة تشمر يميناً وشمالاً وهي تدكدك ما بقي سالماً من عظامنا.. احتضنتني جثة لا أعرف صاحبها.. فضحكت رغم ما أنا فيه؛ وبدأت أُنكّت: ما بال هذه الحورية مقطعة الاوصال.؟!

فسبني سبة لم أسمع بها قط في حياتي كلها، ثم قال أسفاً: اقلبني على الجهة الاخرى، أُيها الظريف؛ فليس لديّ يدان لأعدل نفسي.

خجلت حدّ البكاء، حتى اختلطت دموعي بدمائي، وأعجز أن امسحها؛ فاشرخ جرحاً دفنته خثرة الدم.

بلغنا الشارع الرئيس، بعد أن كادت العجلة تنزلق في الطين أكثر من مرة.. إلى أن وصلنا سيطرة عسكرية في مفترق الطريق.. فتوقفت السيارة، قلت: يا رب لم ننج من السيطرة أحياءً وأمواتاً. لكن هذه المرة كانت الوجوه أقسى ملامحاً وضخامة، بزيٍّ مدني موحد، بذلات ناصعة الزرقة، وسلاح موحد.. انزلوا السائق وأثنين من أفراد الفصيل الطبي اللذين كان برفقتنا، وانهالوا عليهم بالأسئلة والكتب الرسمية.. صعد أحدهم على متن العجلة وكان جلفاً قبيح المنظر، لا أرشحه إلا إلى جلاد، وقام يتفحص الجثث، مرةً بيديه، وتارة بقدميه، وأمسك بشعر رأسي، يتله ويتفحصه، حتى أحسست كأن روحي أوشكت على النزع الأخير. وقبل أن أحلق في ذلك النفق البلوري الجميل، حدقت ملياً في وجوه هذه الطغمة الفاسدة متسائلاً: مَن هولاء الأشرار.؟ عرفت أنهم فرق الإعدامات.. قلت في نفسي وأنا محلقٌ في المجهول: أن فرقة (الكاولية) أشرف وأطهر من فرق الاعدام؛ ومن أمر بذلك وافتى.

(٩٧)

ما انتصر قائد بمعركة ما، بل انتصر الجندي الذي عرف التكيّف مع مفردات البقاء..

الحرب هي الحرب، أينما كانت، وكيفما كان هدفها.. لا تقاس إلا بحماس كاذب، وخوف كاتب.

أُريقت دماء واثكلت أمهات وزوجات ويتمت أطفال، وللحديث نواح صاخب وشجون..

أظن أن الحب أفقدني توازني، مثلما فعلت الحرب.. هكذا كنت أرى صبرية الجمال كله، على علله.. الجيش سلبني حريتي، وهي سلبتني راحتي، ولا أجانب الصواب إذا ما قلت كذلك استقامتي.

اختفت فجأة، وبدا البحث عنها مضن وشاق كمن يبحث عن إبرة في كومة قش.. انتقلنا من منطقتنا بعد كل حالة قصف مدفعي، نهرب إلى ما وراء النهر، لم اعرف عنوانها، ولا أدري أي أرض ابتلعت (أُم نجاوي) وابنتها، الدليل الوحيد لمعرفة عنوانها.. كاد يطغى عليّ هاجس الفقدان، وكيف أقوى على هذا المصاب.. خاصة بعد أن اعترفت إليّ بكل صغيرة وكبيرة في حياتها، لم تفوّت تفصيلة واحدة دون أن تذكرها وبإسهاب، مؤكدة على أنها لا تريد أن أسمع عنها من أي شخص آخر.. واقسمت على صدقها، آملة على أن ابادلها الصدق، لا صدق الاعتراف بالذنب ـ فأنا لست ملزماً بشيءٍ من ذلك ـ ما عدا صدق المشاعر.

اصدقائي كلهم مشغولون، توزعوا على جبهات القتال.. منهم من تلفع بأثواب العالم الآخر، ومنهم من ينتظر حتفه، حتى من بقي منهم دون أن تشمله

الخدمة العسكرية الإلزامية لسبب أو آخر، تفرقوا كل منهم في محافظة أو مدينة أخرى.. نحن الشعب الوحيد الذي يشعر بأنه يعيش في يوم القيامة.! الكل منشغل بنفسه، بالكاد حسناته ستوفر له صك الغفران، وتدخله ابواب الرحمة.. لكن أين هي الحسنات ونحن كلما تحتدم أوج الحرب، وتشتعل ضراوة الموت، نلجئ للملاهي والبارات.. وأذكر أن أبي قال ذات يوم، وهو في أوج غضبه واستيائه: إنَّ جيلاً يستمني على صورة تخطيطية في المراحيض، لهو جيل يستحق الحرب بجدارة.

حملتني الصدفة وأنا احثُ الخطى في سوق العشار، الذي بدا أشبه بأية وحدة عسكرية لألتقي بهشام أحد الاصدقاء الذين تعرفت بهم في مركز تدريب الديوانية.. دعاني بشدة للعشاء في أحد المطاعم، فلم أجد بداً من التسليم لرغبته الملحة.. بدأنا نجرجر اقدامنا بين مطعم وآخر، نستعيب هذا، ونستقذر ذاك، فلم نتفق على مكان معين؛ حتى ولجنا في بار.. قال ضاحكاً: جيوبنا لم تسمح لنا إلا بارتياد أرخص البارات، ملتقى الجنود البائسين بما فيهم الحوذية والعتالة والشحاذين، (اشتورا) هو ملاذنا الآمن.

اعترضت بشدة فأنا لا احبذ ارتياد البارات، ولم يسبق لي أن تعاطيت خمراً؛ حتى السجائر كنت قد حرّمتها على نفسي، فقال مبتسماً: أنت مدعوٌّ على عشاء، فإن أردت الشرب فهذا الأمر عائد لك.

جلسنا في حديقته المتهالكة الفائضة بالماء والوحل، واشجارها المتهالكة، وقاعتها المخنوقة بالدخان والوان الجدران الرمادية التي تنم عن البؤس والضياع وهي حانة تعج بالأرذلين.. الكل يضفي عليك رائحة السكر التي تزكم الانوف، هذا إذا ما ازكمت العقول، لتحررك من عالم مليء بالقيود والخنوع والاستلاب.

عندما دخلت البار للمرة الاولى، ارتحت له على بساطته و(مازته) التي دائماً ما تكون الحمص المسلوق مع أجنحة الدجاج ـ التي تتمنى لو أنها طارت قبل السكر ـ وبعض المقبلات التي توائم مزاج الخمار؛ هذا غير شعوري بالدعة والوداعة.. فواحد من هؤلاء الناس البسطاء، أرقى بكثير من أبناء الذوات، وأصحاب المكانات. هكذا عبر هشام عن رأيه، ولم يكمل كلامه، بعدما أنشغل بعدٍّ منجزاته على الصعيد الشخصي.

كلهم يشربون بصمت، ويستمعون لما تصدح به كوكب الشرق السيدة (أُم كلثوم) وكلما كانت الموسيقى عالية وحماسية كلما ازداد الذوبان والترنح في الهواء الموبوء بالأدخنة والمشروبات ونتانة الأجساد.

نصغي بانتباه شديد، ونشجع بصمت، فلا يحب أحدنا أن يقطع على الآخر متعة الاستماع مع لذة النبيذ، أغلبنا يطمح بالمزيد من الهدوء، بعدما كان البلد يعيش على نغمة من تراجيديا الويلات، و(اكشن) الصواريخ والقذائف المسمومة، والهموم المتتالية، ونوبات القتل المستمرة.. و.. و..

ناداني أحدهم بهدوء، وكان مسترخياً حدّ الانطلاق على طاولة إزائي:

ـ هل عشقت.؟ هل تعلم شيئاً عن جنون العشق.؟ هل صادفتك امرأة وقفت ساجدة تحت قدميك، متوسلة بقدسية الحب، أسمى المقدسات، أنْ لا تهجرها، أن تبقى معها العمر كله.

لم أجبه بشيء، لم أنبس ببنت شفة.. الحق أني اشاركه ذات الاحاسيس وأُشاطره ذات المواجع.. لكن الذي لا اعرفه تفاوت الطاقات ومديات التحمل.. كما لا أعلم شيئاً من لواعجه.. وبتُّ خجلاً، منكسراً.. الكل يعيش على أمل، على لقيا حبيبته، يبكي بين أحضانها لوعات قلبه المستديمة، ليفك قيود أسره وأصفاده بين طيات شعرها المنساب كالشلال تدفقاً وبرودة، ويسبح بين فخذيها ووهادها الغائر، ويصمد متسلقاً جبالها واوتادها؛ أماني خرقاء.

وأنا ما زلت أبحث، وأبحث، والحق لا أدري أين اختفت (صبرية) وهل هو غياب متعمد.؟ أم خطفها صاحب مكبس التمور ـ الجرداق ـ التي حدثتني عنه.؟! وما زلت أبحث لكن دون جدوى.!

ورجع ليكلمني من جديد، وأنا أحس بسكره، وأشعر بما ينتابه كما ينتابني؛ لكني متأكد بأنه مخمور عشق.. أبداً لم يسكره هذا المشروب العفن بمقدار ما أسكره الزمن القذر.. راح يتوسل بي ويترجاني، أن أستمع إليه، ويلتمسني النصيحة بقوله:

ـ أرجوك يا صاح خبّرني ما أصنع، إن تركتها ستموت؛ ولا خير بالحياة بعدها.

فأجبته على سجيتي:

ـ إذاً لا تتركها. اجّل سفرك إلى وقت آخر.

وبحسرة طويلة، وهو يضرب أسداساً بأخماس: والجيش.؟!

على الرغم من أني عسكري مستجد ما أزال في طور الإعداد والتدريب، إلا أن ما ينتظرني هو الأخطر، لأن الحرب باتت تتجدد، وفي كل يوم تزداد ضراوة وبشاعة؛ آه لأحقاد السنين.. مدة قصيرة ومنها سأنطلق للعالم الأكبر، فلا أكبر من الموت شيء، خاصة ونحن نجابه عدواً متمرساً على الموت، إنها سنتي الأولى، وارتدت حينها البارات.. فكيف بمن أفنى عمره كله بالعسكرية، إلى أي جهنم يرتاد؟!

ـ أنت عسكري.؟

ضغطت على المكابح، وامتنعت من الحديث، وحاولت أن أُمسك نفسي الناظرة في عمق الكأس التي ما تزال عامرة؛ ما استوقفني حتى احتساء آخر قطرة منها.

فعاد عليَّ قوله:

ـ لا توجد أجوبة، كلكم جبناء، عندما تسمعون بالعسكرية تصمتون؛ كلكم وطنيون وأصحاب مبادئ، أولاد الكلب. فقام على الفور رجل مرتدي بزة نيلية اللون نصف كم، تله من تلابيب قميصه، وسحبه بهدوء إلى الخارج، ومن ثم إلى أجهزة الفحص والتمحيص.. فحاولت الانصراف مخافة أن يلحقني

معه، أو يشملني الاستجواب.. إلا أن رجلاً آخر كان قابعاً بإحدى الزوايا، لا يختلف عن شاكلة صاحبه الأول، صاح بي:

ـ إجلس؛ لا عليك.

فحاولت أن أغيّر وجهتي، معتذراً بالذهاب إلى بيت الخلاء، بعدما صحت: زي الناس (العبارة المتعارف عليها عند الخمارة).

لكنه وقف منتصباً وبطول ذراعه وسبابته صاح بي: اجلس.

فجلست بلا تأنٍ.. وكانت كلمات أُم كلثوم، تتسارع إلى ذهني: ((إنما للصبر حدود.. إنما للصبر حدود)).

لكني أوعزت إلى نفسي تلقائياً: يا هذا. لا تصدق كل ما يقال.!

(٩٨)

دائماً ما يتطوّح الخارج من البار للتو، وإن لم يكن سكراناً، فهو سكران بمصائب الحرب والعسكر ونظام القسوة، وزج العقل في بوتقة الجمود، وامتهان القتل والنفاق، الكل مدجج بسلاح: أما بندقية وأما قلم.. وعلى رأس كل طريق مفرزة انضباط عسكري، يرافقها عنصر أمن، يستوقفون كل غاد ورائح ليقضوا معه وقت مزاح، وخاصة السكران، وكيف لا وأن للسكران حظوة وقبول وحكايات هذرة تلامس العقول وتوافق المزاج.

وأكثر ما يشدهم ويمتعهم حكايات الخلاعة والمجون.. لكن ويحه إذا ما تعرّض للسلطة بمزحة أو إشارة ولو عن بعد، فسيحصد طناً من الصفعات والركلات بالبساطيل والقنادر.؟

بينما كنت راجعاً من البار إلى البيت، محاولاً كل جهدي بالثبات على نفسي، والسيطرة على خطواتي المبعثرة، المفككة هنا وهناك.. كان بمحاذاتي شاب جميل بهي الطلعة، يسير الهوينا، وقبالنا فتاة جائية، فحصت كل ملامحها، لم أجد فيها نقطة اغراء ولا لمحة إثارة.. لكني محتاج ومهتاج لهذا الجنس على الرغم من قباحته، والمحتاج حقيقةً لا يتبطر.. كنت أرمقها بنهمٍ وشره، بينما كانت صادة عني وهي تنظر للشاب الذي ما تزال خطاه تساير خطاي؛ دون أن يعبأ بها أو يكترث لها.. أنا قتلت نفسي شوقاً لمجرد لفت انتباهها، أو انعطافة باسمة نحوي، تعيد عليَّ ضياعي وانتشالي من تزاحم الاشواق.. لكني لم أدرك منها غير سراب لا يروي العاشق، سوى ظمأ وعذاب.

اجتازتني وعبرت، وأنا ما زلت أكسر عنقي ملتفتاً نحوها، لا أدري ما الذي جذبني إليها، سوى انها كاشفة الصدر قليلاً، على الرغم من أن صدرها لم يكن ممتلئاً ولا مكتنزاً.. عدت لألوم نفسي وأُوبخها على هذا الضعف والانحلال.. كم صرت مراهقاً وسفيهاً لا يقوى ان يتمالك نفسه في اهزل المواقف، فكيف إذا ما خضت الصعاب.؟!

لكني بالكاد سرت وتجاوزتها، وكأني لم أشعر بها وان كان قلبي يتقطع ألماً على شبابي الذي ضيعته بالهبل.. عمل بلا مكسب، ونشاط بلا ملعب، والجناية الكبرى أني ظلمت قلبي، الذي شبّ وقد يشيب، وهو ينبض بإخفاق أخرق؛ بحبٍّ ما عدت أطوله ولا أدرك سره.

فزت من صراعات نفسي المحتدمة، متسائلاً: (ماذا يفيد اللوم، إذا ما صححت مسيرتي، إذا ما تخلصت من مراكب رعونتي، إذا ما بحثت عن ضالتي، إذا ما غيّرت ضلالتي بهدى وتفاؤل).!

وانتهيت إلى البدء من جديد، حياة أكثر هدوءاً واستقراراً، انزع فيها ثوب التقوقع، والتمرد على الرغبة، أُجاري الواقع، أعيش الحياة بما لي عليها من حق، حسبي أن لم أعشق الحياة سترفضني، وتلفظني مفردة لا قيمة لها، وُسبّة تافهة في فضاء الضياع.. أنا عاشق منذ الآن، منذ اللحظة، حتى أحسست بصدى صوتي يتغلغل في جوفي، يدكدك المكان.

فزعت وانا عند أول مفرزة للانضباط العسكري، يا ويح نفسي لو أني كنت فطناً، لما اقتربت منهم، أنهم أشبه بالزنابير اللاسعة، الابتعاد عنهم يقيك الضرر.. ورحت أكيل القذع والطعن للنفس، بعدما تجاوزت مرحلة العتب.. وما أن هدأت فورة غضبي قليلاً، بعد أن عرضت اجازتي وهويتي العسكريتين وكانتا سليمتين، أوعز إليَّ الانضباط بالانصراف، فأحسست بالانفراج، ودلفت سريعاً إلى داخل السوق في أوّج الزحام، مخافة أن يرجع بقراره، وأخذت أمسح على النفس واعتذر

منها، ووعدتها أن أكون قوياً كالطود، حريصاً على أن امنحها حقوقها بالكامل، باستثناء الحرية، فالحرية في بلدي لها حديث آخر، كونها منوّطة بورقة الإذن، إجازة معدودة الايام، مختومة بختم الوحدة، وموقعة باسم آمر الوحدة؛ ودونها تعيش الوحدة، وأيسرها وحدة السجن؛ هذا إذا لم تكن وحدة القبر.

وإذا أنا بانضباط عسكري كان بمفرده وجهاً لوجه، فأديت له التحية العسكرية دون أن اعرف رتبته، ابتسم في وجهي؛ وهربت.

(٩٩)

بان فجرٌ جديد، زجاجي الأطياف، جليدي الأفق، مثل صبح رؤياك، وبياض صراحتك..

أنتِ امرأة كلها حيوية واتقاد، شفافة، ساحرة تسر اللحاظ وتسبي القلب، إذا لم تستلب اللب.. هكذا كان قلبي ينعتها في حلمه الطائش ويقظته المفزوعة.. بينما وجدتْ به الخائف المتذبذب الذي لاذ بركنها، والضائع الذي صارت مكانه ومستقره، وهو مفلس من كل شيء، لا يملك سواها، هي رصيده الوحيد وقصيدته والشهيرة وأغنيته التي يلوك بها في كل حين.. مرتبط بها ومشدود من أُم رأسه حتى أخمص قدميه.

عرفتها فتاة حركة، قد عرفتْ كل الطرق والمواصلات، فقد عملت في أكثر من مكان، وأخيراً انتهى بها العمل في إحدى مكابس التمور، كان الكل

معجب بها كالعادة، خاصة صاحب المكبس الذي كان يشير إليها باسم (البرحية) بدل صبرية كناية عن أفضل أنواع التمور..

أغدق عليها بالعطاء السخي مقابل الزواج منها، لكنها كانت أذكى من أن تدخل معه في خصومات تؤدي بها للطرد والشارع، كحال سائر الاعمال التي لم تحصد منهن غير الفشل، إلا هذه المرة، فقد صارت حكيمة وأخذت الأمور بروية، واستخدمت الحيلة في الشد والجذب، فقد استطاعت أن تكسب ثقة الجميع، فضلاً عن حبهم والتودد إليها، بعدما تلفعت بثوب الحياء والعفة، المشفوع بالقوة والصلابة، وبرهنت على أنها أعف وأشرف من كل البنات الأخريات، المعوزات اللاتي يسعين وراء المادة؛ وإنْ كلفهنَّ ذلك ستار العصمة.

كانت صبرية لا تشك البتة بطلب صاحب (الجرداق) بالزواج منها، فقد منّاها بما تشتهي وترغب شريطة الزواج سراً، بالمقابل سيفتح لها بيتاً وباسمها وبأي مكان تختاره، وستكون خطبتها رسمية إلا أنها تقتصر عند المأذون الشرعي؛ بعيداً عن رسميات المحاكم والقضاة.

وجدت صبرية منفذاً للإفلات منه، ومدخلاً للتلاعب به، مشترطة أن يكون الزواج علناً، وبعقد رسمي في محكمة الأحوال الشخصية.. هذا الأمر وحده من اوقفه عند حده، فبدا يستدرجها بالعطايا والهبات، لعله يستطيع أن يلين جانبها ويوفق في اقناعها.. لكنها أذكى من أن تستسلم لقبضته السحرية، متذرعة بضمان حقوقها وحقوق أطفالها إذا ما رزقت منه، وبالتالي فأن هذا مطلب

مشروع، وأنها لا تطلب منه العقارات والاطيان، ولا ترغب في ضم رؤوس الأموال في جيوبها الممزقة، فهي بنت قنوعة، ترضى بالقليل، وتقبل باليسير، مقابل زوج يحترمها ويكرمها ويراعي حقوقها.

ضحكتُ وأنا استمع لشدة صراحتها وذكاءها النافذ على الرغم من شدة المحنة، وأنها انسانة وحيدة وضعيفة، والعالم ينظر إليها بوحشية ونهم.. لكنها كانت تكره هذا النعت، فأنها أبداً لم تكن بالمرأة الضعيفة، وأنها اليوم غيرها بالأمس، فهي تعمل مع مختلف الرجال دون أن تخاف وحشيتهم، وجموح رغباتهم الطائشة، ونظراتهم الأفتراسية، لكل امرأة مهما كان شكلها وسنها؛ وإنْ افتقدت مقومات الأنوثة.

(١٠٠)

سألتها عن حال زوج أمها معها.. ضحكت بنزق قائلة:

ـ كسرت له ساقه السليمة.! وأردفت القول:

كلما كبرت بدأت أفهم أن الحياة لا تؤخذ بالبساطة والسذاجة، والخائف لا مكان له حتى في قعر بيته، فروّضت النفس على الشراسة، وتمرنت على فنون الكلام والحيل.. وكنت متأكدة أن شيئا ما ينقصني، هي أن أكون قوية البنية.. فكلما رأيت زوج أمي وهو يجرها إليه، ويسحلها بجثمانه الشبابي النزق، وهي تنقاد إليه كالنعجة الضالة، متسمرة بمكانها كالرق الخانع لمولاه.. حتى عندما

كان يضربها، ما كانت لترفع يدها لتصد هجومه الوحشي المتكـرر، بسبب وبـلا سبب، فحاولت أن اعلمها كيف تقاومه، وتقف بوجهه، لكنها لم تتطلع للحريـة يوما، ولم تعرف سوى حيـاة الإذلال، مـا عـدا تلـك الأيـام التـي عاشـتها بكنـف والدي ذلك الرجل المتدين، الحريص على حرمـات الله، الـذي سـارعه المـوت على عجالة؛ وهو لم يزل أخضر الحلم.

أما زوجها اللئيم هذا فهو لا يرحم، ولا يدع رحمـة الله تنـزل علـيهم، وهـي على العكس منه تماماً، مستنة بأن الشرع لا يسمح لهـا بالتطـاول والتحايـل عليـه، غير أن عليها الطاعة العمياء حدّ الاذعـان.. إنهـا لا تفهـم الشـرع إلا مـن منظـوره الضيق، على المرأة أن تكون سلعة يُباع بها ويشترى.. حتـى أنـي لـم أفكـر يومـاً بتأييدها، وما أزال اعتقد أنها بعيدة عـن الصـواب، وأن كـل أعـذارها ومبرراتهـا باطلـة، وبـدأت أشـك فـي مثـل هكـذا معتقـد؛ فـأن أشـد مـا أكـره مثـل هـذه الاعتقادات الجوفاء.

لم يسكت اللعين، ففي كل مرة يحاول ان يتعدى عليَّ، لذا شـهرت سـيفي بوجهه، رغم ممانعـة أمـي لتعـاملي معـه.. فقـد كـان لوالـدي ـ رحمـه الله ـ عصـا تراثية مزركشة بدبابيس فضية كانت من اهـم مقتنياتـه، فأخرجتهـا مـن صـندوق قديم، ووضعتها تحت سريري.. وفي يـوم مـن الأيـام ألـحّ زوج أمـي فـي طـرق الباب علي، بعد أن أحكمت الباب بالرتاج، فعجز عن فتحه، وفـي اليـوم التـالي، عندما عدت من العمل، وجدته قد اقتلع الرتـاج مـن مكانـه، فقلـت فـي نفسـي: (وجنت على نفسها براقش).

وفي تلك الليلة، ختلت له وراء الباب، وبيدي تلك العصا الغليظة، فدخل فرحاً يتمطى، وتناوشته بالعصا أول ضربة على قدمه السليمة، والثانية على ظهره، ثم رأسه، حتى فقد وعيه، فصرخت أمي بي: اتركيه فقد مات.

قلت لها: هذا كلب بسبعين روح.

فجاءت بالماء وغسلت وجهه، وما أن أستعاد وعيه، بدا يهدد ويتوعد: سأصنع كذا وكذا.

وأمسك أمي من شعرها وتلّها إليه.. فانقضضت عليه بضربة جديدة، حتى كسرت له قدمه السليمة، وهددته إذا ما آذانا أو تجاوز علينا مرة أخرى، سأكسر رأسه، وإذا لم ينفع معه ذلك، فأني سأذبحه وأطعمه للكلاب.

* *

حلم الرب

(١٠١)

لو سمح لي أنْ أخطّ شعاراً عالمياً، لكتبت بالبنط العـريض: "النـاس صنفان إما أخٌ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق".

لم يصمت خالي طويلاً حتى ذاع قصة حبي، بعد أن حدثته بكل صغيرة وكبيرة عنها، حتى تمنى ولو مجرد أمنية أن يعيش قصة حب مماثلة.. وكلما اخبرته بتفاصيل قصتها، كلما كبرت بعينه، ولم يلوِ على كلمة شغالة أو خادمة. التي بدأتُ أكررها بامتعاض وتذمر. قال: إنها اسطورة.

سمع أبي بالقصة مفصلة، الرجل المتدين الذي كان يخاف الله كثيراً. فقال لي بعبارة، ما تزال ترنُّ في اذني: إنك أبنٌ عاق، جلبت لنا العار، بحبٍّ خادمة.

أما أمي التي كانت متعاطفة كثيراً معي، خاصة وأنها قد رأت صورتها في مكتبتي الصغيرة بالصدفة، فأشادت بجمالها وأطرت على لباسها المحتشم؛ لكنها كانت خائفة من سوء الخاتمة.. فهي تدرك جيداً أنني لم اصبر طويلاً في المواجهة، ولستُ بالقوى المطلوبة التي تؤهلني الدفاع عن ملكية مشوبة.. قد يبدو الوضع بحاجة إلى تضحية، وتضحية كبيرة حد الاستماتة؛ وأنا جنوني على قدر الحال.

تملكني الضعف إلى درجة بدأت استخطر هذه الفتاة، وأستعظم شأنها؛ وأجد نفسي أصغر من أن اشاطرها حياة الحب.. لم يكن عمل الخادمة الطارئ عليها يبرر عليّ هجرها، لكني بدوت ضعيفاً أمام قوتها، وقابلية التحدي التي تملكها قولاً وفعلاً.

فما كان أمامي إلا أن أفتعل الافاعيل، وأغّير اتجاه بوصلة الحب إلى رغبة مماسة حقيقية، حب أفلام، أو زواج أرثوذكسي، بعد أن ينجبا كذا طفل.

لست بتلك القوة التي تمنحني زمام المبادرة، بإدارة دفة الحب باتجاه نشوة عابرة.. خبرتني منذ عرفتني وعرفتها، بالإنسان السوي، الملتزم بكلامه ووعوده، والصادق في حبه واحاسيسه.. حتى عندما كنت اطمح بأن أمسك يدها، كأي شاب يعشق المجازفة، ويطمح بالتقرب.. كانت تقّبل كفي معتذرة، فاخجل حتى يحمّر وجهي؛ فتصرف نظرها بعيداً لئلا أرى بريق دمعها.

تعمدت مرة رفعت حنكها بسبابتي، وأخذت أُحرّك رأسها يميناً وشمالاً. فصاحت بي: يدك.

فأفلتها على الفور، وقلت لها بكل هواجس الاشتهاء: كم أنت جميلة.؟

قالت بإكبار واعتزاز: أعلم؛ لكنك أجمل.

قلت ووجيب قلبي، بان على وجهي خفقانه: أموت فيك.

قالت باسترخاء: أن تموت بالجبهة شهيداً دفاعاً عن حرمة الوطن أفضل وأشرف، من أن تموت عاشقاً سكراناً ـ كأنها تهجس سكري وتطوحي.

عادت انفاسي للحظة، بعد أن كنت أجتر الذكرى تلو الذكرى، والألم تباع الألم، وفي وجهي ابتسامة صارخة: ها أنا شهيد، ها أنا شهيد؛ أينّك أنتِ.

ما كنت أعلم إذا كنت ميتاً، أو حياً، خاصة بعدما أودعوني في ثلاجة الموتى، بين جمع ليس بالقليل من ضحايا الحب والحرب، ربما كلهم تركوا الحب الروحي، الاحاسيس الجياشة للامتثال للحب العقيدي: حب الوطن. ربما نزلوا على رغبة (صبرية) التي تمنت أن نموت في الجبهة، بدل الموت على صدور الغانيات؛ ربما.!

أطالع الموتى كلهم يبكون، ربما لأنهم لم يكملوا مراسم الاعتراف بعد.. وأنا الذي اسهبت باعترافي، بدوت مختنقاً بعبرتي. إذا لم تكن صاحبة الشأن تسمع قصتي؛ فما جدوى الاعتراف.

(١٠٢)

تلوج الروح بين نادمٍ ومعتذر.. وتسكر في استلاب واغتراب حذر.

على باب الطب العدلي بكاء وصراخ، وهواجس تتمرغ بالوحل، وأيتام حبلى بالهم، أُمهات وزوجات وأخوات تحزمن بعباءاتهن، استعداداً لحسكة النواح واللطم الذي لا ينتهي مادامت المصائب تترا.

بدت بعض الجثامين تتبخر، لتفسح المجال لآخرين من المرمين بالممرات والباحة الصغيرة.. بدا موظف الافراج يمنح الاذن المختوم؛ لتمريره من سيطرات الشارع إلى المقبرة؛ اجازة أبدية من العسكر والحياة.

كنت أنتظر بين كـل المنتظـرين، سـيأتي أبـي، لا.. لا.. لا أريـد مجيئـه فقـد كسـر قلبـي.. أنتظـر أمـي. لا.. ولا أمـي الأُم التـي تظـاهرت ضـدي؛ لـو شـاءت لأنقذت حبي.. لا أريد أي أحد مهما كان، غير حبيبتي، التـي ظلمتهـا بالمواعيـد الزائفة والتسويف.

أذكر مرة وبطريقة ملتوية، تعمـدت إذ لامسـتُ نهـدها بزنـدي، ذاك النهـد اليافع العنيد على القطف. قالت بازدراء: لا يعبث الحرُّ في ملكه.

يبس ريقي على الفور، تلعثم اللسان حتى بدا كالخشـبة.. تمنيـت وقتهـا لـو أنّ قصاصاً ربانياً ينزل بي سريعاً، ويقطع زندي؛ فأني لأبرئ من يدٍ تسرق نفسها.

وأنا اليوم أتحسس زندي، يدي، لا حراك لها، ربما قد سبقتني بـالموت؛ أو تعرضت أول ما تعرضت للقصاص العادل.

كنت في مقدمة الجثث المرمية في الممر، معرّضـاً للـدوس مـن كـل زائـر مشدوه، يفتش عن قريبه.. حتى أني تعرضت للدوس بقوة، وأحيانـاً للركـل غيـر المتعمد.. فأصرخ وأصرخ حتى عادت العتمة، وانقطع الصـوت؛ لحظـات وتلـجُّ الروح في عالم الانكشاف.

لـم يزل دوار النفق البلوري بمراياه العاكسـة الفاضـحة، يصـعد بـي.. أخـرج منه للحلقات المتذبذبـة الموجـات.. أتحـرر منـه لأنتقـل علـى سـجادة فسيفسـاء الشكل، بهـا مـن سـحر الألـوان: مـدن سـاجدة، وأخـرى راكعـة، وأنـا قـائم بـين القائمين.. كأن هناك من ينكث بي هذه السجادة الكبيرة، أشعر بالنكث كرجفـة جنح البعوض، تذبذب معها كل المدن العائمة؛ كأنها الراجفة.

حتى إذا استقريت في أعلى الهرم، وجدتني مطلاً على الكون الفسيح، الذي بدا أشبه ما يكون بفقاعة كبيرة، اتحسس جانبها الذي بدا طرياً، فادخل إصبعي ليغوص بهذا الجدار السديمي الرخو.. فأعود وأطيل النظر بفقاعة أُخرى أكبر، بجانب هذه الفقاعة، وأُخرى وراءنا وأُخريات كُثر؛ كلهن يسبحن بتلقائية منظمة.

فولجت بداخل الجدار الذي كنت اعتقده منيعاً، إذ كان هلامياً بانسياب جميل.. وإذا أنا أطلّع منه على صرح ممرد من رخام منير.. بدت الأنوار جلية، وأنا انظر للفقاعات من مكان رصد، وكأنها بالونات هواء تحتفي بمناسبة ملكوتية.

للحظه كم كرهت العلم والعلماء، وسام وأباه أشدّ المقت، الذين اقتنعوا بأن الكون محض ظلام.

وأنا أُشاهد هذه الأنوار العجيبة، ومواطن البهاء السنّي، فسجدت وهذه المرة أعلمُ جيداً، بأن ما أراه هو نفحات من الرحمة، في دائرة الرضوان.

(١٠٣)

إنَّ أعجز العلوم، هو العلم الذي لا يرى إلا ما تحت نظره. لا أفرض رأيي المتواضع على العلم، بالوقت الذي لا أسمح له بإلغاء وجودي.. وجودي كمشروع إنسان قائم على الأحاسيس، على التأثر، على الانجذاب، على الحب..

هـذا الكيـان الـذي لـم يقـدر العلـم أن يصـنع لـه، غيـر اختصـارات الـزمن واختزالات المسافة.

ما أزال معلقاً في عالم لا يدركه الأبصار، ويعجز الخيال أن يخرص أبعـاده، أو يحيط بمعالم ابداعه.. وأنا اخطو بخطـى واثقـة، علـى ذاك الرخـام المشـحون بالأنوار، الذي بدا يتقوض شيئاً فشيئاً، يتهالك حـدّ التلاشـي.. توقعـت أنهـا نهايـة الطريق، قمة الهرم الكوني.. لكنني اشرفت مطلاً على شجرة دانية القطوف.. ثمـة نزلة بدت على شكل درجات سلميّة، محاطة بـالمروج الخضـراء، بأزهـار وزوع لم تحظ الأرض، الكوكب الذي بدا وقتها أصغر من حبة الرمـل، بهـذه البهجـة، وهـذا الجمـال.. أسـرعت الخطـى باتجـاه الشـجرة العملاقـة، مـع شـعوري بطـيّ المسافة تحت اقدامي.. حتى اسـتظليت بهـذه السـدرة المباركـة ـ شـجرة المـاء ـ رأيت كل الفقاعات الكونية تجيء تستسقي عندها كالرعاع، وتمضي فـي حـال سبيلها.. كانت كل حبة تحمل المُزن المثقل بالغيـث.. أطـلُّ علـى نفسـي، موطـأ قدمي أتساءل: أين أنا.؟! كيف يمكنني أن أرى كل هذه الأكـوان، وهـي تـدور من حولي؛ كأنني في منطقة مجردة من الزمكان.

أهو العدم المحض، أمْ هو الوجود الأعم الآخر.؟

عجزت وأنا أنظر لهذه البالونات، وهي تقبّـل الشـجرة، تبركـاً بهـا، وصـغار البالونات يرضعن من حلمات الشجرة فرحات.. ومـا زلـت حثيـث الخطـى فـوق المروج الندية، أستشعر نثيـث المـاء.. شـاهدت خيامـاً بيضـاء مفتوحـة الجـانبين،

وسكنى كالملوك بلباسهم الحريري الأخضر، ووصيفات كالدرر المكنون، لا أنفاس تلهث، ولا أصوات ترغي، غضات بضات الوجوه، جريئات العيون، طريات الرضاب، رقيات الشفاه، نظيمات الجباه، على حسنٍ كبير يتخطى كل مقاييس الشعور بالنشوة والهيام. قلت: أي وربي إنها الجنة.

ناداني صوت شبحي لصورة شفيفة: لا تقسم، هذا عالم الاحساس.

شخص أكاد أعرفه، شكله مألوف، صورته ليست بغريبة عني، أجزم على معرفته، لكن الذاكرة مشوشة: إذاً أنا في عالم الاحساس. هكذا أجبته -بعد ما اختفت صورته.. لكني كنت أحسُّ بوجوده، وأحسُّ بأن كتلة ما، إن لم تكن لترافقني؛ فهي تراقبني بشكل وآخر.

أحسست بانكسار ما، بوهن وخوف.. جلست على عشب ذهبي اللون، بعد أن كان غضراء، تمايلت الزهور بأغصانها الحناء، ورحيقها العطر لتعانقني، وتخفف عني وعثاء السفر وذلَّ السؤال.. عانقتها بشبق ورغبة، وأماني خرساء، وكنت اعتقدها واحدة من وصيفات الحور، من خادمات الصباح، وفي نفسي شغف غريزي كبير، وشوق يفوق كل احساس وتقدير.

وكأن شمساً أشرقت، على ناطحة سحاب في العواصم الكبرى، طلعت وجوه بهية نضرة من نوافذ شرعت في ساق الشجرة، الساق السامق العريض.. فتعالت الأصوات بالتكبير والتهليل والتنزيه والتمجيد.. قلت: إنها جنة الله.

لكن صاحب الصوت الأول لم يفارقني، قال: لا أنه الصَّور.

ظللت منشدهاً: هل نُفخَ في الصَّور حقاً.!

قال: بلى منذُ زمن.

منذُ متى.؟ قلت مستغرباً.

قال: وكذا القيامة.

شعرتُ بالحرج والبلادة: أين أنا من كل ما جرى، أين كنت.؟!

قال بهدوئه الشجي: أنت وكل أهل الأرض، في زمن الغفلة.. الحقيقة إنكم موتى أزليين؛ لكن حلم الرب اقتضى وجودكم.

(١٠٤)

أتساءل ما موقف عديم الاحساس يومذاك.. من يدعي الحبَّ ويغدر، من يملك ويسرق، من ينادي بالإنسانية وهو متوحش، من يتظاهر بالبراءة وهو جلاد؛ أتساءل وموقفي جداً حرج.

المشكلة إننا موتى وجرائمنا تلطخ السماء، وتلوث الهواء، وتعتم النور، وتكتم الأمل؛ فكيف أن كنا أحياء مخلدين.؟!

في ثلاجة الموتى، التي تراكمت بها الدماء على الدماء، ووحل الوافدين من ضواحي وأحياء المدن، والقرى الثكلى.. صارت انفاسنا المخروسة موبوءة، حتى أن كانت قادرة على البوح، وتجيد النطق؛ سرت العدوى لتقضي علينا شيئاً فشيئا.

دخلت عائلة من رجل عجوز وأبنه، وزوجة أبنه الشهيد، التي تشبه فلقة القمر، وولدها الذي لم يتجاوز الخامسة بعد، وهم يتفحصون الأجساد.. ما أن لمحتهم حتى أعرضت عن مشاهدتهم، لكن الأبن الصغير بدا يتفرس النظر في وجهي، وجهي الذي لم أعرفه أنا. فصرخ بعلو صوته: هذا أبي.

ضحكت على الرغم من شدة النشيج في صدري، وقلت في نفسي: لو كنت أباك لما مت، كيف أموت وأترك زوجة مثل أمك.

امسكت الأُم بابنها وضمته إليها، لكنه أفلت منها، وعاد إلي. قلت في خلدي: (ربما كنت اباه في عالم الذر).. إلا أن الرجل العجوز ـ أعانه الله ـ الذي لم يقو الوقوف على طوله، قد انتكس للفورعندما رأى ابنه بين الجثامين؛ فسقط مغمياً عليه.. أسندوه وهمَّ أحدهم برشِّ الماء عليه، لكن دون جدوى، فقد لحق بالابن.. وبدل أن يخرجوا بجثة أبنهم الشهيد؛ خرجوا بجثتين. لف الأول بعلمٍ، والثاني لم يُلفّ حتى بخرقة، أو عليقة خيش: الأول شهيد حرب، والثاني كلب أبن كلب خلّف أبناً، وراء نزوة جنسية؛ ليُقتل سُدى.

لا أعرف المدة التي لبثتها في ثلاجة الموتى، لكنها بالتأكيد مدة طويلة، استطعت في غضونها، أن أجول في عنان السماء؛ لكنها كانت أقصر من حلم.!

بدأتُ أسمع نباح الليل، وبُكاء المطر مع هسيس العتمة، وشهقة الشوق في لُجّة البرق، وحنين التراب المنداث بزفرة الأمل المعدوم.. للحظة تغيرت موسيقى الروح إلى عزف مأفون، أهازيج حماسية، وأناشيد وطنية، وهتافات

صادحة بالكذب، تشد العزائم الخاوية.. فوددت أن أتحرى مصدر الصوت، وأن كنت لا أحب هذا النوع من الاناشيد التي تُنبأ بكوارث الحرب.. لم أقو على النهوض، لكن ثمة قوة تأخذ بيدي، تحاول إسعافي، وانتشالي من هاجس الموت، الذي بدا جاثماً على صدري.. وإذا أنا حي، وحيٌ بكامل قواه البدنية؛ إلا العقلية منها في محل تشكيك.

خرجت من باب الثلاجة الذي كان مفتوحاً على مصراعيه.. ما أن نظرني الحارس حتى صُعق وظل محنطاً.. درت حوله لأراه جامداً بلا نفس حتى.. قد كان بالقرب من سريره أبريق ماء، أخذت أرشُّ بقطرات الماء على وجهه، فأنتبه مذعوراً.. فلا أعرف ما قال لي، ولا أدري ما قلت له.

حتى شعرتُ وأنا على سرير في ردهة الإنعاش.. كان أبي جالساً عند قدميّ، وهو ممسك بيدي، وخالي مستلقٍ على الأرض.. ينتظران خبري بين الاستفاقة والموت، فبقائي بالغيبوبة، لا ينفع كلا الطرفين.. وقتها عهد إليّ أبي بأنه سيحقق كل أحلامي، بما فيها زواجي الفوري من صبرية.

ضحكت حتى بانت نواجذي: صبرية ذنبي الكبير الذي جدت البحث عنها، ولم اجدها حتى في سبل المغفرة.

(النهاية)

المحتويات

الأهداء ٥
مدخل.. ٧
إنصاف آراء.. ١١
لواعج الروح.. ٢٥
رسالة التغاضي.. ٣٧
ليلة الاعتراف ٤٩
العالم السفلي.. ٦٣
الحيوات الأخرى.. ٧٧
بين انذارين وثالث ٨٩
رجولتي على المحك ١٠٣
ذنب النجاة.. ١١٥
عواقب الأعذار.. ١٢٧
عشوائية الشعور.. ١٣٩

إملاءات شيطانية ١٥٣

لا أثق بتوبتي ١٦٧

اعترافات مكبوتة ١٨١

أيام الحزن ١٩٥

ظلال وأصداء الماضي ٢١١

نزولٌ إرتقائي ٢٢٣

قرابين النزوات...٢٤٣

فضول العقل ٢٥٧

الحلم الأخضر..٢٧٧

حلم الرب...٢٩٣

المحتويات...٣٠٣